
لماذا تنتفض الشعوب؟
الانتفاضات.. تجارب ومشاهدات
جيرو فون راندوف
ترجمة: د. علا عادل
العربي للنشر والتوزيع

لماذا تنتفض الشعوب؟

الانتفاضات.. تجارب ومشاهدات

لماذا تنتفض الشعوب؟

الانتفاضات.. تجارب ومشاهدات

تأليف: جيرو فون راندوف

ترجمة: د. علا عادل

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: سارة نجيب

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيداع: 2019/27615

الترقيم الدولي: 9789773195489



© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العيني – 11451 – القاهرة – مصر

ت: 20227921943+ – 20227954529+ فاكس: 20227947566+

www.alarabipublishing.com.eg

Originally published in the German language as "Wenn das Volk sich erhebt. Schönheit und Schrecken der Revolution" by Gero von Randow

Copyright © 2017, Verlag Kiepenheuer & Witsch GmbH & Co. KG, Cologne/ Germany

جيرو فون راندوف

لماذا تنتفض الشعوب؟

الانتفاضات.. تجارب ومشاهدات

ترجمتها عن الألمانية: د. علا عادل





"The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de."

بطاقة فهرسة:

راندوف، جيرو فون

لماذا تنتفض الشعوب؟/ جيرو فون راندوف.

ترجمة علا عادل. - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019، ص؛ سم.

تدمك 9789773195489

1- الثورات

2- العالم – الأحوال السياسية

أ- عادل، علا (مترجم)

ب- العنوان 321,09

إلى "سيجريد"

مقدمة

قبل حوالي مائة عام - تحديدًا عام 1917 - انتصرت الثورة الروسية المعروفة بثورة أكتوبر.

الثورة! يا لها من كلمةٍ كبيرة! لم تفقد قوة جاذبيتها بعد. كما أنها تندرج ضمن أكثر المفاهيم السياسية استخدامًا. بل إن هناك أحد مرشحي الرئاسة الأمريكية الذي جعل منها كلمته الأساسية في صيف عام 2017 وبكل جدية، ووسط هتافات الشباب، وهو السيناتور "بيرني ساندرز" ذو الخمسة والسبعين عامًا.

تشير كلمة "ثورة" على خلاف كلمتي "قيصر" أو "بروليتاريا" إلى الماضي وإلى الحاضر في الوقت نفسه، لا سيما إلى أوقاتٍ غير معلومةٍ وبها اضطراباتٌ ربما تكون لا تزال قائمة.

هل يُعد هذا تفاؤلًا أم تشاؤمًا؟ إنها الواقعية.. كم من مرة أُعلن فيها موت الثورة لدرجة تجعلنا نتساءل عن مواصلتها الحياة.

تمثل الثورات أحداثًا جِسامًا. حيث تزحف جموع البشر في الشوارع وتملأ الميادين وتقتحم الأبنية وتهاجم أصحاب السلطة لتصنع التاريخ. ليس هذا بالتعريف، بل هو مجرد توصيف يشير إلى أحد الخصائص الأساسية لها؛ فالثورات تمثل أحداثًا ذات مشاعر (لذا يُعد هذا الكتاب عاطفيًا). إذ تشعر الحشود الثائرة بالكره والحب في الوقت نفسه. وكلما زادت المقاومة ضد الثورة، قوي الشعور بالكره والحب لدى الثوار أكثر فأكثر. ليست الأفكار

وحدها هي التي تتحرك أثناء الثورات، بل الأجساد أيضًا. لذا فهي عاطفية، ولا بد أن تكون عاطفية. وهي ملموسةٌ وليست مجردة. "البِنى لا تخرج إلى الشوارع"، أي أن الأبنية لا تخرج إلى الشوارع لأنها موجودة بها بالفعل. هذا ما جاء في أحد منشورات المتمردين في شهر مايو عام 1968 في باريس، وهناك منشورٌ آخر يقول: "الثورات أعياد، أو لعلها ليست كذلك".

الثورة الجامحة تمثل حدثًا ذا مشاعر، وكذلك إخفاقها أيضًا، مثل "الربيع العربي". تقلباتٍ أخرى من النشوة والإحباط متوقعة، وأنا متأكدٌ من ذلك.. الحماسة أولًا، ثم العويل والشكوى. اثنان من المشاعر المتناقضة تمامًا، ليس فقط بسبب التحميل السلبي والإيجابي لها، بل لأن الحماس والإعجاب شعوران أقصر دوامًا وأكثر عمقًا من الإحباط. حيث يجرفك الحماس معه بينما يشدُّك الإحباط إلى أسفل.

لقد ذاع صيت الكلمات التي وصف بها "چورچ فيلهيلم فريدريش هيجل" George Wilhelm Friedrich Hegel تأثيرات الثورة الفرنسية عام 1789 على أحاسيس معاصريها، حيث كتب يقول: "لقد ساد تلك الفترة شعورٌ بالتأثر رفيع المستوى، إذ غمرت حماسة الروح العالم بأسره كما لو أن نوعًا من التصالح الإلهي مع العالم قد حدث"[1]. وما لبث الحالمون أن هبطوا على الأرض ثانيةً.

1- Georg Wilhelm Friedrich Hegel, Vorlesungen über die Geschichte der Philosophie; in: G. W. F. Hegel, Werke, Bd.12; Suhrkamp, Frankfurt am Main 1970, S.529.

تتمتع هذه السمة العاطفية للثورات بتوابع بالغة الأثر؛ فهي تبقى حية. إذ تنقل الروايات والقصائد والأغنيات والصور والأفلام المشاعر على مدار الأجيال، بل أكثر من ذلك، حيث تتكرر هذه المعايشات المتخمة بالمشاعر، وتُستحدث ليُعاد الإحساس بها. الثورات إذًا معايشاتٌ جماعية؛ أفعال تحررٍ جماعية، كما أنها وبكل أسف أيضًا فظائع تُرتكب جماعيًا.

أما بالنسبة لجمالها؛ فإنها تلك اللحظة الدراماتيكية للتحرر. كتب الفيلسوف الاجتماعي والأب الروحي للطلاب المتمردين "هربرت ماركوز" Herbert Marcuse في عام 1969 في "محاولة بشأن التحرر" أنه لا يمكن تحقيق التحرر إلا بالطريقة التي يشكل بها الأشخاص الأحرار (أو بالأحرى الأشخاص الذين هم بصدد أن يحرروا أنفسهم) حياتهم متضامنين. ويبنون عالمًا يفقد فيه الصراع ملامحه التي تتسم بالقبح والعنف من أجل البقاء[1].

إنه تحوُّلٌ شاملٌ للمشاعر. إذ تحل معايشةٌ لقوة جماعية محل اليأس الذي ينتاب الفرد؛ "يعرف كل المكافحين بشكلٍ جماعي لحظة الإثارة الكارثية تلك، لحظة السعادة المكثفة، حتى وإن كانت زائلة. اللحظة التي تلي اكتشاف القوة الذاتية، قوة لم يشعر أحد بأنها كامنة بداخله من قبل"، هذا ما كتبه فيلسوف اجتماعي آخر وهو "فريدريك لوردون" Frédéric

1- Herbert Marcuse, Versuch über die Befreiung; Suhrkamp, Frankfurt/M 1969, S. 72.

Lordon، أحد أكثر الخطباء ثقافةً للحركة الفرنسية البديلة المعروفة باسم " nuit debout" أي "ابقَ يقظًا طوال الليل!"[1].

وبقدر ما يعد التحرر جميلًا، يتسم العنف بالقبح... إذ يستطيع جموع الثوار في غمضة عينٍ أن يصبحوا جماعات جناة، قادرةٍ على ارتكاب أفعالٍ جماعية لم يكن أحدٌ منهم ليتجاسر على ارتكابها منفردًا، أيْ أن حضور الغاضبين الآخرين يقلل من عناء البحث عن مبررات لأعمال العنف.

وليس علينا سوى الإنصات جيدًا لأغاني الثورة التي ينشدها الناس حتى الآن؛ حيث يتغنى الكثير منها بمديح الإعدام دون محاكمة. **"فلنعلق الأرستقراطيين على أعمدة الإنارة!"** هذا ما ورد في نص أغنية طبقة عديمي السراويل، الطبقة التي كانت تتفاخر بأنها لا ترتدي سراويل الطبقة العليا. الأغنية المعروفة باسم Ça ira أي "سيصبح كل شيءٍ على ما يرام". كما ألف "هانز أيسلر" Hanns Eisler لحن أغنية "حي فيدينج الأحمر" Roter Wedding الذي كتب الشاعر "إريش فاينرت"Erich Weinert النص التالي لأجله:

"لا يوجد بيننا مَن يتذمر، بل يوجد عدم،

فشعارنا هو الصراع الطبقي،

ونغمته دامية!"

1- Frédéric Lordon, Les affects de la politique; Seuil, Paris 2016, S.142.

إذًا حسب نغمة دامية... ولنقل ذلك بكلمات أخرى؛ إذا كان العالم خُلق بما يجعل الثورات أمرًا لا حاجة له، لكان أكثر سعادة... ولكنه للأسف ظالم بشكل صارخ...

وقد بات الظلم أكثر وضوحًا عن ذي قبل، بل وعرضه أصبح مصورًا أكثر وبطريقة صادمة. في البداية جاءت الصحافة المطبوعة، ثم الإذاعة والتليفزيون واليوم تصدر عن شبكة الإنترنت صورةٌ للعالم، فتزداد وسائل الإعلام سخونة. لنستخدم مصطلحات مُنظِّر الإعلام الكندي "مارشال ماك لوهان" Marshall McLuhan (1911 - 1980) الذي قال إنها صورة أكثر حساسية وعاطفية وأسرع وأكثر إثارة. فهي تتسلل أسفل جلودنا...

تكافح الثورات من أجل الجسد ومن أجل اللغة؛ لأنها أحداثٌ تواصلية. وينظم أصحاب القرار أنفسهم شأنهم شأن الثوار ويتواعدون وينشرون معلوماتٍ عمليةً ونداءاتٍ وأفكارًا ويشوشون على قنوات الطرف الآخر. كما تندرج محطات الإذاعة والتليفزيون ضمن الأهداف التكتيكية التقليدية لثورةٍ ما. وتصبح هذه الخاصّية الإعلامية المميزة للثورة راديكاليةً من خلال شبكة الإنترنت المحمولة كما ثبت أثناء ما يطلق عليه "الربيع العربي". وعلى الرغم من أنه فشل في كل مكانٍ تقريبًا (حتى إشعار آخر) فإنه من الصحيح أن تفيد التكنولوجيا الرقمية - بسبب عاميتها ومرونتها وطبيعتها في الانتشار بين الأعداد الكبيرة - الشعوب المنتفضة أكثر مما تفيد قامعيها.

سوف نعايش هـذا لمـرَّاتٍ كثيرة. اثنتـان مـن الصـفائح التكتونيـة: إحـداهما اسـمها إمكانية والأخرى الواقع، كلتاهما تتماسكان معًا في قاع عالمنا، وتشـكلان شـحنةً كهربيـة تيلورية، أي أرضية. تُرى ما الأشكال التي ستُفرَّغ بها هذه الشحنة؟

إن عصر الانتفاضات والاحتجاجات والتمرد والثورات لم ينتهِ على أيَّة حال. وإن كـان هذا الكتاب ينظر وراءه بتناول ثوراتٍ ماضية، إلا أنه ينبغي أن يُحْدس احتمالية وجـود اهتزازات مستقبلية.

1

فصل شخصي:

لماذا ألفت هذا الكتاب؟

قبل خمسين عامًا، تحديدًا يوم 2 يونيو 1967، قُتل الطالب "بينو أونيزورج" Benno Ohnesorg ذو الستة والعشرين عامًا إثر إطلاق النار عليه من مسافة قريبة. من الخلف. كان الفتى قد شارك لتوِّه في مظاهرة مناهضةٍ لزيارة شاه إيران إلى مدينة برلين. وكان الجاني اسمه "كارل هاينز كوراس" Karl-Heinz Kurras، الذي كان آنذاك مفتشًا في البوليس الجنائي.

في نهار اليوم التالي، زار الشاه مدينة هامبورج مسقط رأسي، حيث علق أبي رايةً سوداء على الشرفة بدافع الاحتجاج. وخرجت المظاهرات مرَّةً أخرى، كما تعرض المتظاهرون مرةً أخرى للضرب المبرح من قِبل الشرطة الألمانية ورجال المخابرات الإيرانية، وسالت الدماء.

كنت وقتها في الرابعة عشرة من عمري، شعرت أنني مصدوم. وبعد مرور ثلاث سنوات فقط، تعيَّن عليَّ أن أعتبر نفسي اشتراكيًا. وبعد ذلك بفترةٍ طويلة جدًا، ثبت لي أن قاتل "بينو أونيزورج" كان عميلًا بجهاز أمن الدولة "الشتازي" في ألمانيا الشرقية. "الشتازي"؛ ذلك الجهاز الذي زعم أنه سليل

جهاز "الشيكا"[1] الاشتراكي؛ وهو الاسم الذي أُطلق على جهاز المخابرات الذي تأسس بعد ثورة أكتوبر. كم يتسم ترابط الأمور ببعضها بالغرابة أحيانًا!

وعلى الرغم من انعدام وجود شبكة الإنترنت وقتها، قبل خمسين عامًا، فإن كثافة المعلومات كانت عاليةً للغاية، تلك الصادرة عن التليفزيون والصحف المنتشرة بأعدادٍ كبيرة. إذ كان مجتمع ألمانيا الاتحادية مُطّلعًا. فقد قرأت حينها في مجلة "دير شبيجل" عن وجود نازيين قدامى يتقلدون مناصب رفيعةً في القضاء والجيش والاقتصاد والسياسة (كما عرفت لاحقًا أن بعضهم موجودٌ كذلك في هيئة تحرير مجلة "دير شبيجل" نفسها). وشاهدت في التليفزيون صورًا للحرب في فيتنام. كان أبي متحمسًا لأمريكا، كما كنت أنا أيضًا بدوري. إلا أن هذه الحرب أفقدتني الثقة في الولايات المتحدة الأمريكية. كنت أفكر بسلمية وأشارك في مسيرات أعياد الفصح؛ إلا أنني تعرفت هناك إلى أُناس ممن كانوا يعتبرون شعار "السلام في فيتنام" غير سياسي للغاية. كما أنهم أعادوا الاستعانة بشعار **"أيها المواطنون اهبطوا من الشرفات/ ليصنع الجميع سلطة الفيت كونج"**[2]، ذلك الشعار الذي لم يحظَ بإعجابي ولكنهم شرحوا لي أنه فقط عندما تتمكن جبهة "الفيت كونج"، جبهة التحرير الوطنية التي يقودها الاشتراكيون، من

1- هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب. كانت أول منظمات الأمن القومي السوفيتي. تأسست بتاريخ 20 ديسمبر 1917، بعد مرسوم صادر عن فلاديمير لينين (المترجمة).

2- الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة بـ"الفيت كونغ" حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين 1954 – 1976 (المترجمة).

طرد الأمريكيين من جنوب فيتنام، يمكن أن يحل السلام. كنت قد قرأت الكثير عن فيتنام، في مجلة "دير شبيجل" مرةً أخرى، وأنار التبرير بصيرتي. وعندما أثرت الموضوع ذات يومٍ في إحدى حصص المدرسة، ردَّ عليَّ المعلم بالإجابة التالية: "إذًا لا بد وأن تكون في صف الاشتراكيين أيضًا". ماذا كان بوسعي أن أقول ردًا على ذلك؟ ربما: "آه هكذا، هل من الأفضل ألا أكون؟" لا، فقد أجبت قائلًا: "حسنًا لأكن إذًا مؤيدًا للاشتراكيين".

أيْ مؤيدًا للثورة.

لماذا يقرر أحدٌ أن يؤيد الثورة، وما الذي يعنيه هذا على الإطلاق؟

هذا هو موضوع هذا الكتاب وأنا أبدأ بمدخلٍ شخصي لأنني آمل أن أقترب أكثر من غرضي بهذه الطريقة. أيْ أن هذا الفصل شخصي على وجه الخصوص. وإذا لم يكن هذا المنظور يلقى اهتمامًا لديك، فما عليك إلا أن تتجاوز هذا الفصل وتغفله.

أعترف أن إجابتي في حصة المدرسة تسببت في بث الخوف قليلًا داخلي. كنت قد قلت آنذاك أكثر مما ظننت حقًا. في الوقت نفسه، بدا لي الأمر كما لو أنني أهز شيئًا يتظاهر فقط بأنه بديهي.

في تلك الأيام، أقام فريق "البيتلز" حفلتين في مدينة "هامبورج"، حيث وجَّه الصحفيون أسئلةً شديدة الغباء أثناء المؤتمر الصحفي. كما جاءت ردود الفريق الموسيقي وقحةً وهادئة. أردت أنا أيضًا أن أكون كذلك، أيًا كان ما يقوله الكبار. على سبيل المثال، مدرسو الألمانية واللاتينية المصابون بعاهة

الحرب الذين امتنعوا عن الحديث عن الحرب كما لم يتحدثوا عن النازيين، أو مدرس التربية الدينية الذي كان يتفاخر بالكيفية التي حصل بها أثناء الحرب على المرتبة العالية التي طالما شغلها الروس. إلا أن الرجل لم يكن يشكل لي أيَّ فارق لأنني كنت قد أنهيت دراستي للتربية الدينية في مدرسة "فالدورف". هناك كانوا يهتمون باستخدام لغةٍ رقيقةٍ بينما كانت المدرسة يسودها التسلط شأنها شأن جميع المدارس الأخرى، حيث كانوا يقدمون لنا من حينٍ لآخر دروسًا عن المناطق الشرقية الضائعة والأرواح الآرية أو عن التجارب الروحية.

كان هذا هو العالم الذي أردت أنا وأصدقائي أن ننهي علاقتنا به عام 1976. عالم ما يُطلق عليه موسيقى "البوب" الألمانية ومجلدات روايات "لاندسر". في ذاك العام، اكتشفت في ألبوم "فرانك زابا" Frank Zappa وعنوانه "غضب" !Freak Out أغنية عن "شرطة العقل". كما صدر لحن أغنية "الفري جاز" المتطرفة Ascension أي "صعود" لعازف الساكسفون الأمريكي "جون كولترين"، ذلك اللحن الذي تجاوز كل الأعراف. وغنى "جيمي هندريكس" Jimi Hendrix الكلمات التالية:

"هل سأعيش غدًا؟

لا أستطيع أن أجيب ذلك..

هل سأعيش غدًا؟

لا أستطيع أن أجيب ذلك..

لكنني أعرف بالتأكيد

أنني لا أعيش اليوم.."

صدرت هذه الأغنية عام 1967، قبل خمسين عامًا... في هذا العام رسمتُ على سور المدرسة ذات ليلةٍ كلمة **"مصنع الرعيَّة"**. بالنسبة لي كان ما كتبه "روبرت موزيل" Robert Musil في كتابه "رجل بلا صفات" صائبًا: "إذا ما استعرضنا المزاعم آنذاك فسيتبين لنا أن لها غرضًا آخر بخلاف أن تكون صحيحة؛ لا سيما أن تهدئ من روعنا".

تصديت لقراءة كتاب جيب صدر حديثًا، كان اسمه "لينين.. من كتابات الأعوام 1895 - 1923"[1]؛ لأنني وبعد تبادل الحديث الشجاع مع المعلم في الحصة آنذاك، أردت أن أعرف من مصدرٍ مباشر صاحب خبرةٍ ما الذي يعنيه أن أكون اشتراكيًا. فوجدت في الكتاب على سبيل المثال جزءًا من مقالة "لينين" "مهام الديمقراطيين الاجتماعيين الروس" التي كان قد كتبها عام 1897 في منفاه[2]، أي قبل ثورة أكتوبر بعشرين عامًا. وقد فسر فيها لماذا يتعين على الثوريين الاجتماعيين بالضرورة الكفاح من أجل الديمقراطية الأكثر منطقية

6- Hermann Weber (Hrsg.), Lenin. Aus den Schriften 1895 – 1923; dtv dokumente, München1967.

2 -A. a. O. S.28 ff.; der Aufsatz in voller Längein: Wladimir Iljitsch Lenin, Werke, Bd.2, S.335 ff.; Dietz Verlag, Berlin 1961 (im Folgenden als LW zitiert).

وحزمًا في المنهاج. أعجبني ذلك. وكنت أقرأ الكلمات المكتوبة بسذاجةٍ ودون وضعها في سياقٍ تاريخي أو أيديولوجي تمامًا مثلما يقرأ الأشخاص الآخرون من المؤمنين بنصوصٍ ما من الإنجيل أو القرآن. ولم يخطر ببالي مطلقًا أن الأمر كان يتعلق بمرحلة الصراع ضد نظام القيصر وأن "لينين" في المعتاد كان على علاقةٍ آلية بالديمقراطية.

كانت الثورة البلشفية قبل مائة عامٍ حدثًا وضع ملايين البشر أملهم فيه. ثم تبعها إرهابٌ وحربٌ ومجاعاتٌ وستالينية ومعسكرات اعتقال سيبيريا المعروفة باسم "جولاج"، إلى جانب الانحلال والتدهور. بُعث الأملُ في الملايين، ومات الملايين. لم يكن الإحباط السيئ أمرًا مطروحًا. وعلى الرغم من أن هناك أشخاصًا يزعمون أنه لولا ثورة أكتوبر لما جرت هزيمة النازية ودحرها، فإن ذلك ليس إلا قراءةً للتاريخ قائمةً على الفرضية، ليس من شأنها أن تغير أيَّ شيءٍ في الواقع المؤلم للاشتراكية السوفيتية.

لم يكن الإحباط السوفيتي الأخير من نوعه. إذ تعرض الكثيرون من جيلي ممن آمنوا بالثورة في كوبا أو نيكاراجوا أو الصين أو فنزويلا إلى الإحباط بدورهم.

لقد غير التفكير في الثورة عالم خيالي عام 1967. كما غير حياتي اليومية. حيث رأيت البيئة المحيطة لي بعين مختلفةً فجأة. وبدا الواقع لي وكأنه مجرد فترةٍ انتقالية، شيءٍ مؤقت. واعتبرت كل صراع مع السلطات المستبدة صراعًا ضد العلاقات والملابسات التي كانت مجحفة، ليست فقط في تفاصيلها ولكن في مجملها أيضًا. تلك الأمور التي كانت تتعارض تمامًا مع المُثل التي علمونا إيَّاها في المدرسة. توهمت أنني أرى ما وراء الكواليس المحيطة بي. كان ذلك هو الوعي بأنني أعرف كل شيءٍ أفضل من الآخرين. وهو أمرٌ طبيعي في مثل هذا العمر.

أذكر تلك اللحظة في مايو عام 1968 التي قرأت فيها عبارة "رودي دوتشكه" Rudi Dutschke التي تتسم بقلَّة الحيلة: "لا تجمعنا اليوم نظريةٌ مجردة، بل ذلك الاشمئزاز الوجودي من مجتمعٍ يتحدث عن الحرية بينما يقمع بدقةٍ وحدة الاهتمامات والاحتياجات المباشرة للأفراد والشعوب التي تحارب من أجل تحررها الاقتصادي - الاجتماعي[1]". وقد وضعت علامةً على المقولة التالية: "ذلك الاشمئزاز الوجودي من مجتمع يتحدث عن الحرية". إذ إنني كنت أشعر بهذا الاشمئزاز أيضًا.

---

1 -Rudi Dutschke, Die geschichtlichen Bedingungen für den internationalen Emanzipationskampf; in: Uwe Bergmann, Rudi Dutschke, Wolfgang Lefèvre, Bernd Rabehl, Rebellion der Studenten oder Die neue Opposition; Rowohlt, Reinbek bei Hamburg ,1968 S.91.

خلاصة القول، كان العامان 1967 و1968 بالنسبة لي ولآخرين كُثُر هما عاما الإنكار. ومنها انبثقت جاذبية مصطلح الثورة، من السلبية. ولم يكن يمكن تخيل شيءٍ أفضل سوى التكملة الحتمية التي لولاها لتحول الإنكار إلى إحباط.

في عام 1968، حاصرنا جريدة "بيلد" (اضطرابات عيد الفصح) لأن تحريضها ضد الطلاب اليساريين في برلين أفرز بشدَّةٍ مناخًا أتاح لأحدهم أن يردي "رودي دوتشكه" رميًا بالرصاص وهو يوجه إليه السباب قائلًا: "أيها الخنزير الاشتراكي القذر!"، حينها أُصبت للمرة الأولى بقنابل الغاز المسيل للدموع في عيني. وعندما أسمع اليوم كلمة "ثورة" فإنني أتذكر رائحته النفاذة. حتى أن عبواتٍ صغيرةً منه يكاد يكون لها تأثيرٌ منعش. إذ إنه عطر الثورة. كم استنشقته كثيرًا منذ عام 1968.

استدعتني الشرطة ذات يوم، بحجة أنني حطمت إحدى نوافذ العرض أثناء واحدةٍ من المظاهرات الاحتجاجية، وهو محض افتراء. هذا ما أوضحته للموظف الصارم بلطفٍ وأنا مُنتشٍ قليلًا. إلا أنني شاركت لاحقًا مع آخرين في تهشيم ألواح الزجاج الكبيرة للبيت الأمريكي في "هامبورج". وكان أبي قد اصطحبني إلى هناك قبل ذلك بأعوامٍ قليلة كي أستمع إلى تراتيل الكتاب المقدس وموسيقى الروحانيات و"البلوز". إلا أن العدو هو مَن كان يقبع في هذا المبنى ذاك اليوم، أو هكذا اعتقدت. وأخذنا نهتف " **USA – SA – SS** -". نحن الأطفال الألمان أبناء ديمقراطية مات لأجلها جنودٌ أمريكيون في كفاحهم ضد دولة جيش الحماية النازي SS.

دارت النقاشات الأولى حول استخدام العنف الثوري. ولم يعد مشغل الأسطوانات لديَّ يدير أغنياتٍ روحانية مثل "جميع أبناء الرب لديهم حذاء"، بل أغنية "رجل حرب الشوارع" Street Fighting Man لفريق "ستونز" Stones.

Everywhere I hear the sound of marching, charging feet, boy,

Cause summer's here and the time is right for fighting in the street, boy..

"أسمع في كل مكان صوت الأقدام التي تزحف، يا فتى،

لأن الصيف جاء وحان وقت حروب الشوارع، يا فتى"

إلا أنه في أغسطس من عام 1968، جرت بالفعل حروبٌ وصراعاتٌ في الشوارع. ليس في "هامبورج" أو برلين أو باريس، بل في براج. وتحركت المدرعات السوفيتية لتدهس المتظاهرين التشيكيين. وسرعان ما وجد عشرات التلاميذ والطلاب أنفسهم في مركز اتحاد الطلاب الاشتراكيين الألمان يتناقشون حول الأسئلة التالية: ما الذي يعنيه الزحف؟ ماذا نحن فاعلون الآن؟

التضامن! هذا هو الوضع. إذًا لنتظاهر! الرأي الثاني يتضمن الاتحاد السوفيتي الاشتراكي. إذًا لن نتظاهر. رأي ثالث، إن اشتراكيي براج الإصلاحيين من الديمقراطيين الاشتراكيين المدعومين من الغرب، أيْ المقززين؛

والإمبريالية السوفيتية هي العائق الأكبر أمام ثورة العالم، وهي أيضًا شيءٌ مقزز. هذا هو الرأي الماوي[1].

وماذا بعد؟ قررت أنا وأصدقائي المشاركة في المظاهرة المناهضة للزحف الروسي، حاملين ملصقاتٍ عليها صور "تشي جيفارا". ثم عرفنا لاحقًا أن "جيفارا" كان على خلاف مع الحزب الاشتراكي بالاتحاد السوفيتي لأنه حسب رأيه لم يكن يؤيد الثورية العالمية بقدر كافٍ. أما "فيدل كاسترو" الذي كنا نحترمه في ذلك الوقت فقد سمعنا أنه وصف الزحف الروسي لاحقًا بأنه "ضرورةٌ مؤلمة".

تحركنا إذًا. لم يكن لدينا آنذاك مكبرات صوت. فراح أحدنا يهتف **"ابعدوا المدرعات، ابعدوا الحزب الاجتماعي الديمقراطي حزب دوبتشيك!"** ولكن هذه الهتافات لم تكن لديها القدرة على إشعال الفتيل. الأمر الذي لا يكمن في الوزن والقافية السيئة للشعارات.

امتنع جانب من اليساريين آنذاك عن التضامن مع الديمقراطيين التشيكيين. والحقيقة الكامنة وراء هذا السلوك المشين هي ما يلي؛ كان عام 1968 يختلف من حيث الجودة في غرب أوروبا عن عام 1968 في الشرق. إذ أصاب "ميلان كونديرا" حين كتب لاحقًا يقول: "حملت ثورة شباب "مايو

1- الماركسية اللينينية الماوية نظرية شيوعية ثورية تستند إلى أفكار ماركس وأنجلس ولينين وستالين، وبخلاف الأحزاب الشيوعية التقليدية، تبرز هذه النظرية أفكار القائد الشيوعي الصيني ماو تسي تونج وتعتبرها تطويرًا خلاقًا للماركسية اللينينية (المترجمة).

باريس" بصمة التفكير الشعري الثوري. وبالمقارنة، بينما كانت ثورة "ربيع براج" تشوبها ريبة الكبار بعدما قامت"[1]. لقد شعرنا بذلك، ولكننا فسرنا الإرهاصات فقط بطريقةٍ مغايرة عمَّا فعله مَن اجتاز إحباطاته . إذ كنا نحن أنفسنا في المقابل ثوريين شاعريين وشبابًا كما رفضنا ريبة الليبراليين وشكهم. أو بالأحرى رفضنا كل شيءٍ تقريبًا؛ رفضنا الاشتراكية سواء أكانت ليبرالية أم سلطوية مستبدة.

لكننا أحسسنا بأننا نوضع أكثر فأكثر أمام اتخاذ قرار.

سياسة واقعية غير واقعية

بعد أن انقضى اجتياح أحداث عام 1968، انتهى بي المطاف إلى كيانٍ طائفي يساري؛ لأنني كنت أعتقد أنه يجب أن يحل العزم والإصرار محل التلاعب، وتحل سياسة السلطة محل التمرد العشوائي، أي العمل الجاد على ثورةٍ ما. وتمنينا شيئًا مثل ما عبر عنه "موزيل" بكلماته **"عقيدة حياة غير قابلة لأن تتمزق"**.

تطلعنا، أنا وأصدقائي، حولنا ولم نرَ سوى سلطةً وحيدة، تلك التي بدت وكأنها تقف في صف الشعب الفيتنامي وكوبا الثورية، لا سيما الاتحاد السوفيتي. ومعه المعسكر الاشتراكي الذي يضم جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

1- Milan Kundera, Sur les deux grands printemps et sur les Skvorecky; in: Ders., Une rencontre, Gallimard, Paris 2009, S. 137 f.

بالطبع لم تكن ألمانيا الشرقية تلك جذابةً حقًا. كما أيقنا أن العبارة الرنانة **"الاشتراكية ذات الوجود الواقعي"** كانت تتسم بنبرة استسلام. ولكننا رأينا أنه ليس بالإمكان اختيار الظروف المواتية، الأمر الذي يسري على طبقة العمال والحزب الاشتراكي؛ فهم على تلك الشاكلة، ومَن يردْ الثورة يجبْ أن يتوحد معهم، أو هكذا فكرنا وبدأنا نتصل بالحزب الاشتراكي الألماني الذي تأسس عام 1968. حيث كان هناك آنذاك الكثير من الكلمات المُنمقة المُتداولة في الأروقة مثل **"إعادة التشكيل"** وخلافها. إلا أنه كان الحزب نفسه.

تعرفنا وقتها إلى عمَّال ميناء "هامبورج" الذين كافحوا ضمن المقاومة ضد النازية وظلوا ينتمون إلى الحزب الاشتراكي الألماني غير الشرعي حتى عام 1968 على سبيل القدوة. وخاب ظننا في المقابل من مستوى العمل التأهيلي. إذ لم تتوفر نصوص أصلية تقريبًا للكتاب الكلاسيكيين كما يُطلق عليهم ("ماركس" و"إنجل" و"لينين")، ما كان يقابله أطروحاتٌ عتيقةٌ من ألمانيا الشرقية. لم نكن قد أدركنا بعد أن التأهيل للعمل بالحزب يسير على طريقة غسيل العقول، وظننا أننا قادرون على إعادة إحياء مُجمل المخزون محدود الأفق إلى حدٍّ ما ورفع شأنه، أي نعمل على "بلشفة الحزب"، هذا هو المُسمى الذي أطلقناه على الأمر، عبارةٌ مُستخدمة مأخوذةٌ من العشرينيات دون دراية بمحتواها الحقيقي، لا سيما الستالينية.

عرفت فيما بعد أنه كانت هناك تحفظاتٌ بين الشيوعيين القدامى ضد السماح لنا نحن المجانين بالانضمام إلى الحزب. شباب يستخدمون مفردات

غريبة يدونون كل شيء أثناء اجتماعات الحزب ويتجاسرون على انتقاد كل شيء ممكن. إلا أن هناك مجموعةً فاعلةً أكثرُ مرونة تلتف حول "فولفجانج جيركه" Wolfgang Gehrcke - الذي تقلد منصب نائب بالبرلمان الألماني عن حزب اليسار - تمكنت من فرض نفسها. فتناقشوا أولًا حول ما إذا كان الوافدون الجدد سيتكيفون وثانيًا حول ما إذا كان الحزب سيصبح بهذه الطريقة أكثر جذبًا للشباب. وانتهى النقاش بأن هؤلاء الفاعلين محقون في كلتا النقطتين، خاصة الأولى منهما.

أنهيت الخدمة العسكرية في الجيش الألماني وفقًا للتكليف؛ لأن كلمة المرور السرية تمثلت في ضرورة البقاء في أماكن وجود شباب العمال، أي ليس بين المتهربين من خدمة الحرب وهم في الأغلب طلاب الثانوية. وبناءً عليه، تدربت بوصفي جندي مدفعية مدرعة على إطلاق القذائف من قبضة المدرعة أو بدفنها في الطبيعة بمنطقة "شليسفيج هولشتاين" تحسبًا لقدوم الروس، الجيش الأحمر، أي رفاقي. لم أشعر بالخوف من رؤسائي إذ إنني كنت في مهمة ثورية، لا سيما تأسيس "مجموعة جنود مناهضة للعسكرية". ترى هل أثارنا آنذاك مؤلف الأغاني "فرانتس جوزيف ديجنهاردت"؟ حيث كان يغني قائلًا:

"ولكن إذا سألتني، يا فتى،

هل يجب أن ألتحق بالجيش؟

لا يسعني إلا أن أنصحك، يا فتى،

إذا كنت قويًا بما يكفي، فلتذهب..

(...)

تَعلَّم أن تقاتل بأسلحتهم،

فسوف نحتاج إليها ذات مرة، تعرَّف

إلى نقاط ضعفهم، وأضعِف

من المعنويات لديهم".

مرَّةً أخرى رأيت نفسي رائعًا. يا له من أمرٍ مضحك! على الرغم من كل المعاملة السخيفة التي وصلت في بعض الأحيان لأن تكون مُهينةً للمرؤوسين من صغار الضباط، تعلَّق الأمر آنذاك في بداية السبعينيات بجيش دولة القانون. حتى وإن ظلت هنا وهناك بقايا التقليد النازي وظلت عبارات النازية تتردد. وتمكنت من تقديم الشكاوى التي مفادها أن أحد الرؤساء قال إننا نقف بطريقةٍ غير منظمة كما لو كنا في مدرسةٍ يهودية. تمكنت من تحقيق شيءٍ ما، ولكنني أضفته على حسابي الثوري الشخصي وليس حساب دولة القانون.

التقيت في السنوات اللاحقة بأشخاص أكثر شجاعةً أطلقوا على أنفسهم مسمى الثوريين القانونيين، كانوا قادمين من السلفادور أو أنجولا أو فيتنام أو تشيلي، وأثاروا إعجابي مثل الفيلسوفة والمدافعة عن حقوق المواطنين "أنجيلا دافيس" Angela Davis، تلميذة "هربرت ماركوز" Herbert Marcuse التي كانت مهددةً بعقوبة الإعدام في ولاية كاليفورنيا في فترة حكم "رولاند ريجان" لها بسبب "دعم الإرهاب". إلا أنهم أطلقوا سراحها عام 1972. ثم حدث وأن شاهدتُ "أنجيلا دافيس" لاحقًا في عشاءٍ لجمع التبرعات بمدينة نيويورك فغدت بطلتي هذه عضوةً بالحزب الشيوعي، تحديدًا الحزب الشيوعي الأمريكي الذي كان دوجماتيًا أكثر من الآخرين جميعًا، الأمر الذي زادني قوة. ألم يتعاطف المطرب والمدافع عن حقوق المواطنة "هاري بيلافونتين" Harry Belafonten مع هذه الجماعة الغريبة؟ لقد حكى لي ذلك بنفسه. وعلى الرغم من أنه يمكن وصم الاشتراكيين الأمريكيين بالكثير من الأمور، فإنه لا يمكن اتهامهم بأنهم تخاذلوا ذات يوم عن الكفاح من أجل حقوق الأمريكيين الأفارقة. وكان ذلك بالأمر الجيد. كنت أستشعر الأمور الجيدة.

التناقضات وكيفية إزاحتها

بعد ذلك بوقت قصير، تواصلتُ في لندن مع حركة التحرير بجنوب أفريقيا ANC أو المؤتمر الوطني الأفريقي، حيث راودتهم فكرة إرسالي ورفيق آخر في رحلةٍ عبر جنوب أفريقيا كي نلتقط - نحن ذوو البشرة البيضاء متخفين بوصفنا سياحًا - صورًا لمحطات القطارات والأرصفة والكباري، تحديدًا لأجل الذراع المسلح من الحركة المعروف باسم تنظيم رُمح الأمة الذي كان يهاجم مثل هذه المنشآت ومعامل تكرير النفط والمواقع العسكرية.

تم اللقاء في ظروفٍ أشبه بإطار فيلمٍ من أفلام الجاسوسية. حيث كان الموعد في إحدى محطات مترو الأنفاق والإشارة المُتفق عليها للتعارف طبعةٌ معينةٌ من مجلةٍ مصورة. الأمر الذي تبعه التحرك بسيارات مختلفةٍ عبر مدينة لندن من شرقها إلى غربها، حتى فقدت القدرة على تحديد المكان فجاء اللقاء أسفل شجرةٍ كبيرة في حديقة "هايد بارك". لكنه كان منعدم الأهمية بدرجة مخيبةٍ للآمال. ثم اشتريت بعدها أنا ورفيقي الألماني قميص "البانك". وعرجنا على أحد مقاهي الشارع، حيث لفت نظري كيف كانت الفتيات يرتدين تنوراتٍ قصيرةً للغاية، بينما لاحظ هو أن الصبيان يرتدون بناطيل ضيقةً للغاية.

لم تسفر مغامرة جنوب أفريقيا تلك عن شيء. إمَّا لأن قيادة الحزب التي كانت تراعي الشرعية بصرامة أبدت بعض التحفظات أو لأنهم شعروا بالقلق

لأن رفيقي كان مثلي الجنس، الأمر الذي كان الحزب آنـذاك يعتـبره يمثـل خطـورة عـلى الأمن وهو بدوره ليس سوى منح خوفهم من المثليين سببًا عقلانيًـا.. لم أدرك هـذا الأمـر وقتها بجلاء. وعلى الرغم من أنني كنت قد نظمت حملاتٍ للتثقيـف الجـنسي بوصـفي تلميذًا مناهضًا للاستبداد، فإن كل شيء ظل مغايرًا للجنس بشكلٍ صرف، وأنا أذكر تلـك النقاشات مع رفاقي الاشتراكيين التي تجادلنا فيهـا حـول مـا إذا كانـت المثليـة الجنسـية "شيئًا غير طبيعي".

في نهاية شهر أغسطس من عام 1980، سافرت إلى بولنـدا. هنـاك عـاصرت الاعتصـام الكبير والتاريخي في ترسانة "جدانسك" وشعرت ببلبلةٍ شديدة. كانت تلك حركةٌ عماليـةٌ تسير في الاتجاه الصحيح! تظهر عليها كل المظاهر النمطية للثورة، تحلّت كـذلك بلجـان إضرابٍ تتسم بطبيعة المجالس الاستشارية وكل ما يتعلق بذلك وصـولًا إلى حظـر تنـاول المشروبات الكحولية الذي فرضه "ليش فاليسا" ورفاقه على مدينة "جدانسـك" بأسرهـا. حيث ساد في كل مكانٍ وطُبق بصرامة، أيْ قـوةٍ عماليـة مضـادة، ولكنهـا مدعومـة مـن "رونالـد ريجـان" ومـن البابـا. لم أعـد قـادرًا عـلى فهـم العـالم. ودونـت لـنفسي بعـض الملاحظات. ما زلت أحتفظ بها حتى الآن تمامًا مثل بطاقة هوية الإضراب. حيث جاء في دفتر ملاحظاتي ما يلي على سبيل المثال:

"فنيو تركيب، منذ 32 عامًا في الترسانة: ‹نحن مَن يصنع الثروة، ولكن إلى أين تذهب؟ نريد نقابة حرة وحريـة تـداول المعلومـات›" (هـذا مـا يقولـه الجميـع هنا). يسهر المضربون طوال الليل، تعمُّ طاقةٌ كبيرة ونظام، والرفـاق غـير مُرحـبٍ

بهم، الأمر يثير الاشمئزاز. الحزب = قيادات. في المساء قداسٌ كاثوليكي في الساحة، العمال الذين يحتلون المصنع ليلًا ونهارًا يجثون على الأرض ويصلُّون. سيداتٌ يرتدين "الأوفرول" يوزعن أزرار صدر منقوشةٌ عليها صورة البابا. بالأمس أعلن وزير المالية الجديد أن حجم ديون الدولة بلغ 20 مليار زلوتي بولندي. العمال: "نعم، لماذا لا يشرح لنا أحدٌ ذلك؟ لماذا كان كل شيء سريًا دائمًا؟".

حسنًا، لماذا فحسب... لقد وضعت لنفسي نظريةً مفادها كالتالي؛ في بولندا لم تكن هناك اشتراكية أكثر من اللازم بل القليل منها فقط. حتى أنني ألفت كتابًا ستالينيًا بدرجة محرجةٍ عن ذلك، لم يخفِ النقد الموجَّه إلى حزب العمل الحاكم (مما تسبب في إشكالية لقيادات الحزب الشيوعي الألماني DKP بعد غضب نظرائهم البولنديين) وكان ذلك كله بدافع المطالبة بتأمينٍ أكثر صرامة "لسيادة العمال" و"الاشتراكية". لا يمكن أن يسقط أكثر من ذلك مَن بدأ مناهضًا للاستبداد.

لم تكن فكرة الحرية هي التي دفعتني لإعادة التفكير في النهاية بل حركة السلام. حيث اجتهدتُ في بداية الثمانينيات بناءً على تكليفٍ من حزبي للدفاع عن الصواريخ السوفيتية بوصفها تسليحًا بغرض الدفاع بينما أفضحُ تلك الأمريكية لأنها أعمالٌ عدائية. لم يسبب ذلك لي مشكلاتٌ بقدر ما سبب لي سؤالًا آخر: هل الثورة حقًا الهدف الأسمى وليس الحفاظ على السلام؟ لا بد وأن يرى البعض أنه سؤالٌ أيديولوجي بحت، ولكنه يمسُّ فهمي لذاتي

وكذلك فهم بعض الأصدقاء لذواتهم. فقد قرأنا عام 1983 أن "يـوري أنـدروبوف" Juri Andropow، الستاليني السابق والقائد الأعلى للقوات السوفيتية التي غزت المجر عـام 1956، أصبح لاحقًا رئيس جهـاز الاسـتخبارات الـروسي KGB ثـم الأمـين العـام للحـزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، وأن هذا الرفيق الذي أثبت كفاءته أفـاد بـأن الكفـاح مـن أجل السلام يُعد الواجب الرئيسي للاشتراكيين، وليس الصراع الطبقي، بـل ولـيس الثـورة. ها هي الثورة تحل فجأةً في المرتبة الثانية.

ما تسبب في غضب الرفاق الأكبر سنًا، وفي علامات الاستفهام لدينا.

هل توجَّب أن يوضع كل شيء على المحك؟ كان ذلك هو المنطلـق. ونظـرًا لأن حركـة البحث التي كنا نقوم بها بشكلٍ سري وغير شرعي تعرفت إليها أجهزة الحزب وحاربتهـا على الفور، فقد أعدنا اكتشاف إشكالية الحرية. في البداية بوصفها إشكاليتنا الخاصة ثـم بوصفها إشكالية الشيوعية بأكملها.

وعندما لاحت بوادر تغييرٍ جذري في الشرق عـلى يـد "ميخائيـل جورباتشـوف" عـام 1985، تواصلت الانتقادات داخل الكثير من الأحزاب الشيوعية وتصاعدت. وقد بـادرت جبهتنا "المنادية بالتجديد" بمحاولةٍ لإصلاح الحزب الشيوعي الألماني وإرساء الديمقراطيـة به. محاولة في كيان غير صالح لشيء. ثم تركتُ الحزب في النهاية؛ وظلت الثورة المعتملة في شرقي ألمانيا غريبةً عني لفترةٍ طويلة على الرغم من ذلك. استغرق الأمر بعض الوقت حتى اعترفتُ بالحقيقة؛ فقد أخطأت فحسب، بل وخنت فكرة الحرية.

أدركتُ تـدريجيًا أن التحـول السـياسي في ألمانيـا الشرقيـة كـان ثـورةً بالفعـل. حيـث اندفعت الحشود لتملأ الشوارع وترنحت سـلطة الدولـة واستسـلمت حتـى تـم تفجـير البيت الصغير وسقط السور، فتشـكلت فجـأةً مسـاحةٌ للحريـة. وهـذا مـا يُطلـق عليـه الثورة، حتى وإن لم تحظَ النتيجـة بإعجـاب بعـض الضـالعين فيهـا لاحقًـا، فهـي ظـاهرةٌ نمطية بالنسبة للثورات.

شكلت زياراتٌ لاحقة لكوبا مناسـباتٍ أخـرى لمراجعـة التفكـير بشـأن أيـديولوجيات الثورة بالقرن العشرين. حيث التقيت هناك بمنشقين ذكرتني سـجاياهم وتبريـراتهم بمـا أعجبني عام 1967 في الطـلاب المتمـردين، لا سـيما الإرادة غـير المشروطـة لـلصراع ضـد استعلاء السلطات الاستبدادية. الرغبة في الحياة بطريقة مختلفة، الحيـاة "في الحقيقـة"، عـلى حـد قـول "فاتسـلاف هافيـل" Vaclav- Havel، المنشـق والثـائر التشـيكي، وهـو بالمناسبة صـديقٌ لمـثلي الأعـلى "فرانـك زابـا" Frank Zappa المؤلـف الموسـيقي الكبـير والمفكر الحر. ها هي دائرةٌ تنغلق مرةً أخرى.

في يناير من عام 2011، كنت شاهد عيانٍ على ثورةٍ ذات أهميةٍ تاريخيـة عالميـة، لا سـيما الإطاحة بالحاكم في تونس، انطلاقة "الربيع العربي". حين وصلتُ إلى تـونس، كـان الـديكتاتور "بن علي" لا يزال على رأس السلطة. لم أشم هذه المرة الغاز المسيل للـدموع فقـط بـل تعـين عليَّ الهروب من الطلقات النارية الحادة. وعندما غادر "بن علي" البلاد، ظلَّت هذه الطلقات تدوِّي لمدة ليالٍ أخرى. سمعت عن مزاعم بشأن قواتٍ خاصة متحركةٍ للثورة المضادة تقتـاد

الصحفيين من فنادقهم فحزمت حقيبة طوارئ. كان ذلك بمثابة الإنـذار الكـاذب. وعـلى الرغم من أن هذا لم يكن هنا تمثيلًا للثورة، بل كان ثورة بالفعل.

ولن تكون هي الأخيرة من نوعها.

ليس بالموضوع الجديد

تهتـز الأرض وتنشـق في كثـيرٍ مـن أنحـاء العـالم المختلفـة تحـت الأبنيـة المجتمعيـة والسياسية، حتى في البلاد الغنية. حيث ينتشر فيها انعـدام ثقـة الشـعب تجـاه الطبقـة الصغيرة المشكَّلة ممن تسير أمورهم بأفضل شكلٍ على مستوى العالم، الأمر الـذي عـبرت عنه الأطراف اليمينية ضمن طيـف المجموعـات السياسـية عـلى سـبيل المثـال في نتـائج الانتخابات بالنسبة للأحزاب، وبخلاف ذلك أيضًا في الاستفتاءات الشعبية. فهل يمكـن أن يسفر ذلك عن زلزال؟ وإذ كانت الإجابة نعم، فأيُّ نوعٍ إذًا من الزلازل؟ حين حاولت أن أتخيل، نما شيءٌ متهاوٍ، لم يكن الأمل وحده هو ما سرى داخـلي. كـم هـو مجهـولٌ ذلـك القادم!

على أي حال، هناك شيءٌ على وشك الحدوث. التقلبات السياسية في الولايـات المتحدة وأوروبا، وتـدويل يوتوبيـا خلافـة إرهابيـة، وتآكـل الأشـكال السياسـية، وكذلك أيضًا تلك الظاهرة المتمثلة في أن الشباب النشطاء في جميع أنحاء العـالم يتناقشون عبر تشابكهم عـلى المسـتوى الـدولي في تجمعـاتهم التـي تـدوم أيامًـا وليالي حول ماهية شـكل مـا هـو قـادم. كـل شيء يـدفع إلى التفكـير في الفقـرة

الشهيرة بكتاب "هيجل" "فينومينولوجيا الروح" Phänomenologie des Geistes، حيث كتب يقول: "إن عصرنا هذا لعصر الميلاد والانتقال إلى حقبة جديدة". كما يرسِّخ "هيجل" فكرة "التفتت التدريجي" لعالمه، قطعةً صغيرة وراء الأخرى: "ما هي سوى أعراض فرادى تلك التي تلمح إلى ترنحه، تتمثل في الطيش والملل اللذين يمزقان ما هو قائم، ذلك الشعور غير المحدد بشيء غير معروف ما هو إلا إرهاصات تنذر بأن هناك شيئًا آخر يقترب"[1].

بالنسبة للفيلسوف الألماني، كانت الأمور تمضي قدمًا في التاريخ دائمًا على ما يبدو، كما أن التاريخ بالنسبة له لا بد وأن يمر عبر مراحل الفوضى والوبال. وشأنه شأن كل الألمان لم يكن يرى أن حرب الثلاثين عامًا ـ آنذاك ـ بمنأى عن الزمن النابوليوني في الوقت الحالي. ألا يصف "هيجل" بهذه العبارات حالةً مزاجيةً تحل أثناء قراءة أخبار اليوم؟ وسوف أعود إلى هذا الموضوع قرب نهاية الكتاب..

1- Georg Wilhelm Friedrich Hegel, Phänomenologie des Geistes; Ullstein, Berlin 1970, S. 18.

لذا جاء هذا الكتاب

هناك اثنان من التسجيلات الصوتية عالقان بأذني. أولهما يرجع إلى ليلة عيد الفصح للعام 1968 في مدينة "هامبورج"، حيث يطاردنا مئاتٌ من أفراد الشرطة مع كلابهم التي تطلق نباحها. أما الثاني فهو من تونس، عبارة عن غناء المؤذنين مساءً تتخلله أصوات إطلاق النار.

يعاود هذا الكتاب ذكر الثورة التونسية مرارًا وتكرارًا. فقد عايشتها بنفسي، كما زرت هذا البلد مراتٍ لا تحصى بتكليفٍ من جريدة "دي تسايت" وأنا ممتنٌ لها بذلك. وبخلاف ذلك، يتحرك هذا الكتاب في شمالي وجنوبي القارة الأمريكية، وفي غرب أوروبا وشرقها وكذلك في آسيا، أي أنه يتجول عبر تاريخ الثورات والاحتجاجات، بدءًا من انتفاضة "سبارتاكوس" وصولًا إلى ميدان الاستقلال في كييف. إلا أنه ليس مرتبًا زمنيًا ولا يصنف موضوعاته حسب البلاد، بل حسب الجوانب والموتيفات والأفكار. الأمر الذي يبدو ثقةً بالنفس أو ربما يصل إلى الجرأة من حيث ذوق البعض لأنه يتجاوز الزمان والمكان. وسوف يرد ذكر بعض الثورات أكثر من مرَّةٍ إما لأن الأمر يتعلق بأحداث متعددة الأوجه ,إمَّا لأن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخٍ يرتب الأحداث في شريطٍ زمني بالتتابع.

سوف نُعرِّف ببعض الممارسين والمُنظرين للثورة دون مطالبةٍ بالكمال. سيلفت نظر القراء أن الأدب الفرنسي هو أكثر ما تم تناوله على وجه الخصوص، ويرجع ذلك لكونه الأكثر ثراءً لأن فرنسا عايشت تاريخ الثورة

الأكثر زخمًا وثراءً، ولأن ثورتها التي اندلعت عام 1789 تُعد "الثورة النموذجية للعصر الحديث"، على حد الوصف الصائب للمؤرخ والمتخصص في اللغويات الرومانية "رولف إ. رايشاردت"Rolf E. Reichardt[1].

ولا يزال الجدل دائرًا في المراجع الفرنسية تحديدًا بشأن تقييم هذه الثورة حتى اليوم. وأذكر هنا إلى جانب الكثير من الأعمال الأخرى كتابات "ألبرت سوبول" Albert Soboul و"فرانسوا فيوريه"François Furet. إلا أن جميع الثورات الأخرى تقدم مادةً لجدل المؤرخين. ولا تزال معارك الماضي موضع بحثٍ حتى الآن.

أنا لم أفرغ بعدُ من تناول الثورة حتى الآن. هذا هو باعث هذا الكتاب. لطالما غيرني الانشغال بالثورات مرارًا وتكرارًا، تارةً هكذا وتارةً أخرى بشكلٍ مغاير. هناك نوعٌ من الاحترام هو الذي ظل باقيًا. الثورات أمرٌ عظيم، ومروِّع، وهي حدثٌ جلل في خيره وشره.

هناك أمرٌ واحدٌ ينطبق على الثورات كافة؛ أنها تفرز شيئًا لا رجوع فيه، حتى وإن انتصرت الثورة المضادة؛ لأن الذكرى تبقى، وليس ذكرى أفكار الثورة وحدها أو عوالم الفضيلة والآمال الكبرى، بل ذكرى الصراعات والكفاح وكذلك انخراط الحشود التي تحركها تلك الآمال في السياسة.

1- Rolf E. Reichardt, Das Blut der Freiheit. Französische Revolution und demokratische Kultur; Fischer Taschenbuch, Frankfurt/M 1998, S. 112.

تُبقي الثورات الذاكرةَ حيةً وهـي عالقـةٌ بشيء عـامٍ وشـامل، عالقـةٌ برسـالة تتجـاوز التاريخ. تلك التي عبَّر عنها "برتولد بريخت" في "أغنية وحدة جبهة العمال" كالتالي:

وبما أن الإنسان

إنسان، فهو لا يحب

وجود الحذاء في وجهه.

وهو لا يريد رؤية عبيد

تحته كما لا يرغب في

سيد فوقه.

2

مقاربة مصطلح

إن الحوار المتبادل بين "لويس الرابع عشر" والدوق "دي لاروش فوكو ليانكورت" de La Roche foucauld Liancourt أسطوري حتى وإن لم يكن موثقًا، ذلك الحوار الذي دار بينهما عشية يوم الرابع عشر من يوليو عام 1789، أي يوم اقتحام سجن "الباستيل" في باريس. إذ يُروى أن الملك قال في ذهول: "ولكن هذا تمرد!" فأجابه رجل البلاط قائلًا: "لا بل هي ثورة".

ولكن ما تعريف الثورة؟ فلنحاول بدايةً أن نرسم تصورًا مبدئيًا، لكنه سيبقى رسمًا غير دقيق. ربما تصبح خطوط التحديد أكثر وضوحًا في نهاية الكتاب، ولكن هناك أمرٌ ثابت: الثورة هي أحد تلك المصطلحات غير محددة الأطر، بل هي مصطلحٌ غائم الأطر. وهو ما يشبه مصطلح الإنسان. فأنا إنسان، بينما الحجر ليس كذلك، إلا أنه هناك حالاتٌ تمثل إشكاليات (الإنسان البدائي أو النياندرتال، الجنين في طور الخلايا الأربعة، الجثامين).

تعني الثورات انقلاب الأمور رأسًا على عقب. وسوف نستبعد من البداية بعض الأحداث بغرض تحديد المصطلح، مثل ثورات الصناعة والتكنولوجيا

وثورات عالم الأزياء والجنس وخلافه على الرغم من أن مثل هذه التقلبات يمكن أن يكون لها علاقةٌ بالثورات حسب مفهومنا؛ فقد أظهرت الثورة الصناعية طبقة العمال، كما ساهمت الثورات التقنية من خلال الصحافة المطبوعة أو الإنترنت في نشر الحركات الثورية.

وكذلك تغيرت طريقة ارتداء الملابس مع الثورات، إذا فكرنا في "قبعة فريجية" التي انتشرت مع الثورة الفرنسية، أو لحية الحقوقي "ليوش كوشوت"، ذلك المجري صاحب الفكر الثوري في القرن التاسع عشر، أو مظهر "ماو تسي تونج" في السبعينيات، أو القمصان التي تحمل صور "جيفارا"؛ بل حتى "الثورة الجنسية" امتزجت بأكثر من طريقةٍ بالطموح الثوري السائد عام 1968.

كما اعتبرت الحركة النسوية نفسها بمثابة الثورة كذلك. فهي تزعزع النظام الأبوي وتغير علاقات القوى لا سيما من خلال مشاركة الحشود. وتتشابك النسوية بشكلٍ وثيقٍ مع بعض الثورات الكلاسيكية القديمة. فعلى الرغم من أن الثورة الفرنسية ظلت طوال سنواتٍ توصف من قِبل الرجال بأنها كانت فعلًا رجاليًا خالصًا، فإنه في الحقيقة هناك بعض النساء قد لعبن دورًا حاسمًا في حلقاتٍ متعددة من حلقات الثورة. وقد كانت هناك آنذاك أيضًا نساءٌ يقمن بالدعاية وضعن الخاتمة المنطقية بالمقولة التالية: "**إن حقوق الإنسان للجميع تعني نهاية أسبقية حقوق الرجل**". ولكن قبل نهاية الثورة، اختنق هذا الصوت. ولم يعد من المسموح في المرحلة المتأخرة من حكم

اليعقوبيين أن ترتدي النساء أيًّا من رموز الثورة، أو يجتمعن في أحد النوادي. بل إن المدافِعة عن حقوق المرأة، "أوليمب دي جوج" Olympe de Gouges، انتهى بها المطاف نهاية عام 1793 تحت نصل المقصلة.

لطالما كان الكفاح من أجل حقوق المرأة أحد عناصر الثورة الروسية وبالتأكيد أيضًا الثورة التونسية. وفي الوقت نفسه، لا تندرج النسوية ضمن الثورات التي أقصدها من خلال هذا الكتاب. ولا يتناول هذا الكتاب كذلك أيضًا أنشطة شركات التقنية العالية بكاليفورنيا الأمريكية التي كانت تريد أن تقلب المجتمعات رأسًا على عقب بمساعدة التكنولوجيا شديدة الحداثة. فعلى الرغم من أن كليهما توجهٌ سياسي للغاية ويهدف إلى تقسيم السلطة، فإن هذا الكتاب يتناول تحركًا مغايرًا تمامًا، لا سيما تغييرات سلطة الدولة التي تحدث بطريقةٍ أو بأخرى من خلال انفجاراتٍ وتداعياتٍ مرتبطة ببعضها بعضًا ولم تكن لتظهر دون تحركات حشودٍ هائلة، كما أنها تُسفر عن طبيعة مجتمعية متغيرة. الأمر الذي يُعد بمثابة مقاربةٍ مؤقتة للغاية لمصطلح الثورة، أيْ بنيةٍ مساعدة إذا أردنا ذلك، يمكن أن نغفلها ثانية لاحقًا بعد أن نكون قد ألقينا الضوء على موضوعنا بتفصيل أكثر.

يحدث في التاريخ من حينٍ لآخر أن تقوم ثورات الحكام ولكن هذه ثوراتٌ بالمعنى المجازي فقط، أيْ تغييراتٌ جذرية يقوم بها أصحاب السلطة الأقوياء الذين يجرون تحديثًا للبلاد. وقد عبر "بسمارك" عن ذلك قائلًا: "إذا استلزم الأمر القيام بثورة، فلنقم بها نحن بدلًا من أن نعاني منها"، كان يعني بهذا

الحرب ضد النمسا في عام 1866، التي كانت نتيجتها قيام دولةٍ ألمانيةٍ بقيادة بروسيا. في ذلك الوقت، تم تداول مفهوم **"الثورة من أعلى"**[1]. وفي وقت لاحق، تبنى "فريدريش إنجلز" Friedrich Engels، الذي كان مهووسًا بالنظرية الثورية، ذلك التعبير ليشير إلى أحداث عام 1866. أما مؤرخ الثورات الأمريكي "كرين برينتون" Crane Brinton فقد ذكر أمثلةً أخرى على الثورات من أعلى منها إصلاحات "كمال أتاتورك" في تركيا، وتجديدات الإمبراطور "ميجي" في اليابان، أو الإصلاحات التي أجراها الجنرال الأمريكي "دوجلاس ماكارثر" في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية. كان التأثير الاجتماعي لكل هذه الاضطرابات، كما يقول "كرين برينتون"، أبعد من تأثيرات الثورات الكبرى من أسفل، والتي درسها بدوره[2].

وتعد كذلك إصلاحات "بطرس الأكبر" في بدايات القرن الثامن عشر مثالًا على الثورة من أعلى كما يندرج تحتها بالتأكيد برنامج التحديث القاسي وبرنامج الجماعية، الذي طبّقه الاشتراكيون السوفيت أواخر العشرينيات من القرن الماضي. إذ كان من المفترض أن تضمن السلطة المكتسبة بعد صراعٍ ثوري في أكتوبر من عام 1917 المستقبل للجميع؛ ولكن لا ينبغي أن ننسى أنه بالنسبة للبلاشفة الواعين للغاية بالتاريخ كانت الثورة الفرنسية التي يشير

1- Heinrich August Winkler, Der lange Weg nach Westen.. Deutsche Geschichte vom Ende des Alten Reiches bis zum Untergang der Weimarer Republik, C. H. Beck Verlag, München 2000, S. 200.

2- Crane Brinton, The Anatomy of Revolution, revised and expanded edition; Vintage, New York 1965, S. 246.

إليها "لينين" دائمًا في صيغة التبرير ويقارن هذه الإشارة بهزيمة اليعاقبة من فترة ليست بالبعيدة تشبه ثورة نوفمبر 1919 الألمانية[1]. لطالما طرح البلاشفة على أنفسهم السؤال عن كيفية تأكيد السلطة لنفسها. من هذا المنطلق، تتجلى علاقة موضوع هذا الكتاب بالثورة الستالينية من أعلى، لا سيما بوصفها نتيجةً لثورةٍ من الأسفل.

ولكن في الفصول التالية من المفترض أن يتم بشكلٍ حصري تناول اللحظات التي ينتفض فيها الشعب ليصنع التاريخ.

نقيض الملل

ما الشيء الملفت للنظر؟ بدايةً، كلمة ثورة تتناسب تمامًا مع وضع علامة تعجبٍ بعدها: ثورة!

إنها مثيرةٌ دائمًا. إنها بمثابة حدث مكثَّف على الشريط الزمني. إنها نقيض الملل.

في 15 مارس 1968، نُشر مقالٌ في صحيفة "لوموند" الفرنسية بعنوان " عندما يصيب فرنسا الملل". اشتكى فيه المؤلف من سكون الرياح السياسية في مواجهة الظروف القاسية في العالم وفي البلد نفسه. وبعد ذلك بفترةٍ وجيزة،

1- Crane Brinton, The Anatomy of Revolution, revised and expanded edition; Vintage, New York 1965, S. 246.

ثار التلاميذ والطلاب ومن بعدهم العمال حتى أُصيبت سلطة الدولة بالشلل التام في لحظةٍ تاريخية، إذ يمكن أن تسير الأمور بهذه السرعة أحيانًا.

ولكن هل كان "مايو باريس" عام 1968 بمظاهراته الحاشدة والإضراب العام طوال أسابيع انتفاضةً أم ثورة؟ على الرغم من أن أحداث مايو تسببت في هز السلطة بشدَّة، فإنها لم تتمكن من إسقاطها. لم يطرح الطلاب والعمال المتمردون مسألة السلطة. لم يطرحها الطلاب لأنهم لم يتمكنوا من ذلك، بينما لم يرغب العمال في ذلك.

إلا أن الكثير من نشطاء "مايو باريس" كانوا ثوريين لأنهم آمنوا حقًّا بالانقلاب الوشيك والتحول الجذري الكائن على الأعتاب للظروف. كما آمنوا بالاقتراب الملموس لعالمٍ جديدٍ دون استغلالٍ أو إكراه على العمل ودون حياةٍ يومية قمعية، وآمنوا بانتصار متعة الحياة والفن وحرية الجنس. لا عجب إذًا أن يكون لمثل هذه النُّذُر المبشرة تأثيرٌ قويٌّ عليَّ وأنا في الخامسة عشرة آنذاك وعلى كثير من أصدقائي ورفاقي. فقد اعتبرنا الثورة وقتها شيئًا آنيًا.

"آنية الثورة: هذه هي فكرة "لينين" الأساسية"[1]. هذا ما كتبه الماركسي المجري "چورچ لوكاش" Georg Lukács عام 1924، أي في بداية فترةٍ كان من المفترض أن يطلق عليها المؤرخون لاحقًا "مرحلة إرساء الاستقرار" التي أصبحت فيها الثورة غير آنية بشكلٍ يدعو إلى السخرية.

1- Georg Lukács, Lenin. Studie über den Zusammenhang seiner Gedanken; Luchterhand Verlag, Neuwied und Berlin 1967, S. 9.

ربما يمكننا أن نتصور الأمر كما يلي؛ الثورات ليست مجرد نتاجٍ لمرحلة تطور دامت طويلًا بمحاذاة محور الزمن، بل هي كامنةٌ دائمًا في الفضاء الافتراضي للتاريخ، ما دام هناك سببٌ للسخط. وعندما يكتمل نضج ظروفٍ معينة، تخترق الثورات الأنفاق عبر الحواجز الكائنة بين الواقع واللاواقع وتدخل العالم بوصفها أحداثًا آنية.

هذا بالطبع وصفٌ مجازي فقط. فالثورات إذًا حدث في الحياة الدنيا وليس تحويلَ أيٍّ من التصنيفات المحلقة في مكانٍ ما في الحياة الآخرة إلى حالةٍ مادية. يهدف هذا الوصف فقط إلى الإشارة إلى حالة كمون الثورة. تلك الحالة التي يكون فيها دائمًا أشخاصٌ لديهم شيءٌ آخر مغايرٌ تمامًا في عقولهم. وهم على استعدادٍ أن يتصرفوا وفقًا لهذه الفكرة عندما يعتقدون أن الأوان قد آن.

ونحن نرى أن تصور الثورة أمرٌ سهلٌ أشبه بالتقاط قطعةٍ من الصابون في حوض الاستحمام. بشكلٍ عام، الثورة محترفة الخداع والمفاجأة حيثما توجد. أو يبدو أنها حاضرة ولكنها غائبة في الواقع، لا سيما في المواقف بعد الثورية التي تصطف فيها الكواليس الملونة بما تتضمنه من محاربين مرسومين والعكس صحيح. هناك فترات هدوءٍ في التاريخ تحتشد فيها القوى الثورية في الحقيقة.

تتحضر الثورات بعيدًا عن الصغائر الآنية، في الخفاء. ثم تندلع في وقت ما في الواقع بشكلٍ مفاجئ وصادم، لتنتشر بعدها وتجرف كل شيء معها مثل

قوى الطبيعة. في يوم 24 أكتوبر من عام 1793، كتب الثائر الألماني "چورچ فورستر" Georg Forster إلى زوجته من باريس يقول: **"تتدفق حمم الثورة البركانية بشكلٍ مهيبٍ ولا تُبقي على شيء. مَن ذا الذي يستطيع أن يسد فوهتها؟"**[1]. كان هذا هو تعليقه على إبادة سكان الريف الغربيين في غرب فرنسا من قبل ثوار باريس. تستفيد أوصاف الثورات من مثل هذه الصور الجمالية الطبيعية مرارًا وتكرارًا، فهناك حديثٌ عن الزلازل أو موجات المد والجزر، إذ تأتي الثورات مثلها تمامًا من العدم كما أنها أقوى من الفرد. "إنها تنتشر في مسارها مثل الأنهار"[2]، على حد قول "شاتوبريان"، شاهد العيان والمعارض الميلانخولي للثورة الفرنسية. نعود مرةً أخرى إلى "فورستر" الذي قال: **"الثورة إعصار، مَن الذي يستطيع أن يعرقلها؟ فالإنسان الذي ينشط من خلالها بإمكانه أن يفعل أشياءَ لا ندركها في الجيل التالي من فرط قسوتها"**[3]. توفي "فورستر" في منفاه بباريس متأثرًا بالتهابٍ رئوي بعد أن صاغ هذا الكلام بأسبوعين "مُهمَلاً ومعُدمًا"، كما كتب عنه "جوستاف لانداور" Gustav Landauer، ناشر خطاباته. وكان "لانداور" نفسه ثائرًا

1- In: Gustav Landauer, Briefe aus der Französischen Revolution; Kadmos, Berlin 1999 (nach der Originalausgabe von 1919); S. 540.

2- Chateaubriand, Mémoires d'outretombe, Livre IX, Chapitre I; Garnier, Paris 1989, Bd.1, S. 544.

3- In: Landauer, a. a. O., S. 544

تعرض للضرب المُبرِّح عام 1919 في سجن "شتادلهايم" بمدينة "ميونيخ" كاد أن يودي بحياته ثم قُتل رميًا بالرصاص. هكذا يرحل البشر ويزولون.

هي شُهب. الثورات هي المذنبات التي تدلف إلى دَهليز التاريخ الهادئ. إنها تغير مساره وتدمر وتخلق.

تجلب في الغالب دستورًا جديدًا للدولة. حين أصبح مطلب تشكيل مجلسٍ تأسيسي لوضع الدستور أمرًا شائعًا ومحببًا عقب الإطاحة بالديكتاتور التونسي "بن علي"، أيقن الجميع أن الأمر يتعلق بثورةٍ وليس مجرد تغييرٍ في شخص رأس الدولة.

تقفز السياسة إلى قضبان أو بالأحرى إلى مسار آخر عند حدوث ثورة. إلا أنها لا تتوقف عما هو سياسي أبدًا لأنها الوسيلة لتحقيق الهدف. ولكن أيُّ هدف؟ هناك الكثير من الأهداف مثلما نجد الكثير من الطبقات والفئات والمجموعات والثقافات في بلدٍ واحد. يحتاج كل مجتمعٍ إلى صيغة معادلةٍ سياسية من شأنها تحقيق التوازن بين الأهداف المتضادة والمتقاطعة وإلا ستسود حربٌ أهلية دائمة. بينما تلغي الثورات الآن الصيغة القائمة لتنتج واحدةً جديدة. كما أنها تؤثر في الظروف المجتمعية من خلال تغيير الأمور السياسية.

تحدث هذه الحالة على وجه الخصوص عندما تتبدل علاقات الملكية كليًا أو حتى جزئيًا. الملكية ليست فقط علاقة شخصٍ بغرض، بل هي علاقةٌ حددتها الدولة بين الناس وبعضها. إذ تُعد الملكية بمثابة لقب سلطةٍ مُعار. وتحددها الفقرة 903 من القانون المدني كالتالي: "يستطيع مالك شيء ما، ما دام ذلك لا يتعارض مع القانون أو حقوق طرفٍ ثالث، الاستئثار بالشيء حسب رغبته ويستبعد تأثير آخرين عليه". أي أن الملكية محددةٌ اجتماعيًا وتكاد تكون محددةً سياسيًا دائمًا، لا سيما من قِبل الدولة. تهز الثورات هذا التحديد من خلال وضع يد طبقةٍ حاكمة على المحاصيل، أو على موارد الدولة.

نادرًا ما يحدث هذا التغيير مرةً واحدة حتى لو كان الهجوم على معاقل الممتلكات القديمة (الكنيسة، مُلاك الأراضي، الرأسماليين، القِلّة الحزبية، الكليبتوقراطيين) يمكن أن يحدث فجأة. ولكن إذا أرادت ثورةٌ بناء تنظيمٍ اجتماعي جديد عقب الإطاحة الأولى بالظروف والعلاقات، فستكون عمليةً طويلة الأمد.

في عام 1820، حوالي ثلاثة عقود بعد الثورة الفرنسية، كتب شاهد عيان على هذه الثورة "هنري دي سان سيمون" Henri de Saint-Simon يقول: "إن الأزمة التي يعاني منها الجسد السياسي منذ ثلاثين عامًا يكمن سببها الرئيسي في التغيير الاجتماعي التام الذي يحدث حاليًا في الأمم المتحضرة (...) وبشكل أكثر تحديدًا تتمثل هذه الأزمة في الانتقال من النظام الإقطاعي واللاهوتي إلى النظام الصناعي والعلمي. وسوف تدوم حتى يكتمل تشكيل

هذا النظام الجديد دون إمكانية تفادي ذلك"[1]. يقول "سان سيمون" بهذه الكلمات إن ثورة 1789 أطلقت مرحلة تقدمية تغيِّر المجتمع من خلالها. كما يقول شيئًا آخر؛ إن صُلب التجديد الثوري لا ينحصر في طريقة الإنتاج والتوزيع، بل في تبرير هذه الطريقة بالحجج، أيْ الخطاب، وهذا هو ما يعنيه بالانتقال من النظام اللاهوتي إلى العلمي. الثورات سياسيةٌ واجتماعيةٌ وثقافية. وهي دائمًا ثورات ثقافة، أيْ أكثر من مجرد تغييرٍ في السلطة، وأكثر من مجرد إعادة توزيع المميزات.

هل كانت الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر ثورةً على الإطلاق؟

بالتأكيد نعم، حتى وإن لم تؤدِ على الفور إلى نظامٍ مجتمعي جديد. ظهرت الثورة الإنجليزية في البداية على أنها إعادة إرساء حقوق نبلاء الدولة وجزءٍ من الطبقة البرجوازية، إعادة ترتيب المؤسسات القديمة التي نحَّاها الملك جانبًا. ولكن الثورات أثناء مجراها جعلت السياسة شأنًا عامًا وأرست أساس دولة الدستور الإنجليزية. ذلك الأساس الذي تمكن مجتمعٌ برجوازي جديد أن ينمو عليه تدريجيًا وعلى مدار القرون.

وماذا عن الثورة الأمريكية؟

في أمريكا، تألفت الثورة من انفصال مجتمعٍ برجوازي مؤسسٍ حديثًا عن الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية التي لم يتعين عليها إبطال بنيتها السياسية والاجتماعية، ولكنها تعاملت بدفعة المؤسسين الأنيقة (إذ اقتلعت في المقابل مجتمع الهنود أو السكان الأصليين). أعاد المستعمرون تصميم اتحاد

1- Henri Saint-Simon, Du système industriel; in: Henri Saint-Simon, Œuvres complètes, Vol. 3, Presses Universitaires de France, Paris 2012, S.2342.

مجتمعهم على أساس ما جلبوه معهم من تصوراتٍ دينية وأفكار تنوير وخبراتٍ سياسية. كما أسسوا نمط دولةٍ حديثًا أثَّر وجوده المحض بشكل ثوري على أوروبا. كان هذا بدوره يُعد ثورةً حتى وإن سارت بشكل غير نمطي. تكمن حقيقتها في المقولة الشهيرة من إعلان الاستقلال عام 1776: **"خُلق جميع البشر سواسية"**، بينما خصَّ الكذب الهنود والزنوج.

أو عن الثورة الجزائرية؟

في الجزائر، تُعتبر حرب التحرير المناهضة للاستعمار التي دامت في الفترة بين 1954 – 1962 بمثابة الثورة. ما السبب وراء ذلك؟ هل هو مجرد تبريرٍ لوجود "جبهة التحرير الوطنية" FLN، ذلك الحزب المنبثق عن التنظيم الرائد للكفاح ضد الاستعمار الذي يُعد أشبه بالغلاف السياسي للعشيرة التي تحكم الجزائر اليوم؟ هل ينبغي أن يضفي مصطلح "ثورة" الشرعية على أصحاب السلطة؟ هذه وجهة نظر الشباب الذين التقيتهم في الجزائر والمقتنعين بأن البلاد لم تشهد ثورتها الحقيقية بعد.

إلا أن الانتصار على الفرنسيين كان ثورةً كذلك. كتب "فرانتس فانون" Frantz Fanon، الطبيب والكاتب الذي يرجع أصله إلى مارتيني عام 1961 في كتابة الأسطوري "معذبو الأرض": "أيًا كان المستوى الذي نراقب الأمر منه، فإن اللقاءات بين البشر، وتغيير مسمَّيات النوادي الرياضية وتركيبة حفلات الكوكتيل أو الشرطة واللجان الرقابية ببنوك الدولة أو البنوك الخاصة، والتخلص من الاستعمار هو بكل بساطة إحلال (نوع) من البشر محل (نوع)

آخر"[1]. ويقول "فانون" إننا إذا كنا نرغب في وصفٍ أكثر دقةً لمفهوم إنهاء الاستعمار فيكفي حينئذ الجملة المعروفة **"سيصبح الآخرون هم الأوائل"**.

كان الجزائريون في ظل نظام الاستعمار هم الآخرون، إلا أنهم لم يعودوا كذلك منذ الثورة.

إن الجملة التي استشهد بها "فرانتس فانون" مأخوذةٌ عن العهد الجديد. لا ينبغي أن نكون متدينين كي نشعر بسحر هذا الوعد الذي يستند إليه تأثير سطور "بوب ديلان" Bob Dylan الشهيرة:

"الخط الذي رُسم، واللعنة التي أُلقيت،

البطيء الآن سيصبح سريعًا في وقت لاحق،

وما هو حاضرٌ سيصبح في وقت لاحقٍ ماضيًا

والنظام سرعان ما سيتلاشى

والشخص الأول الآن سوف يكون الأخير في وقتٍ لاحق

فَهُم متغيرات بالنسبة للزمن"

تجسد هذه الفكرة يوم القيامة في الإنجيل. وإذا تم تصعيد مثل هذه الأفكار إلى الحد الأقصى، يمكن أن يكون لها تأثيرٌ قاتل. تحول المتطرفون من كل جماعةٍ سياسية أو دينية إلى متعصبين بالفعل لأنهم آمنوا بالمعركة

1- Frantz Fanon, Les damnés de laterre; Éditions La Découverte, Paris 2002, S.3.

النهائية، وبأن فكرة كل شيء أو لا شيء التي باتت قريبةً للغاية تستبعد كلَّ حلٍ وسط. وسوف نصف هذه الظاهرة في هذا الكتاب مرات عدَّة.

أصبح الآخرون هم الأوائل حتى في جنوب أفريقيا. ونحن نصيغ الأمر في كوبا هكذا؛ حتى اندلاع ثورة "فيدل كاسترو" كان أهل كوبا إمَّا الدنس الحقير أو أنهم كانوا القرود المُهندمة للولايات المتحدة الأمريكية. ومنذ ذلك الحين يحكم الكوبيون الكوبيين في الجزيرة، حتى وإن ظل الآخرون آنذاك - وهم الكوبيون الأفارقة - كما كانوا (وهو ما اعترف به نظام كاسترو بالمناسبة في نقدٍ ذاتي) إلا أن حكم الكوبيين دون غيرهم لكوبا أمرٌ لا رجعة فيه. وسيبقى هكذا إذا جاء مَن يضع الحواجز بين كوبا والولايات المتحدة الأمريكية. ومن الممكن أن يتولى أبناء كوبا الأثرياء في المنفى السلطة ذات يوم، ومن بينهم أشخاصٌ لا يعوِّلون كثيرًا على اليمينيين الاشتراكيين أو يرغبون في الانتقام. "ولكنهم على الأقل كوبيون وليسوا من الجرينجو"، هذا هو ما سمعته كثيرًا في كوبا.

ليست الثورات بالحلقات المسلسلة التي يتتابع بعدها كل شيء كما كان. نعم، حتى وإن أخفقت، حتى وإن فرضت الثورة المضادة نفسها فهي لا يمكن الرجوع فيها وإبطال مفعولها. بل وحتى إن انتصرت ثورة ما فإن النهاية لا تتطابق مع الهدف الأول، فلم ينتهِ الأمر هكذا أبدًا. إذ تنتهي الثورات دائمًا بخيبة أملٍ بانتصار الواقع على الحلم ومن ثم بـ"ميلانخوليا"، أي سوداوية. وتنتهي كذلك بحنينٍ باقٍ. لأن الحلم لا يختفي.

يمر الثوار بتجربةٍ مريرة تتمثل في أن جهودهم المليئة بالتضحيات استبدلت أصحاب الامتيازات القدامى بأصحاب امتيازاتٍ جُدد. وهـم في الجزائـر بعـض قـادة الثـورة منـذ القِدم. حيـث تعـيش عشـائرهم الآن ببـذخ عـلى عائـدات الـنفط في الـبلاد، بيـنما ظـلّ الشعب فقيراً.

عندما أزور الجزائر، أُفضِّل التوجه إلى حي "باب الواد"، حيث ألتقي بالشعب. وهـذا الشعب يتفاعـل بالسـخرية فقـط مـع كلـماتٍ مثـل "المحـاربون مـن أجـل الحريـة" أو "الثورة".

"باب الواد" هو حيٌّ له تاريخ، إذ كان سكانه إبان فترة الاستعمار الفرنسي أوروبيـين. حيث تحصن فرنسيون مسلحون حول مركز ميدان "الساعات الثلاث" الشـهير في مـارس 1962، وهم مَن كانوا يعارضون قرار "شارل ديجول" بإنهاء احتلال الجزائر. وقد شـكلت نواة هذه المجموعة منظمة الجيش السري الفرنسية الإرهابية OAS. تلك المنظمة التي ارتكبت جرائم اغتيالات في باريس أيضًا. ظل الصراع مستمرًا مـع الجـيش الفـرنسي مـن بيت لبيت في "باب الواد".

اختفى الأوروبيون في السنوات اللاحقة وانتقـل الجزائريـون إلى منـازلهم. وقد كتـب "فـرانتس فـانون" في هـذا الصـدد يقـول: "إن هنـاك حيـثما كـان

البعض يسكن الآن الآخرون، كان الفقر يرافقهم. وسرعان ما حلت خيبة الأمل بشأن نهاية الثورة".

بعد الانتصار على فرنسا، انقلب الجيش على السلطة التي كانت قد عادت من الخارج إلى الجزائر. وتحولت جبهة التحرير إلى حزب الوحدة الذي كان بمثابة القاعدة السياسية للسلطة التي مارسها في المقام الأول جنرالات، تحديدًا هؤلاء الذين كانوا يتولون قيادة جهاز المخابرات. وحتى اليوم، ما زالت هناك هيئةٌ غير رسمية من ضباط سابقين وحاليين يشكلون مركز هذه السلطة. يحيط بهم ديكور جمهوري، على سبيل المثال برلمانٌ مشكوكٌ في شرعيته من جراء شراء الأصوات وتزوير الانتخابات والتلاعب بنتائجها.

مَن يرغب في أن يصبح ذا شأنٍ في الجزائر لا يسعى في المقام الأول لضمان التعليم، بل العلاقات. إذ يندرج بين الحالات الاجتماعية الرسمية في الجزائر مسمى ابن محارب من أجل الحرية، مجاهدٌ أو أرملته. نظرًا لوجود مجموعةٍ حقيقية من نبلاء الحرب بما تتضمنه من اتحادات وجهات مناظرة في الدولة؛ يتمتع مَن ينتمي إلى هؤلاء النبلاء، حتى وإن كان عن بعد، بميزة تخفيض الضرائب أو الإيجارات المستحقة، كما يحصل على الوظائف الجيدة. حتى أن الموقع الإلكتروني الجزائري الساخر "المنشار" سخر ذات مرَّةٍ من أن وزارة المجاهدين - هناك بالفعل وزارة بهذا الاسم - أسست "رابطةً للأصدقاء الشباب من بنات وأبناء أخوة المجاهدين وجيرانهم".

أطلق الجيش الجزائري النار على الحشود التي خرجت للتظاهر عند "باب الواد" عام 1988. وبعد الانقلاب العسكري عام 1992، الذي جاء ردًا على نجاح الإسلاميين في الانتخابات، تحوَّل هذا الحي إلى مركزٍ للجهادية وواحدٍ من مسارح الأحداث المريعة للحرب الأهلية التي دامت عشر سنوات. وفي عام 2011، أيْ عام الربيع العربي، هاجم سكان "باب الواد" الشرطة بالحجارة وزجاجات المولوتوف.

التقيت حينها "علي هارون"، ذلك الرجل المولود عام 1927 والذي يعد أحد قدامى المحاربين في الثورة ممن انضموا إلى جبهة التحرير وهو في سن سبعة وعشرين عامًا. كان يحارب متخفيًا وقد أرسلوه إلى أوروبا لفترةٍ من الزمن كي يجمع المال اللازم للثورة، وقد توجه بالمناسبة إلى ألمانيا أيضًا، بشكل غير شرعي وبمساعدة الحزب الاجتماعي الديمقراطي. وبعد انتصار الثورة، حاول "هارون" مع آخرين كُثر إعاقة نشأة دولة استبدادية ذات حزبٍ وقادةٍ من الأتوقراطيين، ولكن دون جدوى. ثم جاء الربيع العربي عام 2011 ليعيد الأمل إلى المحاربين القدامى. ولكنك عندما تُحدث "علي هارون" صاحب الشعر الأشيب في هذا الشأن اليوم فهو يكتفي بالتلويح وقد أنهكه التعب. إنها "الميلانخوليا" الجزائرية. أسأله كيف يمكن ألا يهتم المحاربون من أجل الحرية في الماضي سوى بنفقات الإعاشة والسلطة بعد الثورة؟ فيضم "هارون" شفتيه. كانت تلك هي إجابته. بم عساه يجيب عن سؤالي الساذج هذا؟

سمعت ذات مرةٍ هذه المزحة في الاتحاد السوفيتي؛ تلقى "ليونيل بريجينيف" اتصالًا تليفونيًا من أمه. سألته ما إذا كان بخير، فأجاب بأنه على ما يرام؛ فهو يمتلك بيتًا جميلًا وكبيرًا، وطباخًا خاصًا وعشر سيارات "رولزرويس". عندئذٍ ردت الأم قائلة: "هذا جميل. ولكن انتبه حين يأتي الاشتراكيون".

أو ربما لنستشهد ببطل الفدائيين والشيوعي اليوغوسلافي "جوزيف بروز يتيو"، قائد القوات التي طردت الفاشيين والذي كان قد وعد في الوقت نفسه بثورةٍ اجتماعية. تسلَّم الرجل في خريف عام 1944 القصور الملكية وأمر بترميمها وتجديدها ثم انتقل شخصيًا ليقطن بها. بل إنه أمر بصنع تمثالٍ لحصانٍ بأحد أفنية القصور، ليذكره بجواده المحارب. وسرعان ما عاش "تيتو" وحاشيته في بذخٍ أكثر من ذلك الذي عرفه البلاط الملكي. وكان يذهب في الصيف إلى فيلات أرخبيل جزر "بريوني" الإسترية، تلك الجزر التي تم استزراعها وتجديد شواطئها، بل وبُنيت بها حديقةٌ للحيوان، وعمل هناك آلاف الأشخاص من أجل ضمان راحة الحاكم الجديد، وحاشيته وضيوفه.

التجارب نفسها دائمًا. بل دائمًا وأبدًا ما وصفه "ماكس شتيرنر" Max Stirner المدافع عن الأناركية الفردية عام 1844 بالكلمات التالية: "يحتل دائمًا سيدٌ جديدٌ موقع السيد القديم، وما الإطاحة بأحدهم سوى إعادة هيكلة"[1].

1- Max Stirner, Der Einzige und sein Eigentum; Verlag Otto Wigand, Leipzig 1845, S.146.

لي أصدقاء شاركوا في ثورة نيكاراجوا. وعندما أسمعهم اليوم يتحدثون عن "دانييل أورتيجا" Daniel Ortega، رئيس نيكاراجوا ورئيس الجبهة الساندينية للتحرير FSLN، يبدو وقع الأمر على مسامعي كما لو أن هناك ضرورةً للقيام بثورةٍ جديدة.

بعد انتصار المجموعات القتالية من المرتزقة المحيطين بـ"فيدل كاسترو"، عايشت حركات ثورة النهضة، ولم ينجح سوى الساندين في اعتلاء السلطة من خلال ثورةٍ مسلحة. وقد أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم تيمنًا ببطل الحرية "سيزار ساندينو" الذي قاد حرب عصابات ضد احتلال البلاد من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من 1925 حتى 1933. إلا أن "ساندينو" راح ضحية عملية اغتيال عام 1934 على يد أحد قادة الحرس الوطني الذي كان يترأسه الجنرال "أناستازيو سوموزا جارسيا" Anastasio Somoza García. وقد أسس الأخير بعد سنتين سلالة من الديكتاتورية الكليبتوقراطية التي انتهت عام 1979 عند الإطاحة بابنه "أنستازيو سوموزا ديباليا".

كان "كارلوس فونسيكا" مؤسس "جبهة التحرير" عام 1961 يتبع في الأصل التعاليم الماركسية اللينينة الغالب عليها طابع موسكو، إلا أنه رفض ما يُدعى بالسياسة الإصلاحية للحزب الشيوعي في نيكاراجوا (الذي كان

يطلق على نفسه اسم الحزب الاجتماعي)، حيث بدا له طريق "فيدل كاسترو" للكفاح المسلح هو الطريق الصحيح بدلًا من ذلك. فقد أنشأ "فونيسكا" شركة من المرتزقة من ذوي الأصول اللاتينية الأمريكية المختلفة، ثم تولت هذه الجماعة عام 1963 القتال ضد ديكتاتورية "سوموزا" أملًا في أن ينضم إليهم الشعب ويتقدمهم الفلاحون.

لكن لم يفكر هؤلاء في ذلك، فأخفقت الشركة. وهو ما حدث لعديدٍ من منظمات وشركات المرتزقة في أمريكا اللاتينية؛ وعلى خلاف ما حدث مع هؤلاء، صحح الساندينيون الإستراتيجية بعد هزيمتهم وبدؤوا العمل السياسي في العاصمة مانجوا، والآن تحديدًا يعملون مع الاشتراكيين. إن الذي يميز هؤلاء عن الآخرين لم يكن في المقام الأول قبول مسيحيين يساريين ضمن الصفوف وقبول أفكارٍ مسيحيةٍ ضمن الأيديولوجية الخاصة. ففي ذلك الوقت، ثبتت جبهة التحرير الساندينية أقدامها وكانت على أتم استعداد لذلك حين اندلعت المظاهرات الحاشدة عام 1977، التي أطاحت أخيراً بالديكتاتورية في يوليو 1979.

كان هذا هو التوقيت الذي سافر فيه بعضٌ من أصدقائي إلى نيكاراجوا لمساعدة الثوار؛ كانوا يعملون بكَدٍّ في المزارع والورش ويبنون البيوت ويصلحون السيارات. كما عمل كاتب الشباب "كلاوس بيتر فولف" Klaus Peter Wolf في مطبعة هناك. وقد نظمت معه في بداية الثمانينيات فعاليةً ضمن حفل لموسيقى "الروك" عن تجاربه ومعايشاته طافت بعد ذلك ولاية

"شمال الراين وستفاليا" في جولة. كنا نجمع المال لأجل الساندينيين بعد كل عرض، كما حاولنا ضم أعضاء إلى الحزب الشيوعي الألماني DKP أي أن الثورة بالنسبة لنا كانت كيانًا دوليًا كُليًا يستطيع كلٌّ على حدة أن يسهم فيه بطريقته. كما يمكننا القول بأننا كنا ننتشي بروح الرفاق من نيكاراجوا وشجاعتهم وشارفنا على الاعتقاد بأننا أبطال. إلا أن هذا لم يكن سوى اشتقاقٍ من ادعاء ثوري.

برهن الشباب الألمان الذين توجهوا آنذاك إلى نيكاراجوا على شجاعةٍ حقيقية، إذ سافروا إلى بلد الحرب الأهلية. وقد اتخذت ثورةٌ مضادةٌ مُسلحة من قِبل واشنطن جانب "المعارضة" بينما تلقت حكومة الثورة من جانبها المساعدة من موسكو. وهكذا تحولت نيكاراجوا إلى مسرح لحربٍ بالوكالة حول مجالات النفوذ والسيطرة، فتدهور الاقتصاد وضرب الجدب البلاد وعمَّ السخط بين الشعب. تناوبت محاولات التحول الديمقراطي وتقليص الحقوق الديمقراطية على نحوٍ خاطئ، وفي النهاية لم تقوَ الحكومة الساندينية على تحمل الضغط الخارجي والداخلي على مدار سنوات فخسرت الانتخابات عام 1990 أمام المعارضة الشعبية التي أطلقت وعودًا بالسلام والرخاء.

أدركت الحكومة الجديدة أنها يتعين عليها ربط الجبهة الساندينية للتحرير FSLN بها من خلال السماح لقادتها بالاحتفاظ بممتلكات الديكتاتور "سوموزا" المخلوع التي خضعت للمصادرة. تغيرت طبيعة الجبهة تدريجيًا وأصبح "أورتيجا" الذي عاد لتولي السلطة مجددًا منذ عام 2006 في نيكاراجوا

بمثابة المفهوم الحقيقي للسياسي الفاسد صاحب السلوك المشين. وقد حاز عام 2009 على "جائزة القذافي الدولية لحقوق الإنسان".

الخلاصة: بدأ الكثير من الساندينيين أيضًا كثوريين ثم انتهى بهم المطاف وهم أصحاب سلطةٍ فاسدون.

لم تجلب أيَّة ثورةٍ حالة دولةٍ بلا حاكم. لا، فالثورات تطيح بالسلطة وتؤسس سلطةً جديدة. يلي العصيان التبعية. فالثورات تزيح أصحاب الامتيازات وتجلب آخرين جُددًا.

ولهذا السبب تحديدًا تتمتع الثورات بطبيعةٍ مزدوجة. فهي من ناحية، كما وصفها الفيلسوف الفرنسي الراديكالي اليساري "ألان بادو"Alain Badiou، حدثٌ كاشفٌ لحقيقةٍ تتجاوز التاريخ: "العبودية ليست بالأمر الطبيعي" وتجسيد هذه الحقيقة يحمل اسم "سبارتاكوس"، "وهو يتنقل من عالمٍ إلى عالم على مدار القرون بوصفه "سبارتكوس" القديم، و"سبارتاكوس" الأسود أو "سبارتاكوس" الأحمر"[1]. إلا أن التعبير عن طبيعة واقع الثورات يُعد تفكيرًا أفلاطونيًا من النوع الجميل. فالثورة تحمل على صعيدٍ آخر طبيعةً منافيةً للحقيقة، تحديدًا لكونها لا تمثل مطلقًا تحقيقًا لا تشوبه شائبةٌ لحلم الحياة الحرَّة الجيدة، بل تجلب دائمًا أشخاصًا إلى السلطة والثروة ممن يستغلون هذا الحلم فقط.

1- Alain Badiou, Logiques des Mondes; Editions du Seuil, Paris 2006, S. 74.

يستهلك تنفيذ كل هذا، أيْ تحطيم الأوعية المجتمعية القديمة وإنشاء أخرى جديدة، طاقةً نفسيةً كبيرة. لهذا السبب فقط أصبحت الثورات أحد صنائع الحماسة - تحديدًا: أحد صنائع الحشود المتحمسة - وإلا فهي لن تقوم (أو ربما لا تكون ثوراتٍ، بل مجرد ثورات قصورٍ في أفضل الأحوال).

عندما تتدخل الحشود بشغفٍ في السياسة، يُعد هذا بالنسبة لكل شخصٍ يعتبر الشعب المتبلد ظاهرةً محزنةً حدثًا باعثًا على الانتفاض. لماذا تلهم الثورة الفنون دون أيِّ حدثٍ اجتماعي آخر، من "بيتهوفن" إلى "هانز فيرنر هينز" Hans Werner Henze، ومن "فريدريش شيلر" إلى "بابلو نيرودا" Pablo Neruda، فالفن الثوري من منظورٍ عام أغنى كثيرًا من ذلك الفن المُعادي للثورة. كما يكمن جمال الثورة في الصحوة السياسية للشعب. وليس كل جمالٍ باعثًا على الغبطة، لذا يجب إضافة هذا الآن.

القادة والمنقادون

ليست حشود الشعب وحدها هي العنصر الفعال للثورة. تظهر معها شخصياتٌ قياديةٌ وجمعياتها، وحيث إن الأمر يتعلق بأحداثٍ عاطفية هدفها الأساسي هو القوة السياسية، فليس من المستبعد أن يتم شَغل جميع أدوار عالم دراما "شكسبير" تقريبًا؛ فهناك أبطالٌ وجبناءٌ ومدافعون عن حقوق الشعب ووعاظٌ ونقادٌ للسلطة وأشخاصٌ يتسمون بالعنف وخونةٌ وأوغاد.

لا يعرف القادة الثوريون في أغلب الأحوال كيف حدث لهم ذلك، إذ يصبح بعضهم مدافعين عن حقوق الشعب دون أن يرغبوا في ذلك، بينما كان آخرون يحلمون دائمًا بانتفاضةٍ شعبية كبرى ووجدوا في اللحظة المناسبة في المكان المناسب. أو وصلوا لاحقًا عندما سمعوا عن فرصتهم، مثل "لينين" الذي كان في المنفى وقت اندلاع الثورة الروسية في فبراير 1917 شأنه شأن بلشفيين كُثر.

وكان "لينين" ورفاقه قد وضعوا في الحسبان أن الإمبراطورية لا بدَّ وأن تنهار تحت وطأة الحرب العالمية الثانية. إلا أن السؤال كان: متى؟ نظم عمال التعدين في مصانع "بوتيلوف" بمدينة "سانت بطرسبرج" إضرابًا في شهر فبراير، سرعان ما تحول إلى إضرابٍ عام صاحبته مظاهرات جياع. اجتاحت الجموع الغاضبة شوارع المدينة. وعندما رفضت قوات القيصر إطلاق النار على الشعب، وانضمت أجزاءٌ كاملة من هذه القوات إلى الشعب، قُضي الأمر بالنسبة للنظام.

تكونت حينئذ حكومةٌ شعبيةٌ مؤقتة. كما شكل المواطنون في الوقت نفسه لجانًا ومجالس تنافس سلطة الدولة، على غرار ما حدث وقت محاولة القيام بثورة عام 1905. وهكذا حلت مرحلةٌ من ازدواج السلطة يمكن أن يُطلق عليها "وضع مفتوح" أو "دولة فاشلة" failing-state. إلى هذا الحد، بات من الواضح أن هذه المرحلة الفوضوية التي ليست لها وجهةٌ محددة لا يمكن أن تستمر.

سمحت الحكومة الثورية المؤقتة لجميع الاشتراكيين وللبلشفيين أيضًا بالعودة إلى روسيا وممارسة عملهم السياسي مجددًا. استغل "لينين" الفرصة على الفور. فتقدم البلاشفة بمطالب شعبية على رأسها الإنهاء الفوري للحرب. أصاب المؤرخ الماركسي "إريك هوبسباوم"Eric Hobsbawm قلب الحقيقة حين كتب: "الشيء الوحيد الذي كان لينين والبلاشفة يملكونه في أيديهم هو القدرة على إدراك ما تريده جموع الشعب". أصبح البلاشفة حزبًا شعبيًا يضم ربع مليون عضوٍ في صيف عام 1917 بعد أن كانوا حزبًا صغيرًا مُسجلٌ به بضع آلاف في مارس من العام نفسه[1]. خاضت الثورة المضادة كذلك بعض المحاولات. تم إجهاض محاولة انقلاب بالفعل ولكن كان من المتوقع قيام محاولة أخرى في أيٍّ وقت. كان لاستمرار الحرب بقيادة الحكومة المؤقتة أثرٌ في زعزعة الأوضاع. حتى أن "هوبسباوم" كان يرى أن البلاشفة وحدهم القادرون على منع انزلاق البلاد إلى الفوضى[2].

كتب "لينين" في سبتمبر من العام 1917 إلى اللجنة المركزية لحزب العمال الديمقراطي الاشتراكي خطابه الأسطوري الذي يحمل العنوان التالي: "يجب أن يعتلي البلاشفة السلطة"[3]. برر فيه ضرورة الاكتفاء بالاجتياح في "بتروجراد" وموسكو، حيث ستقف أغلبية المجالس العمالية (السوفيت) وراء البلاشفة؛ وستتبعهم حشود الشعب في البلاد بأكملها، خاصةً الفلاحون.

1- Eric Hobsbawm, Age of Extremes; Abacus, London 1995, S. 61.

2- المرجع السابق ص 64.

3- LW, Bd.26., S. 1ff.

وقد صدقوا القول، لذا يمكن أن نطلق على ثورة أكتوبر أنها رهانٌ انقلابي على ثورة. رهانٌ فُتح إلى حد ما. في السنوات الأولى بعد ثورة أكتوبر الحمراء، أصبح لدى البلاشفة قاعدةٌ جماهيريةٌ عريضة وسط الشعب حتى وإن لم تشكل الأغلبية في البلاد بأسرها.

أثبت التصور اللينيني بشأن حزب الكوادر الثوري جدواه على وجه الخصوص حيث اعتبره الناس بمثابة حزبٍ طليعي وليس حزب تجمع ذا قاعدةٍ ديمقراطية. وعلى الرغم من أن الأناركي "ميخائيل باكونين" Michail Bakunin كان يعمل وفقًا لهذا المبدأ التآمري المركزي المتمثل في "القيادة والنظام الصارم"[1] لأسباب براجماتية (رغم أنه كان يزعم أنه مناهضٌ للاستبداد) فإن "لينين" لم يستمد ضرورة وجود حزبٍ طليعي لأسبابٍ تكتيكية قتالية فقط ولكن أيضًا لأسبابٍ إستراتيجية. حيث استندت نظريته الحزبية البلشفية إلى فكرةٍ مُفادها أن الشعب لن يستطيع مطلقًا من تلقاء نفسه بلوغ ذروة العصر لأن هذا يتطلب دراسة الماركسية ومصادرها الروحية وكذلك التحليل الاجتماعي والسياسي[2]. استطاع "لينين" أن يستحضر أقوال "كارل ماركس" و"فريدريش إنجلز"، التي وردت في "بيان الحزب الشيوعي" كالتالي: "يُعد الاشتراكيون الجزء الأكثر حسمًا والدافع إلى الأمام ضمن الأحزاب العمالية في جميع البلاد، وهم يمتلكون نظريًا في مواجهة باقي

1- Ricarda Huch, Michael Bakunin und die Anarchie; Suhrkamp, Frankfurt/M 1972, S.167.

2- Dargelegt 1902 in der grundlegenden Schrift «Was tun?», in: LW, Bd 5, S 355–549.

كتلة البروليتاريا نظرةً ثاقبةً على شروط حركة البروليتاريا وسيرها ونتائجها العامة"[1].

التنظيم الثوري يعرف بأنه مؤسسةٌ للعارفين بكل شيء.

طبق البلاشفة هذا التصور في منظمة الأممية الشيوعية (الكومنترن) التي تأسست عام 1919 مقابل منظمة "لوكسمبورج"، وكانت المناضلة الماركسية الألمانية البولندية "روزا لوكسمبورج" Rosa Luxemburg أعلنت أكثر من مرةٍ مناهضتها لمبدأ صفوة الثورة. انتصار مأساوي لـ"لينين". لقد ساهم في أن تتخذ الثورات الشيوعية بعد نجاحها صبغةً ديكتاتوريةً ليس فقط في روسيا بل كذلك في الصين وفي أماكن أخرى.

مصطلح ثورة مؤقت

فلنتوقف لنضع كشف حسابٍ أولي: ماذا لدينا؟ الثورات أحداثٌ جارفةٌ تحشد الجماهير العريضة وتدمر النماذج السياسية والمجتمعية بغرض استبدالها بنماذج جديدة، وهي تمثل نقاطًا فارقةً في التاريخ. تقول الثورات شيئًا حقيقيًا رغم كونها لحظة كذب، بخلاف كونها لحظة غضبٍ وعنفٍ وجمالٍ وفزع. كما تبرز الثورات قادةً وديكتاتوريين أيضًا للأسف. إنها لا تستبدل الحلم بالواقع إلا منتقصًا، لذا يبقى الحلم محبِطًا. هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن.

1- Karl Marx, Friedrich Engels, Manifest der Kommunistischen Par tei; in: MEW, Bd. 4, S. 474.

ليست كل هذه الأمور سوى مقاربات. سيُضاف إليها المزيد في سياق هذا الكتاب كما سنتعمق أكثر فيما توصلنا إليه. السؤال الذي يطرح نفسه هو ما الذي نبحث عنه؟ هل نبحث حقًا عن نظرية موحدةٍ تشمل كل الثورات؟ هنا يِرد على الفور ما يبطل هذا السبب؛ لا وجود لمثل هذه النظرية، بل إن وجودها مستحيل.

منح الفيلسوف "فلوريان جروسر" Florian Grosser كتابه التمهيدي الإرشادي حول هذا الموضوع عنوان "نظريات الثورة" وليس "نظرية"[1] حيث كتب: "عدم التجانس هو أحد الملامح الأساسية لمفاهيم الثورة السياسية ونظرياتها". أما "كرين برينتون" Crane Brinton فيستهل كتابه القياسي The Anatomy- of Revolution أو "تشريح الثورة" الصادر عام 1936 بتلك الجملة الجميلة: "الثورة واحدةٌ من كلمات الفشلة"[2].

ربما يساعد هنا مصطلح التشابه العائلي مثلما كان الفيلسوف "لودفيج فيتجنشتاين" Wittgenstein - Ludwig يستخدمه. هناك مصطلحاتٌ - اتخذ من بينها "فيتجنشتاين" كلمة "لعبة" مثالًا - تشير إلى أشياء ذات صلةٍ ببعضها البعض دون وجود قرابةٍ منهجية منظمةٍ بينها من حيث الأصول اللغوية، ومن ثم تترسخ من الناحية النظرية[3].

1- Florian Grosser, Theorien der Revolution; Junius Verlag, Hamburg 2013.

2- انظر كتاب برينتون ص 3.

3- Ludwig Wittgenstein, Philosophische Untersuchungen; erschienen in: Ders ., Werkausgabe, Bd. 1, Suhrkamp 1984, S. 277.

ومثلما هو الحال بالنسبة لكلمة لعبة، يمكن إدراك ظاهرة الثورة متعددة الأوجه عند الاستعانة بنظرياتٍ متنافسةٍ أفضل من الاستعانة بنموذج واحدٍ كبير.

ليست تلك بالخاصية المميزة لهذه الظاهرة، بل يكمن الأمر في طبيعة ما نطلق عليه "تاريخ". حيث أشار الفيلسوف "إيزايا برلين"Isaiah Berlin (الذي عاصر الثورة الروسية في "سانت بطرسبرج" وهو طفل) إلى أن هناك تفاصيلُ مختلفةٌ زائدةٌ عن الحد في التاريخ تؤثر على بعضها، مثلما تفعل مجموعات بشرٍ صغيرةٍ وكبيرة، إلى جانب عوامل اقتصادية وجغرافية وسياسية وثقافية ودينية وتكنولوجية وروحية أكثر مما يؤثر تشكيلٌ صارمٌ للتصنيفات أو حتى بناء نماذج شكلية وكلها تسمح بتوقعاتٍ تقريبية فقط. كما يرى "برلين" أنه ربما يُضاف إلى ذلك أن المواقف التاريخية لا تتشابه مع بعضها إلا قليلًا، لذا لا يُنتج على حد قوله مطلقًا مجتمعٌ إحصائي كبير بدرجةٍ كافية لأحداث مماثلةٍ لبعضها بعضًا، يمكن استخلاص نموذج واحدٍ منها[1]. إلا أننا لا نريد أن نكون متشائمين للغاية هكذا من حيث المنهجية ولكننا نريد أن نستقبل تحذيرات "إيزايا برلين" دون أن نصنفها بوصفها نظريةً شاملة. فالمنحى الماركسي يبدو مختلفًا تمامًا، ووفقًا لهذا المنحى لا يُعد التاريخ تفاعلًا لعوامل، بل إن العوامل المذكورة ما هي إلى جوانب من الكل المتكامل الذي يتمتع بنواةٍ أساسية بخلاف ذلك. هذا المفهوم

1- Isaiah Berlin, The Concept of Scientific History; in: Isaiah Berlin, Concepts and Categories, Pimlico, London 1999, S. 103 f.

الجوهري والشمولي للتاريخ ورثته الماركسية من "سبينوزا" و"هيجل". إنه برنامجٌ جريء ليس أهلًا لفوضى التاريخ العارمة.

لذا من الأفضل تعددية النماذج بدلًا من ذلـك. إذ إن طريقـة التفكـير الرَّخـوة هـذه تتميز بأنها تجعلنـا نتحـدث عـن الثـورة الإنجليزيـة والأمريكيـة والفرنسـية بـل وحتـى الروسية في وقتٍ واحد، رغم كونها مختلفةً تمامًا عن بعضـها بعضًـا؛ وعليـه فقـد أسـس "كرين برينتون" كتابـه "تشريـح الثـورة" عـلى مقارنـة هـذه التقلبـات الأربعـة شـديدة الاختلاف.

وبدلاً من حلحلة مفهوم الثورة دون اكـتراث، ينبغـي مـن هـذا المنطلـق عـلى الأقـل اللجوء إلى محور مركزي: "إن كلمة (ثورة) لا يمكن استخدامها إلا مع تلك الثورات التـي تستهدف الحريـة"[1]. عـلى حـد قـول عـالم الرياضـيات "مـاري جـان أنطـوان نيكـولاس كاريتات"؛ "المركيز دو كوندورسـيه". وكـان "المركيـز" الـذي شـارك عـام 1789 في الثـورة الفرنسية واجه صعوباتٍ بوصفه ليبراليًا في مواجهة أنصار "ماكسيميليان روبسبير" ومات في النهاية مسمومًا، ربما كان انتحارًا، لا أحـد يعـرف. وجـاءت صـياغة مطلبـه متناقضـةً منطقيًا ولكننا نريد اقتباس فحواه. إذ يسمح عمليًا بإقصاء ظـواهر بعينهـا رغـم وجـود تشابهاتٍ محددة مع حركاتٍ ثورية، لا سيما الجهادية والفاشية.

إن الحركـات الجهاديــة لمــا يطلــق عليهــا "الدولــة الإســلامية" أو "داعــش" و"القاعدة" وغيرهما، أيًـا كانـت اختلافاتهـا، تـذكرنا بالتيـارات الثوريـة لأنهـا هـي

1- Condorcet, Œuvres; Editions la Bibliothèque Digitale, Paris 2012, Pos. 7730.

أيضًا موجهة ضد نخبةٍ فاسدةٍ وتَعِد الشعب بإمبراطورية قادمة تتسم بالاستقامة والفضيلة والعدالة الاجتماعية. وتستند أيديولوجياتهم على التطهير التام. وكثيرًا ما يُشاع أن تنظيم "داعش" يطمح إلى استرجاع ظروف القرون الوسطى، ولكننا عندما نقارن ذلك بالتاريخ الأوروبي يتعين علينا التفكير في منتصف القرن السادس عشر، تحديدًا في عهد الرعب على يد رسول الفضيلة والمصلح الراديكالي "يوهانيس كالفين" في جنيف الذي لم يكن أقل بشاعة.

حتى الجهاديون لديهم حلفاءٌ ومانحون ومحاربون معاونون في الخارج، شأنهم شأن الثوار؛ وتتألف قواتهم بقدرٍ ليس بالقليل من ألوية دولية، كما يتمتع الجهاد في عديد من الدول الفقيرة بتعاطف بين أفراد الشعب. ما زلت أذكر إقامتي في مدينة "دار السلام" التنزانية. كان ذلك في نهاية عام 2001، حيث شاهدت شبابًا يتجولون وهم يرتدون قمصانًا يمجدون بها الهجوم الإرهابي على مركز التجارة العالمي. واليوم ينضم رجالٌ شبابٌ إلى "داعش"، ممن أصبحوا متطرفين أثناء "الربيع العربي"، بينما بدأ آخرون طريقهم في الجهاد بالثورة على التمييز تجاه السنة في العراق في ظل حكم رئيس الوزراء "نوري المالكي" أو بالمعارضة ضد نظام الأسد القمعي الوحشي في سوريا.

وربما تكون هناك أسبابٌ لاعتبار الجهاد بمعناه الواسع ثوري. فلا ينقصه سوى شيء واحد، لا سيما خاصية "كوندورسيه". الحرية ليست بأيِّ حالٍ محتواه، في أحسن الأحوال الحرية الدينية للسنة ذوي الميول المتطرفة. الجهاد عقيدة إخضاع، خاصةً الإخضاع تحت لواء الأبوية المتزايدة إلى حدٍّ كبير.

لعلنا نثقل كاهل مفهوم الثورة للغاية إذا ما أردنا أن نوسعه ليشمل الفاشية والنازية. إذ إن هناك مؤرخين يتحدثون عن الثورة في هذا السياق، كما أن مفهوم الثورة يندرج ضمن توصيف الذات لروابط النازية قديمًا واليوم أيضًا. ولكن "سيباستيان هافنر" Sebastian - Haffner أنهى هذا الأمر في عام 1939 عندما وصف فوز النازية بالكلمات التالية: "قد تكون المتاريس شيئًا متقدمًا ولكنها أحد أشكال العفوية والارتقاء والتدخل والانتفاض، ويبدو أنها أمرٌ جوهري يرتبط بأيِّ ثورةٍ حقيقية. ولم تتضمن أحداث مارس 1933 أيًا من ذلك. فحدوثها كان نتيجةً لتضافر العناصر الأكثر غرابة، إلا أن الشيء الوحيد الذي غاب تمامًا كان أي فعل من أفعال الشجاعة والجرأة واستقواء القلب من أي جانب"[1]. وفي موضع آخر كتب: "أدت كل ثورةٍ لدى شعوب أخرى - بغض النظر عن كم الدماء التي سالت والإضعاف اللحظي اللذين جلبتهما - إلى تصعيدٍ هائلٍ للطاقات الأخلاقية على كلا الطرفين المتصارعين... الألمان المعاصرون اليوم ليس لديهم في ذاك الموضع الذي ينبغي أن تتفجر فيه منابع القوة سوى ذكريات الخزي والجبن والضعف"[2].

إذا راقبنا نازييّ اليوم قد نرى أنهم يتباهون بكونهم ثوريين - إذ تنحصر أفعالهم فيما يلي على سبيل المثال، إشعال النيران في سقف منزل أشخاصٍ خائفين وضعفاء لينهار فوق رؤوسهم أو إرداء تاجر خضروات مسكينٍ قتيلًا.

1- Sebastian Haffner, Geschichte eines Deutschen. Die Erinnerungen 1914–1933; Pantheon, Berg am Laim 2014, S. 122 f.

2- المرجع السابق نفسه ص 131.

إلا أن النازيين والفاشـيين شـأنهم شـأن "داعـش" يـدافعون في المقـام الأول عـن الحريـة لأمثالهم فقط، لذا فإن معيار "كوندورسيه" لا يتماشى معهم.

هناك ملاحظةٌ أخيرةٌ بشأن "الثورة المحافظة". ممثلوها ليسو مجرد ثوريين مضـادين. الأيديولوجيون مثل "أوزفالـد شـبنجلر"Oswald Spengler و"إرنسـت يـونجر" Ernst Jünger أو "كارل شـميت"Carl Schmitt لـديهم عـداوةٌ مـع الثـورة أقـلُّ مـن الوضـع الحالي. وملاذهم الفكري فاشي، تحديدًا إعادة ميلاد عَالمٍ قومي ولَى بعيدًا وجـرى صبغه بالخيال، عَالمٍ لا يرونه تناميًا للحرية بل الأصالة، لـيس تناميًـا للتعدديـة بـل الهويـة. إذا أردنا أن نطلق على ذلك ثورية فسوف تصبح الكلمة بذلك باهتةً ومُستهلكة.

إن هؤلاء الناس ليسوا محافظين حقًا. فالمحافظ لا يريد أن يُنهي الحالـة الراهنـة بـل يحافظ على ما هو الأفضل في عينيه (لذا تكون الثورة بمثابـة الرعـب بالنسـبة لـه). لقـد وصف "إدموند بوركه" Edmund Burke - العارف الروحي بالمحافظة ومعـاصر الثـورة الفرنسـية وعـدوها - المحافظـةَ في نشرتـه السياسـية "تـأملات حـول الثـورة في فرنسـا" أوRefections on the Revolution in France بالكلمات التالية: "بدلًا مـن الـتخلص من أحكامنا المسبقة القديمة فإننا نكن لها الاحترام بقدرٍ كبير، لإضافة المزيد من الخـزي والعار على رؤوسنا. نحن نحترمها تحديدًا لأنها أحكامٌ مسبقة: وكلما طال بقاؤها وكلـما سادت بشكل أعم، زاد إجلالنا لها. نحـن نخـاف مـن أن نـدع كـل شـخصٍ يعـيش عـلى مخزون المنطق والعقل الخاص لديه، لأن الشك يساورنا بـأن مثـل هـذا المخـزون صـغيرٌ

وأن الأفراد يصنعون خيراً عند استخدام الحساب المشترك ورأس مال الأمم والعصر"[1].

لذا حذر "بوركه" من تحوُّل إنجلترا إلى جمهورية برلمانية وفق النموذج الثوري الفرنسي.

والآن لعلنا نكون قد حددنا مفهوم الثورة وميزنا ملامحه. إلا أنه لم يتضح بالشكل الكافي بعد. وبهذا تكون الثورة على سبيل المثال طريقة حياة، وهذا هو تحديدًا ما جذبني في شبابي وبعد ذلك بفترةٍ طويلة. وأنا لم أشفَ من هذا الانبهار حتى اليوم. وبغرض دراسة طريقة الحياة هذه ونقدها من المفيد، يجب أن نلقي نظرة فاحصة على بعض الثوريين.

1- Edmund Burke, Refections on the Revolution in France; Penguin, London 1968, S. 183.

3

مجموعة آلهة الثوار 1:

مواطنون عالميون، شباب، نشطاء

أتناول بالتوضيح في الفصلين التاليين تنوع ما يطلق عليه اسم ثائر أو ثائرة.. نتأمل هؤلاء فرادى لإثراء مفهومنا عن ماهية الثورات خطوةً وراء الأخرى.

فلتربطوا الأحزمة وتستعدوا للقيام برحلةٍ عبر الزمان والمكان. لكنني لن أقدم الثوار في تتابعٍ زمني مثلًا من "سبارتاكوس" وحتى "تشي جيفارا" بل سأرتبهم ترتيبًا مترابطًا إلى حدٍ ما وفقًا للأنماط.

لكل ثورة أوجهٌ مختلفة لذا فهي تحتاج إلى أبطالٍ مختلفين كُثر.. كلٌ منهم يلعب دوره الخاص. كتب المؤلف الفرنسي الخبير بالثورة "فيكتور هوجو" في روايته "البؤساء" Les Misérables العبارة التالية: "كي تكون (ثورة)، لا يكفينا أن يقدمها "مونتسكيو" ويعظ بها "دينيس ديدرو" ويعلن عنها "بيير بورماشيه" ويقدرها "كوندروسيه" ويجهز لها "فولتير" ويخططها "روسو".. فمن الضروري أن يُقدم عليها "دانتون" أيضًا"[1]. تظهر شخصياتٌ رائعة تعمل معًا وتختلف فيما بينها قبل وأثناء وبعد كل

1- Victor Hugo, Les Misérables; Pocket, Paris 2013, S.668.

ثورة. إنه حقًا اكتشافٌ ثـري لكُتَّـاب مثـل "هوجـو" الـذي مـن الممكـن أن نقـرأ روايتـه بوصفها بانوراما ثوريةً نفسية.

"دانتون" إذًا هو رجلٌ يرمز مصيره إلى الثـورة الفرنسـية. كـان ينتمـي لهـؤلاء الـذي يدفعون العملية الثورية قُدمًا عندما كانت مُهددةً بـالتعثر. وقـد فسر بكلماتـه التاليـة: "فلنكن مفزعين كي لا يضطر الشعب أن يكون مفزعًا" سـبب إقامـة المحـاكمات الثوريـة يوم العاشر من مارس عام 1793[1] ومن ثم تأسيس عهد الإرهـاب لليعاقبـة الـذي وقـع هو نفسه ضحيةً لهم بعد عام.

لعـب الممثـل "جـيرارد ديبـارديو" Gérard Depardieu شخصـية "دانتـون" بنهمـه للحياة وطمعه واستقلاله ودنائتـه وعاطفتـه وتعاطفـه وقسـوته في فـيلم ثـوري جـديرٍ بالمشاهدة عـام 1983 للمخـرج البولنـدي "أندريـه فايـدا" Andrzej Wajda، بطريقـة جعلت المشاهد يعتقد أن "ديباردو" يُعبِّر عن نفسه. وهذا صحيح. فأنا مقتنعٌ بأن هـذا الممثل ربما كان ثوريًا في ظروفٍ تاريخية أخرى على الأقل، أو متمردًا مؤقتًـا لأنـه يمتلـك الصفات المذكورة ويملك شـيئًا آخـر وهـو أن "ديبـارديو" مـن أصـل فقـيرٍ ومـن وسـط إجرامي ويحمل الكراهية للظلم والنفـاق الـذي يتمتـع بـه النـاس الأفضـل بـل وأيضًـا الحب للبؤساء والملعونين على هذه الأرض. لذا يحب الفرنسيون ممثلهم "جيجي" لأنه يمثل القوة الأولية للثورة. وبمـا أن تمـرده قـد قـاده إلى مسـاراتٍ خاطئـةٍ عـلى طريقـة

1- Georges Danton, Rede vor der Nationalversammlung am 10 März 1793; in: Peter Fischer (Hrsg.), Reden der Französischen Revolution; dtv, München 1974, S 279 - 280.

"بوتين"، فهو يلائم الصورة تمامًا. فقد أراد الوعي المتمرد في الاستمرار وأدى إلى صراع على السلطة ومن ثم صار عرضةً لقوةٍ جاذبة لملحمة بطلٍ قوي، مهيمن. سواء أكان اسمه الآن "بوتين" أو "تشي جيفارا".

"فيكتور سيرجيه".. مواطن عالمي درامي

تقدم مذكرات "فيكتور سيرجيه" Victor Serge (1890 - 1974) معلوماتٍ عن كيف تصبح ثوريًا وتكون ثوريًا. عمل هذا الرجل الذي عاش طيلة حياته ثوريًا في حرفة الطباعة وكاتبًا ومواطنًا عالميًا. انضم في مسقط رأسه بلجيكا لجماعة الفوضوية (الأناركية) في البداية. وسرعان ما دفعته الملاحقات إلى التنقل في جميع أنحاء العالم، أثناء ذلك عمل لصالح المنظمة الشيوعية الدولية في موسكو ثم ناهض "ستالين" وتمكن من الهروب من إرهابه لفترةٍ قصيرةٍ وانضم إلى منافس "ستالين ليو تروتسكي". الذي لم يكن أفضل منه.

تكمن خصوصية "سيرجيه" في أنه كان ناقدًا لاذعًا للثورات وناشطيها بما في ذلك شخصه هو نفسه. إذ يكمن مبدأ الثورة بالنسبة لـ"سيرجيه" في الحرية.

رأى أسباب قيامها كثيرةً على مدار حياته. لكنه عرف دافعًا أكثر عمقًا لأن يكون ثوريًا وهو: "يكمن جوهر الحياة في أن تشارك بوعي في إتمام

التاريخ (...)، أيْ أن تكون معارضًا فاعلًا ضد كل شيءٍ يُحقر من الناس، وأن تشارك في كل الكفاحات الموجهة لتحرير الناس ورفع شأنهم"[1].

رسالة مزدوجة. تحمل الجملة الثانية توجيهًا بالفعل ضد أي شيء لا يعارضه فكرٌ إنساني. إلا أن الجملة الأولى تنطوي على شروط بطريقةٍ إشكالية. فهي تُعبِّر في زمن "سيرجيه" عن فكرة مهيمنةٍ وهي ضرورة تأمل التاريخ بوصفه حركةً تقدمية تحتاج إلى الاكتمال. ربما لم يعد هناك أي فرد اليوم يتحدث بهذا الشكل الساذج - إن كان هناك شكلٌ في الأساس - علاوة على ذلك تفيد الجملة بأن الحياة الأفضل هي العمل اتساقًا مع هذا التوجه. السؤال المطروح هو: لماذا؟ هل من منطلق أخلاقي محض، أم من منطلق تعاطفٍ أم ربما من منطلق حب للذات؟ ربما كل هذا معًا، لكن أعتقد أن ثمة أمنيةً أخرى تتضح في ذلك ألا وهي ممارسة السلطة.

هذا ليس اتهامًا. فكل إنسانٍ يرغب في السلطة. كان الفيلسوف الفرنسي وصاحب التوجه التنويري "كلود أدريان هلفتيوس" Claude Adrien Helvétius (1715 - 1771) عالم نفسٍ دقيقًا؛ حيث ساهمت أفكاره في تطوير مبادئ ثورية، مثل الماركسية، على نحو أكثر مما نعتقد عمومًا. فهو يرى أن حب السلطة يصاحب بالضرورة حب الذات عند الناس وسعيهم

1- Victor Serge, Mémoires d'un révolutionnaire; in: Victor Serge, Mémoiresd'un révolutionnaire et autres écrits politiques, Éditions Robert Laffont, Paris 2001, ،S. 818.

للسعادة، لأن السلطة تزيح من طريقها أية عقبةٍ تعرقل مُتعة الإنسان[1].. السلطة تمنح استقلالًا. تقول الكثير عن "المستقلين" في زماننا. جزءٌ من الطيف اليساري المتطرف الذي يتحدث عن "تمكين ذاتي" إذا ما اصطدموا بقانون سارٍ. كما أن سمة مرحلة البلوغ هي الرغبة في الشعور بالسلطة. ليس من قبيل الصدفة أن يتخذ الرجال الشبان توجه محاربي "الكتلة السوداء" (البلاك بلوك) فهم يثبتون أنفسهم ويحبون ممارسة السلطة على آخرين ويتصرفون بشكلٍ لا يختلف كثيرًا عن أتباع النازية أو الجهاديين.

تبدأ السير الذاتية للثوار ومنهم "فيكتور سيرجيه" بوصفٍ لعجز أساسي، بتحكم آخرين بدلًا من الاستقلالية، بالتعرض لوطأة ظروفٍ صعبة وحاجةٍ وظلم أو بالشعور المؤلم أن نولد في عالم به أناسٌ آخرون عليهم تكبُّد كل شيء. ومَن يتمرد على ذلك ويرى حليفًا في مسار التاريخ يتجاوز الشعور بالعجز والتقصير. ثم يغني على سبيل المثال أغنية: "نحن مَن نصنع الزمن الجديد" كما هو واردٌ في أغنية حركة العمال الشبان التي ظهرت في "هامبورج" عام 1914 وصارت اليوم جزءًا من الإرث التقليدي للحزب الديمقراطي الاجتماعي.

1- Helvétius, De l'homme; in: Oeuvres completes d'Helvétius, Tome VIII, Chap. V, Imprimerie de P. Didot, Paris 1795, S.232.

أذكر شعور السلطة الذي شعرت به عندما اجتاحتني الحركة الطلابية اليسارية. بدأت بالفعل في مسيرات عيد الفصح حيث كان المتظاهرون يغنون أغنية "سنفوز" We shall overcome الأمر الذي زاد من أجواء الطمأنينة. لم تمر فترةٌ طويلة حتى رسمنا شعار Venceremos "سنفوز" على لافتاتنا وسحقنا "الشيوعية الدولية" بعنواني "الحق مثل شعلةٍ في موقدٍ مستعر/ لا تزيد جذوتها إلا بالسلطة". منحنا - نحن الطلاب اليساريين - الشعور بالانتماء إلى حركةٍ منتصرةٍ بقوة الطبيعة في نهاية الستينيات ثقةً بالنفس انتقلت شعلتها إلى زملائنا وحمَّستهم حتى ولو لم يشاركونا قناعاتنا. بعد فترةٍ وجيزة، صرنا متغطرسين وتعاملنا مع المختلفين عنَّا فكريًا باستعلاءٍ أو بودٍ تكتيكي في أفضل الحالات.

لم نعرف - نحن مَن كنا نحب الحديث عن "الجدلية" - أن ذلك كان جدلية السلطة. يجب أن تكون مستديمةً ومتجددةً وتخضع لنفسها نسبيًا، وأن تكون عاجزةً أمام نفسها. لذا لا يستطيع مَن يعتبر نفسه ثوريًا أن يتصرف على نحوٍ ثوري من وقت لآخر. اليوم نعم. غدًا لا. غير صحيح. سواء أكان يؤمن بشعار "تروتسكي" عن الثورة الدائمة أم لا فهو نفسه ثائرٌ دومًا. يشعر بالخزي إذا لم تكن قواه كافيةً في وقت ما. ويكمن بهذا شيءٌ بروتستانتي للغاية. ليس حرًا.

كانت كلمة ثوري تعني لنا نحن الشباب اليساري أن تكون ثوريًا صاحب سلطةٍ في السابق، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن علينا أن نتجرأ بالاقتراب منها، مثل الثوار الحقيقين في التاريخ. بالتأكيد سعينا لمواجهة الشرطة في المظاهرات في بعض الأحيان. تجارب لاختبار الشجاعة كما يعرفها كثيرٌ من الشباب. لم يكن ذلك جيدًا على الجانبين في بعض الأحيان، لكنه لا يُقارَن مع ما خاضه كل من نعتبره مثلًا أعلى؛ إذ تمت ممارسة لعبة القط والفأر مع الشرطة الألمانية، واعتبر الكثيرون تلك اللعبة فعلًا ثوريًا حقيقيًا.

لم يكن اختبار بطولتنا اختبارًا جادًا أبدًا. كان عليَّ أن أغير المدرسة الثانوية بسبب منشور، ليس بالشأن الجلل. فيما بعد عندما كنت في خدمة الحزب الشيوعي وأحصل على مالٍ قادم من جمهورية ألمانيا الديمقراطية، كانت دولة جمهورية ألمانيا الاتحادية تتركني في سلام. ربما لأنها لا ترى فيَّ تهديدًا. لكن كان هناك مزيدٌ من الضغط يُمارس على أعضاء الحزب الشيوعي الألماني الذين يعملون في وظائفَ عامةٍ حتى وصل الأمر إلى منعهم من العمل. لم يكن المسلك على النحو الذي من شأنه أن يتسبب لجانبنا في حالةٍ هيستيرية إبان الحرب الباردة.

كانت حقيقة أنه تم تشكيل تنظيمٍ عسكري للحزب الشيوعي الألماني ينبغي أن تؤخذ على محمل أكثر جدية. حيث كان التدريب هناك على إطلاق الرصاص والاشتباك والتخريب مثل الجماعات شبه العسكرية للنازية الجديدة. لم تكن المعلومات عن التنظيم العسكري للحزب الشيوعي الألماني

غير حقيقية؛ فهي ليست ناجمةً فقط عن بحث في التاريخ المعاصر (غير الكامل)[1]، بل تتسق مع ما عرفتُه في الحزب. حيث تم استئناف تقليد "الجهاز العسكري" (M-Apparat) للحزب الشيوعي الألماني في زمن جمهورية "فايمار" "وفقًا لشروطٍ جديدة" أي في سرية تامة وفيما بعد تتوغل لتكوين أتباعٍ محددين في جمهورية ألمانيا الاتحادية. لم أشعر بقدر قليلٍ من الإهانة بسبب عدم السماح لي بالمشاركة في الألعاب القتالية شبه العسكرية بسبب طبقتي الاجتماعية البسيطة. أكان عليَّ أن ألتهم الروايات الشيوعية المنشورة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بلا جدوى والتي كانت تتغنى بأناشيد الكفاح المسلح أو أعمال المخابرات؟

خيالات مضللة. وكأن أمر بداية الثورة في جمهورية ألمانيا الاتحادية كان مطروحًا عن طريق ما يقوم به الفدائيون! كان هذا يعارض خط الحزب في "الانتقال السلمي للاشتراكية"، ولم يكن أحدٌ ينوي هذا بالتأكيد. إلا أن اللعب مع التقليد الثوري للشيوعين عمل على تعويض خيبة الأمل الناجمة من نقص الفاعلية لعملنا السياسي. من المؤكد أنه يوجد أناسٌ خلف السور يرون أنه من المهم إيقاظ الرغبة في المغامرة لدى رفقاء ألمانيا الغربية كقوة محتملةٍ لأعمال جادة في الحرب الباردة. أنفق حزب الوحدة الاشتراكي الألماني في

1- Stephan Fingerle und Jens Gieseke, Partisanen des Kalten Krieges. Die Untergrundtruppe der Nationalen Volksarmee 1957 bis 1962 und ihre Übernahme durch die Staatssicherheit (BF informiert 14/1996), Hg. BStU; Berlin 1996; http://www.nbn-resolving.org/urn:nbn:de:0292-97839421305788.

السنوات الأولى من حظر الحزب الشيوعي الألماني عام 1956 على إنشاء "جهاز صواريخ" في الغرب وهو عبارة عن رفقاء يطلقون قذائف صغيرةً في السماء بين الحين والآخر تُسقِط على الطبقة العمالية من سكان ألمانيا الغربية موادًا دعائية عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية، إلا أن مثل هذا العبث انتهى في وقت ما بعد حوادث مؤسفةٍ غريبة مثل سقوط صاروخٍ سهوًا في مكتب محامي، والصدفة أن المحامي كان شيوعيًا[1].

لم تكن أكثر الأنماط الجديرة بالملاحظة بين الشيوعين الألمان الاتحاديين تتمثل في المغامرين أو عملاء الجهاز (الأباراتشيك) أو مفكري الحزب أو الشباب بل في "المحارب القديم" الذي ظل على هذا الحال منذ فترة شبابه المبكرة ولم يتمتع بأي امتيازات، بل تعرض لألوان القمع في بيئة العمل وفي السجن. وكان على معرفة بالعمل التآمري مثل معرفته بفك وتركيب المنصّات والطاولات أو الخيم لاحتفالات الحزب العامة، وكان يحضر الاجتماعات المملّة لجماعته في منطقته السكنية مرةً في الأسبوع، ويضع المادة الدعائية في صناديق البريد في نهاية الأسبوع وعلى مر السنوات حتى عندما تتألم مفاصله وأحيانًا عندما يكون منهكًا بشدة. عاصر كل الاتجاهات في خط الحزب. استبعاد أتباع "تروتسكي"، أتباع "تيتو" و"ماو". إيمانه بالثورة راسخ لا يتزعزع.

1- Wilhelm Mensing, SED-Hilfe für West-Genossen. Die Arbeit der Abteilung Verkehr beim Zentralkomitee der SED im Spiegel der Überlieferung des Ministeriums für Staatssicherheit der DDR (1946 – 1976), Hg. BStU; Berlin 2010; http://www.nbn-resolving.org/urn:nbn:de:0292-97839421307146

كتب "فيكتور سيرجيه" عام 1923 سلسةً من المقالات الصغيرة المحفزة بعنوان "حياة الثوار"[1]، كانت عبارةً عن سير موجزةٍ لمشاركين مجهولين في الثورة الروسية. علق "سيرجيه" بقوله: "الشهرة ظالمة". وأضاف: "لا تتحقق الشهرة في المجتمعات الحديثة إلا لهؤلاء الذين يخطبون ويكتبون ويتصدرون المشهد التاريخي. وهؤلاء يقدمون خدمات جليلة لا شك، لكنهم لا يقدمون شيئًا من دون آخرين، الآخرون، أيْ جموع الشعب غير المعروفين أو الأقل شهرة الذين يفعلون كل شيء".

وصف "سيرجيه" مصائر العمال الذين نظموا الإضرابات وحُكم عليهم بأعمال السخرة، ثم أُطلق سرَاحهم وواصلوا الكفاح وتم حبسهم مجددًا وتعذيبهم وشاركوا في الثورة وفي النهاية قُتلوا رميًا بالرصاص من قِبل الثورة المضادة أو تم شنقهم أو ضربهم حتى الموت.. تبدو القائمة متكررةً بشدة على الرغم من أن كل حياة متفردةٌ وخاصة. وصل المؤلف المتأمل "سيرجيه" في النهاية إلى نتائج من سلسلة مقالاته تُفيد بأنه "دُهش من ضعف حيلة القمع"[2]، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئًا مستديمًا ضد الثوار. بل العكس عندما يكون نظام حكم قمعي على الدوام فإنه يعمل على تكوين نوعٍ من الثوار لا يمكن أن يتم إثناؤهم عن أهدافهم. يبدأ مثل هذا

1- انظر كتاب سيرجيه ص 293 وما يليها من صفحات.

2- المصدر نفسه السابق/ ص 310 وما يليها من صفحات.

النوع من الثوار مجددًا بعد الهزائم وفي السجن أو في المنفى. وهذا ما عايشه "فيكتور سيرجيه" بنفسه.

من الممكن أن تكون دوافع تحوُّل الشخص إلى ثوري متنوعةً للغاية. وأبرز حالة هي "فلاديمير إلييتش لينين" Wladimir Iljitsch Lenin الذي تم شنق أخيه الأكبر عام 1887، وكان الأخ ينتمي لجماعة ثورية تخطط لاغتيال القيصر. فيما بعد بفترةٍ قليلة، صار "فلاديمير إلييتش" ناشطًا لا يفكر في أيِّ شيء آخر سوى الثورة. كانت الموسيقى بالنسبة له وسيلةً لزيادة الشعور الثوري، "وكانت قراءته للكتب الفلسفية ما هي إلا وسيلة حتى يتمكن من الكفاح وكي يثأر من زنادقة الماركسية ومنحرفيها"[1]. كما لاحظ معاصره الفيلسوف الروسي "نيقولاي بيردجاييف"Nikolai Berdjajew. على الرغم من غزارة المادة الموجودة عن "لينين"، ربما يكون التشخيص عن بُعد عملًا جريئًا للغاية إلا أنه ينطوي على الفكرة التالية: من الممكن أن يؤدي دافعٌ أولي مثل دافع الانتقام بشخصٍ إلى مسار يغذي الحماس الثوري باستمرار.

تمنح خيالات السلطة على وجه الخصوص هذا الدافع استمرارية أو الرغبة الاضطرارية المرتبط بها الشعور بالتأثير ورفع قيمة الذات من خلال التصور بالانتماء لأكثر الناس تأثيرًا وذكاءً وعدلًا. ولا ينبغي أن نقلل من أن

1- Zit. nach Wolfgang Ruge, Lenin.Vorgänger Stalins, Matthes & Seitz, Berlin 2010, S.37; ein Urteil, das durch Lenins polemisches Philosophiebuch “Materialismus und Empiriokritizismus” sinnfällig belegt wird; LW, Bd.14

الآلية الحماسية لمسارٍ مهني ضالة. صحيح أن الثقافات الفرعية الثورية لا تقدم فرضية محددةً إلا أنها صغيرةٌ بالقدر الكافي بحيث لا يمكن الترقي بداخلها بشكل سريعٍ إلى أعلى وإلى المكان الذي يتمتع فيه المرء بالاحترام والتقدير عن آخرين.

كما قلنا، لا يجب أن تكون هذه محاولة لتفسير "لينين"، بل إشارةٌ إلى الفارق بين الدافع الأولي والدافع الدائم. تؤدي بي السير الثورية إلى هذا الاختلاف دومًا.

قادني السؤال عن الدوافع أيضًا إلى نفسي. عندما بدأت التدريب في مجال القانون وكان مسار العمل البرجوازي مرسومًا إلى حد ما، سألني الزميل، الذي سبق وأن أشرت إليه "فولفجانج جيركيه"Wolfgang Gehrcke، ما إذا كنت سأصير "ثوريًا محترفًا" ورئيس تحريرٍ لمجلة الشباب "إلان" elan التابعة لحركة العمال الشبان الألمان الاشتراكيين SDAJ. من الممكن الحديث عن مفهوم "ثوري محترف"، لكن في حركة العمال الشبان الألمان الاشتراكيين، الذي كان اتحاد شبابٍ عاطفيًا للغاية ومتعطشًا للصعود بسرعة إلى الوظائف الأعلى، كان هذا بالنسبة لي أكثر جاذبية من العمل الشاق المضني في مكاتب المحاماة؛ لأنه يقدم إشباعًا فوريًا ومغامرةً وإثارة، وإطالة لفترة المراهقة بدلًا من الدخول في عالم الكبار البالغين.

"ما زلنا مستجدين"

" أيها الآباء والأمهات.. مُرُّوا عبر البلاد!

لا تنتقدوا ما لا تفهمونه

أبناؤكم وبناتكم لن يطيعوا أوامركم بعد اليوم

طريقكم أصابه العجز

لو أنكم لن تساعدوا.. فلترحلوا من الطريق الجديد رجاءً

حان زمن التغيير"

Come mothers and fathers throughout the land

And don't criticize what you can't understand

Your sons and your daughters are beyond your

command

Your old road is rapidly aging

Please get out of the new one if you can't lend your

hand

For the times they are a-changin'

كانت هذه أغنية "بوب ديلان" التي سمعتها لأول مرة في إذاعة BFBS وهي خدمةٌ إذاعية تابعةٌ للجيش البريطاني. تحتفي الأغنية بصراع الأجيال.

لا يرتبط الشعور بأن تكون ثوريًا بالفئة العمرية. إلا أن الشباب يميل أكثر من الأكبر سنًا إلى الانضمام إلى حركةٍ ثورية. ولهذا الأمر أسبابٌ عدة. فالشباب الأصغر سنًا ليس لديهم الكثير ليخسروه عن الأكبر سنًا كما أنهم يحبون المخاطرة أكثر. وليس عليهم عمل مواءماتٍ في حياتهم، وعلاوة على ذلك فإن الالتزام السياسي المكثف من شأنه أن ينهك الجسد، الأمر الذي لا ينبغي التقليل من شأنه. لذا لطالما كان عدد الثوار الشباب أكثر من الكبار سنًا دائمًا.

عندما وقف الشاب "ألبرت لابونيراي" Albert Laponneraye البالغ من العمر آنذاك 24 عامًا، ذلك المتمرد سعيًا للحرية أمام القضاء في باريس عام 1832، صاح قائلًا: "نحن الشباب أبناء القرن أيقظتنا المشاعر الكبيرة... ما زلنا شبابًا. لم نقدم وعودًا كي نخلفها، لم نقدس كل الأنظمة ونتملقها، لم نعرض شرفنا للبيع أمام كل باب، لم نزايد على قناعاتنا السياسية لأعلى سعر. لهذا حريٌّ بنا مناقشة مصالح المجتمع وتولي أمره"[1].

كان "لابونيراي" قد شارك في ثورة يوليو عام 1830 التي لاحقت آخر ملوك أسرة البوربون "شارل العاشر". تمرد "لابونيراي" على نظام الحكم المناصر للبرجوازية الذي انتهجه ملك الأورليانز "لويس فيليب" الأمر الذي تسبب في سجنه. ثم أعد في السجن محاضرة عن السياسي الفرنسي "ماكسيميليان روبسبيير" وألقاها على العمال والشباب بمجرد أن خرج من

1- Sylvie Aprile et al. (Hrsg.), La liberté guidant les peuples. Les revolutions de 1830 en Europe, Champ Vallon, Seyssel 2013, S.293.

محبسه. تعرضت الدورة التدريبية للحظر، ومثل "لابونيراي" أمام المحكمة عام 1832 بتهمة إثارة الكراهية بين الطبقات. وهناك ألقى هذه المرافعة التي استشهدنا بها بهذه المناسبة.

سارت الحياة معه على المنوال نفسه، حيث نشر أعمال "روبسبيير" التي صارت متاحةً مجددًا لأول مرة منذ عام 1793 وتحفظ عليه السلطويون مرارًا وتكرارًا. آنذاك، كان الحديث عن جيل فترة الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وعن "أبطال في العشرين" كافحوا في باريس على متاريس نقاط التفتيش. كان لهذا سببان؛ إذ لعب الطلاب الشباب دورًا ملحوظًا في الثورة في الحقيقة، وكان رد فعل نظام البوربون هو غلق الجامعات وحظر الجرائد الطلابية، إلا أن هذا لم يمنع الموجة الاحتجاجية التي أطاحت بهم في النهاية. ثم اعتمدت النخبة البرجوازية التي وصلت إلى السلطة عام 1830 على هؤلاء الشباب لإضفاء الشرعية على سلطتهم. إلا أن رد فعلهم على الاحتجاجات الشبابية المتجددة كان أكثر قسوة؛ حيث قامت هذه الاحتجاجات مرةً أخرى لأن سوق العمل لم يتمكن من استيعاب خريجي الجامعات، وتساءل "مكافحو المتاريس" ما الذي قد كسبوه حقًا من الأيام الثلاثة المجيدة في شهر يوليو عام 1830. حينها تكونت إحدى الثقافات الفرعية غير المعروفة لنا اليوم والتي كانت تتأرجح بين التمرد و"الميلانخوليا". وقد ارتدى منتسبوها ملابس كئيبة. وصف كاتب المذهب الرومانسي "ألفريد دي موسيه" Alfred de Musset طريقة تفكيرهم وشعورهم في كتابه

"اعترافات طفل مـن القـرن"La Confession d'un enfant du siècle لا سـيما القـرن الحالي، الذي يفصل الماضي عن المستقبل، ليس جزءًا من هـذا أو ذاك ويشـبه الاثنـين في الوقت نفسه، لا نعرف في أي خطوةٍ نخطوهـا مـا إذا كنـا نطـأ في دولـةٍ أم في مهمـلات. تحولت الرواية إلى عمل سينمائي قبل بضع سنواتٍ من بطولـة "بيـتر دورتي" و"شـارلوت جينسبورج".

صديقي الأفغاني

كان "أجمل" الأفغاني أحد الثوار الشباب الذين عرفتهم وللأسف لم أتمكن من معرفـة ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة أم لا. قابلته في يونيو عام 1980 في كابُل.

في أبريل عام 1978، انقلبـت جماعـةٌ ماركسـية عـلى الحكـم مدعومـةً مـن الاتحـاد السوفيتي أرادت تنفيذ برنامج تحـديثٍ متطـرف وأطلقـت عـلى نفسـها اسـم "الحـزب الشعبي الديمقراطي بأفغانستان" لأنهم لم يستطيعوا إطلاق اسم "شيوعي" على الحـزب في بلد ذي عقيدةٍ راسخة. لم يكن مثيرًا بقدرٍ كبيرٍ من الدهشة أن يكـون للحـزب جنـاحٌ متطرف وآخر أكثر اعتدالًا، الأمر الذي أدى بسبب ثقـافتهم السياسـية إلى تخلـص زمـلاء الحزب من بعضهم بعضًا في أقرب فرصةٍ مواتية مثل جلسات اللجنة المركزية.

عاد "أجمل" البالغ من العمر آنذاك عشرين عامًـا تقريبًـا إلى الـبلاد مـع الانقلاب عام 1978 الذي وُصـف بأنـه "ثـورة". كـان شـابًا محبًـا للحيـاة ذا

خصلات شعر سوداء مموجة، يعلو وجهه ضحكة. نشأ في مدينة "مومباي" الهندية في أسرة علمانية. وحسب ما أتذكره عنه، درس فن التصوير الفوتوغرافي والفلسفة وخاصة الغربية. كان يطمح لتحرير بلده من المنطقة المتخلفة التي يسود فيها قانون القبائل والعشائر وتحويله إلى دولةٍ عصرية. وانضم إلى الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني.

في سبتمبر عام 1979، تولى الحكم مغامرٌ متطرف اسمه "حفيظ الله أمين" الذي تمكن من قمع النخبة التقليدية كلها في البلاد. وقع آنذاك صراع بين "أجمل" والشرطة. سرد لي فيما بعد أنه تم تفتيش حقيبة ملفاته واكتشفوا كتاب "لينين" "خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء" مترجمًا إلى الإنجليزية، حيث كان يتناول الكتاب صراعات الأجنحة السياسية والانقسامات الحزبية. سألوه لماذا يقرأ كتابًا مثل هذا. "كي أحسن من لغتي". "ولِمَ هذا الكتاب تحديدًا؟" "لأنه كتاب جيد كغيره". سُجن "أجمل" وضُرب عدَّة مراتٍ في اليوم.

خلصه الروس. كان الديكتاتور "حفيظ الله أمين" قد توجه ناحية الغرب لتخويف موسكو عندما لاحظ أنه يواجه صعوبات. رأت القيادة السوفيتية أن البلد الواقعة على الطرف الجنوبي من اتحاد الجمهوريات السوفيتية قد بدأ في الانحراف عن مساره أو متوجه صوب الغرب أو حتى ناحية منطقة نفوذ إيران التي يتحوَّل مسارها إلى الطابع المتأسلم. أثار هذا الأمر الأخير القلق على وجه الخصوص لأن الجزء الإسلامي في الاتحاد السوفيتي كان مضطربًا. قام "ليونيد

بريجنيف" بتحريك الجيش الأحمر للتدخل يوم 27 ديسمبر 1979 لأنه في السابق - كما اليوم تحت حكم "بوتين" - كان التوجه الفكري في الكرملين ذا نزعةٍ جيوسياسية وبسبب القرب الجغرافي رأَوْا أنهم من حقهم التدخل وعمل مناطق النفوذ والدول الحاجزة. تم تأسيس نظام حكمٍ موالٍ لموسكو وأكثر اعتدالًا في توجهات السياسة الداخلية. قُتل "حفيظ الله أمين" بقنبلة يدوية.. ثم أُطلق سراح "أجمل".

حكي لي "أجمل" بفخر أنه في أيام التدخل السوفيتي سُمح له بالذهاب على دبابة تي 62 سوفيتية وشارك في موكب الدبابات وسط كابُل. جلس في الأمام أسفل المدفع على حد قوله، وكان يلوِّح بالنصر لأبناء بلده. "الذين ربما شاهدوا الحدث!". عندما جاب معي خلال كابُل، سار خلف رجلٍ ملتحٍ وقام بعمل إشاراتٍ خارجة. كان "أجمل" يفهم المقالب والحرية والمغامرة ولكنه لم يفهم أفغانستان. لم يفهم الشعب. كان أفغانيًا، لكنه ثوريًا مستوردًا من الخارج.

كانت أفغانستان مغلقةً آنذاك بالنسبة للصحفيين الغربيين. أما أنا فقد دخلتها لأنني كنت مواليًا للخط الحاكم. إذا كان "أجمل" ثوريًا مُختَلفًا عليه فماذا كنت أنا إذًا؟ لم أكن أرى في السابق إلا ما أريد أن أراه؛ تقدم الثورة إلى الأمام، خاصة في أفغانستان.

كيف صارت "ألفة" ثورية

كانت "ألفة الرياحي" على النقيض تمامًا من "أجمل". فهي امرأةٌ شابةٌ من العاصمة تونس. عرفتها يوم 13 يناير 2011. أي اليوم الذي سبق إسقاط الثورة التونسية للديكتاتور "بن علي".

أكانت ثورة إذًا؟ خيبة الأمل في تونس كبيرةٌ اليوم. لكن عشيرة "بن علي" استنفدت الطبقات الاجتماعية القديمة في البلاد حيث كانت تحصل على المميزات ووضعت الدولة في خدمة مصالحها وتحولت إلى ديكتاتورية. لم تعد هذه العشيرة تحكم. ومنذ ذلك الحين صارت تونس (حتى إشعار آخر) ديمقراطيةً وهذا لا يعني أكثر أو أقل من أن السياسة لا تصير شرعيةً إلا عن طريق الانتخاب والارتباط بالقانون في الأساس وأن حرية الرأي والمعلومات سائدةٌ لحدودٍ كبيرة مقارنةً بما سبق.

هي ثورةٌ إذًا. كيف صارت "ألفة" ثورية؟

في وقتٍ متأخرٍ على أية حال. توالت الإضرابات والاضطرابات في تونس منذ تسعينيات القرن العشرين خاصةً في منطقة المناجم المُهملة في وسط تونس الغربية حيث يتم استخراج الفوسفات. فقد أرسل الديكتاتور الجيش للقضاء على الثوار من العمال عدَّة مرات. فما كان إلا أن تزايدت هناك أعداد الثوار بشكلٍ هائل. أناسٌ يتحركون وينتظمون دومًا وتحت أي ظروف، ويعملون حتى اليوم سواء في الشركات أو في لجنة العاطلين عن العمل أو في السجن أو أثناء المعارك الانتخابية أو في البرلمان. وهم لا يتمتعون بالمهارة

اللغوية مثل النخبة البرجوازية المتقنة لعدَّة لغات وليسوا أصحاب تأثير إعلامي مثل المحامين أو أصحاب المدونات في العاصمة تونس ولا تتم دعوتهم لحضور نقاشاتٍ ولا يتم الاستشهاد بمقولاتهم في الخارج إلا فيما ندر. إلا أنهم الجوهر الصلب للمجتمع المدني التونسي. مَن يزورهم يتعرف إلى أناسٍ يعرفون مَن هم. عندما تجددت الاحتجاجات نهاية عام 2010، اتخذت الطبقة العمالية (البروليتارية) أماكنها مرَّةً أخرى.

لم تكن "ألفة" تعرف شيئًا عن ذلك. كانت حياتها اليومية مختلفةً تمامًا.

نشأت ابنة قائد الجيش في العاصمة تونس، وكانت تعيش حياة الطبقات المتوسطة المتميزة. سبق وأن قام "الحبيب بورقيبه"، أول رئيس لتونس والذي سبق "بن علي" في الحكم، بتحديث البلاد بعد الاستقلال بالطرق الاستبدادية منذ عام 1975. بالأحرى، كانت البرجوازية المنفتحة على العالم والتجارة العالمية والسياحة للمنطقة الساحلية التي وعدها بالتعليم ونمط حياةٍ بعيدًا عن التدين المتشدد والتقاليد الريفية هي قاعدة سلطته. اجتازت "ألفة" المرحلة الثانوية ودرست علوم الاقتصاد وأسست مكتبًا للترجمة، حيث كانت تجيد اللغة الإنجليزية - لغة العولمة - إلى جانب العربية والفرنسية، وكانت تقدم برنامجًا في وقتٍ ما لعدَّة سنواتٍ بعنوان "قصة نجاح" Success Story في محطة إذاعة اقتصادية.

لو لم تكن الإنترنت موجودةً لكان الوضع قد استمر على هذه الشاكلة.

في يوم 17 ديسمبر 2010، أشعل تاجر خضرواتٍ شابٍ النيران في نفسه، إذ كان يائسًا شأنه شأن معظم الشباب الآخرين الذين يعيشون داخل البلاد ولا يعرفون كيف يتخلصون من المعاناة وسخافة الحياة، ولا يزالون لا يعرفون حتى اليوم على الرغم من اندلاع الثورة.

كان الديكتاتور مسيطرًا على وسائل الإعلام التقليدية لكنْ ليس على "التويتر" أو على "الفيسبوك" (شكرًا "تويتر" شكرًا "فيسبوك").

“Merci le peuple, merci Facebook”

عبارات قرأتها لاحقًا على جدار في العاصمة تونس. انتشر خبر حرق الشاب لنفسه بسرعةٍ ووصل إلى التليفون الذكي لـ"ألفة" التي أخذت تقرأ وتقرأ في شبكة الإنترنت كل يوم وليلة، فتفتحت عيناها. أهذا كان بلدها؟ ألا يجب أن نفعل شيئًا حيال هذا؟ ولأن لا أحد في إذاعتها أراد نشر الموضوع، تمكنت هي على الأقل من إذاعة أغانٍ حزينة. وفهم المستمعون الرسالة.

واصلت "ألفة" البحث واكتشفت صفحةً على "الفيسبوك" لـ"عزيز أماني"، شاب تابع للفوضوية بدأ بالتعاون مع بعض الأصدقاء في تنظيم تجمعاتٍ سياسية مفاجئة منذ شهور ونشر فيديوهات لها على الإنترنت. ينتمي "عزيز" إلى ثقافةٍ سياسية مغايرةٍ لثقافة "ألفة"؛ إذ طاف بنظريات الثورة واستشهد بـ"كانت" و"هيجل" بل وأيضًا بـ"كروبتكين" و"باكونين". عندما بدأت الثورة التونسية، كان هو ثوريًا منذ وقتٍ طويلٍ بالفعل. تأملت

"ألفة" تسجيلات الفيديو التي رفعها بدهشة. ثم عرفت أنه تم إلقاء القبض على "عزيز" ومصور لقطات فيديو آخر.

كان هذا بالنسبة لها النقطة التي فصلت بها حياتها السابقة. تحدثت في ميكروفـون الأستوديو قائلة: "هذه الأغنية لعزيز وسليم" ثم أدارت أغنية Blowing in the Wind "في مهب الريح" لـ"بوب ديلان":

"كم عامًا سيمر قبل أن يحيا الناس؟

قبل أن يُسمح لهم بأن يكونوا أحرارًا؟

وكم مرةً يستطيع الإنسان أن يدير رأسه

ويتظاهر بأنه أعمى؟"

How many years can some people exist

Before they're allowed to be free?

Yes, and how many times can a man turn his head

And pretend that he just doesn't see?

كـان عليهـا أن تغـادر الأسـتوديو في الحـال. ومنـذ ذلـك الوقـت، سـجلت "ألفـة" فيديوهات بنفسها وكتبت مدوناتٍ على "الفيسبوك"، حيـث انهالـت عليهـا فجـأةً آلافٌ من طلبات الصداقة، وخرجت في مظاهرات.

كان هذا في وقتٍ تطلق فيه الشرطة على المتظاهرين قنابل الغاز المسيل للدموع والخرطوش وأحيانًا تضربهم بالمسدسات والبنادق. وكان رجال الشرطة يطاردون المتظاهرين كي يقبضوا عليهم ويشتبكون معهم ويعتقلونهم.

اجتاحت البلاد موجةٌ من الاحتجاجات في بداية يناير 2011. أتذكر مشهدًا في شارعٍ جانبي بالعاصمة تونس حيث كان هناك ستة شبابٍ ينشدون النشيد الوطني فاقتحمت قوات الشرطة هذا التجمع وهي تستقل دراجاتٍ بخارية. ترجل الشرطيون وأوسعوا المجموعة ضربًا بالهراوات. كنت واقفًا عند مدخل أحد البيوت ونظر رجلٌ عجوز من الباب ولم يقل سوى: "ثورة يا سيدي" "Révolution, Monsieur".

سقط الضحايا الأوائل في عواصم الأقاليم وتساءل البلد بأكمله متى ستصل الثورة إلى العاصمة تونس مركز السلطة؟

في عشية يوم 13 يناير 2011، كتبت "ألفة" على "الفيسبوك" ما يلي:

"عمري 28 عامًا وكنت مؤمنةً بشدَّة قبل أربعة أسابيع فقط أن النظام التونسي جيد. كنت مؤمنة بشدة بأن "بن علي" ربما هو أفضل ما يمكن أن يكون قد حدث لتونس... بشكل ما، منعني وضعي المريح من الاعتراف بالحقيقة، الحقيقة المؤلمة والمثيرة للخوف.

قالوا لي: إن الأسر التي تنتمي إلى أصحاب السلطة تنهب البلاد.

أجبت: ربما، لكنهم لم يأخذوا شيئًا مني.

قالوا لي: النظام السائد ديكتاتوري.

قلت: التونسيون ليسوا مستعدين بعد للديمقراطية.

قالوا لي: يموت الناس جوعًا.

أجبت: سأساعدهم قدر استطاعتي.

قالوا لي: الشباب المتعلم لا يجد عملًا.

أجبت: لأنهم ليس لديهم المؤهلات المناسبة.

قالوا لي: النظام فاسدٌ وإذا لم يكن لديكِ علاقات فلن تصلي إلى شيء.

أجبت: _______

قالوا لي: تونس دولةٌ بوليسية.

أجبت: هذا أفضل! أشعر بالأمان عندما أسير بمفردي ليلًا في الشارع.

قالوا لي كل شيء وكنت دومًا أجد حجة مضادة.. مخرجًا.. كنت أؤمن بذلك قبل أربعة أسابيع. ثم حرق شابٌ نفسه. شابٌ لا أعرفه. شابٌ عاش في أحد الأماكن في تونس لم أزرها قط. شابٌ اسمه "محمد بوعزيزي".

ومنذ ذلك الوقت وأنا لم أعد أؤمن بما كنت مؤمنةً به من قبل.. فكرت: أيُّ يأسٍ هذا الذي يدفع شابًا لمثل ما فعل؟ أي غضب هذا؟ أي معاناة تلك؟ وفجأة اختفت أنانيتي وخوفي من المجهول وفقداني لبصيرتي.

اليوم أخجل من نفسي. أخجل من نفسي لأنني كنت مخدوعة للغاية. أخجل من تصديقي للدعاية والوعود لنظامٍ ظالم، فاسدٍ، معذِّب، مستغل، قاتل، وكاذب...

اليوم أرى الجماجم المهشمة والأطفال المقتولين بالرصاص والأمهات الباكيات على أطفالهن والفنانين المعذبين. اليوم أسمع طلقات رصاص...

أعتقد أن السؤال الذي يجب أن نطرحه هو لماذا؟

لماذا؟ لأن...

لأن الحرية ليست منحةً بل حقًا يجب الكفاح من أجله... لأن قول ما نفكر به ليس بجريمة. لأن إطلاق الرصاص على مدنيين هو الجريمة... لأنني لم أعد خائفة. ولماذا لم أعد خائفة؟ لأنني أقول اليوم لنفسي لن يحدث ما هو أسوأ من أن يخسر المرء كرامته".

تناولت "ألفة" في رسالتها السؤال مرَّةً أخرى "ماذا بعد؟". كانت تكتب و"بن علي" لا يزال على كرسي الحكم. كتبت أن الشعب سيختار مَن يفوضه في المستقبل. ولن ينتخبوه مرةً أخرى. كيف من الممكن الوصول لهذا النظام؟

"لا أعرف حتى اليوم لكنني أعرف أننا لن نتراجع. ماذا بعد؟ اقتربتُ. فقط تتحيَّن اللحظة. أعرف أن ذلك سيكون صعبًا. أعرف أن ذلك سيستغرق فترةً

طويلـة. أعـرف أن الحيـاة لـن تكـون ورديـة. سـتكون مثـل أيٍّ حيـاةٍ بكـل نجاحاتهـا وإخفاقاتها. ستكون حياةً نستحقها ونحن لها!".

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما شاركت مـا كتبتـه عـلى "الفيسـبوك". طالبت النقابات بالتظاهر في الأيام التالية. كانت في ذلـك إشـارةٌ قويـةٌ لأن النظـام كـان يستطيع الاعتماد على التعاون مع قمة النقابة حتى ذلك الوقت. لبّى كثيرٌ من المواطنين النداء في المدينة الساحلية "بَنْزَرْت" وأغلقت الشرطة المدينة.

اهتم ممـول مكتـب "ألفـة" للترجمـة بأسرتـه التـي تعـيش هنـاك وأراد السـفر إلى . وصفتْ "ألفة" ما حدث معه كما يلي:

"اقترب "رمزي" من جسر وفجأة رمى أحد الأشخاص حجرًا كبيرًا على السيارة. تهشم وجه "رمزي" وتدلت إحدى عينيه. أراد رفيقه في السيارة اصطحابه للمستشفى، فتوقفا عند حاجز. أخرجت الشرطة الاثنين مـن السـيارة وضربـتهما. فعـادا أدراجهـما ووجـدا حاجزًا آخر. هنا أطلقت الشرطة قنبلة غازٍ مسيلٍ للدموع على السيارة".

عرفت "ألفة" بهذا الأمر عشية يوم 14 يناير، يوم الثورة الذي هرب فيه الـديكتاتور. قضت هذا اليوم في التظاهر والتصوير والتدوين. وماذا بعد؟

واصلت نشـاطها. يجـب دفـع الثـورة إلى الأمـام لأنهـا إذا ظلَّـت في مكانهـا فستحدث الثورة المضادة. أسقطت حركـة الديمقراطيـة حكومـةً تلـو الأخـرى.

كانت "ألفة" دومًا في صفوف المتمردين على الرغم من أنها لم تكن يسارية. كانت تريـد انتخاباتٍ حرةً وحوارًا حرًا وأسواقًا حرة أيضًا. ذاكرت وذاكـرت وذاكـرت، الثـورة دراسـةٌ سياسيةٌ بالنسبة لها. نجحت "ألفة" في دفع وزير الخارجية في حكومةٍ جديـدةٍ كي يقـدم استقالته بسبب كشفها عن اختلاس أموال. وُرفعت عليهـا قضـية بتهمـة التشـهير لكنهـا كسبتها بعد وقتٍ قصير.

هاجرت "ألفة" في صيف عام 2016 إلى كندا. عندما تزيح السيدة الأنيقة الشابة ذات الشعر القصير الملفـوف كمهـا الأيمـن للخلـف، تـرى التـاريخ الـذي وضـعته وشـمًا عـلى ساعدها. إنه تاريخ 17 ديسمبر 2010. ذلك اليوم الذي أشـعل فيـه "محمـد بـوعزيزي" النيران في نفسه والذي صارت فيه "ألفة" سياسية.

ثورية. لا. لأنها - شأنها شأن الأفغاني "أجمل" - أرادت أن تلزم مجتمعها بمثـلٍ أعـلى. بل لأنها لمست فيه أمنيةً كائنةً في العالم كله وفي كل الحضـارات التـي تتضـح تحـت أي ظروف. أمنية العيش بكرامة.

قد نطلق على ذلك كلمة "قيمة"، إلا أن هذه الأمنية ستحلق في سـماء المُثـل العليـا وتختفي. لكنَّ هناك حاجةً أن يتم الاعـتراف بالإنسـان صـاحب القـدر والقيمـة، بـإرادةٍ نابعةٍ من حقيقة تعامل أفراد المجتمع مع بعضـهم بعضًـا. حيـث يشـترط التعامـل مـع أناسٍ آخرين حدًا معينًا من الاعتراف المتبادل. إذا حُرم الناس من هذا الحق على الـدوام فسوف يتمرد هؤلاء الأفراد المحرومون. إذا تم إنكار ذلك عـلى شـعب، فسـوف ينـتفض ذات يوم.

قواعد فرقة "بوسي ريوت"!

تعتبر عضوة فرقة "بوسي ريوت"، الفنانة الروسية السياسية "ناديجدا تولوكونيكوفا"، نفسها ثوريةً بحق. وقد نشرت مؤخرًا الفنانة البالغة من العمر 26 عامًا "دليل الثورة": "بدأ كل شيءٍ مع يوم مولدي، الموافق يوم السابع من نوفمبر. عيد الثورة. ثورة أكتوبر 1917. كان الاحتفال بيوم مولدي يتسم بمسيراتٍ ومظاهراتٍ في عصر الاتحاد السوفيتي. كان يوم الثورة عطلةً رسميةً حتى عيد ميلادي الثاني عشر. لم يكن عليَّ الذهاب إلى المدرسة يوم مولدي وكان هذا أمرًا جميلًا للغاية. لكن في عام 2000 أصبح "فلاديمير بوتين" رئيسًا وتم إلغاء الاحتفال بيوم السابع من نوفمبر بدءًا من عام 2004. كان هذا أول ما جعلني أستاء من "بوتين". ألغى عيد ميلادي لأنه لا يتحمل كلماتٍ مثل "ثورة". ولا تروقه أيضًا كلمات مثل "شغب" Riot، لذا منعنا"[1].

كي لا ننخدع. يتميز الكتاب بأسلوبه البسيط مثل فرقة "بوسي ريوت" وهي فرقة لموسيقى "البانك". إلا أن التوجه الثوري الذي يسكن "تولوكونيكوفا" جاد.

ولا نأخذ على محمل الجد إلا ما ذكرته المؤلفة عن الفترة التي قضتها في السجن. حيث أدينت لأنها شاركت يوم 21 فبراير 2012 بـ"صلاة بانك" لفرقتها معادية لـ"بوتين" والكنيسة في كاتدرائية "المسيح المخلص" في موسكو. عاشت الشابة سنوات السجن على أنها فترة مقاومةٍ ولقاءٍ بمتمرداتٍ

1 - Nadja Tolokonnikowa, Anleitung für eine Revolution; Hanser Berlin 2016, S.39-40.

أخريات، لَسْنَ من أتباع "البانك" بـل ناشـطات.. لسـن سـيداتٍ سياسـيات بـل سـيدات يكافحن عالم الرجال القمعي. كتبت "تولوكونيكوفا": "تموت أربعـة عشر ألـف امـرأةٍ في روسيا سنويًا بسبب العنف المنزلي. ولأنهن لم يعد في وسعهن تحمل الضرب، تقتل 3000 امرأةٍ سنويًا مَن يضربهن. حان الوقت لكي أكون غير شريفـةٍ حقًـا!"[1]. تخـوض رفيقـات "تولوكونيكوفا" في السجن حربًا صغيرةً ضد الحراس ويكافحن للحصول على فرصٍ ومتـعٍ سرية وتلعب العلاقات السحاقية دورًا كبيرًا. متعة وصداقة وحرية وتضامن.

تنطوي السِيَرَ عن الثوريات على أوصاف محبسهن. وغالبًا ما يستخدمن هـذا الوقـت لممارسـة التـدريبات الرياضـية بطبيعـة الحـال، إلى جانـب مواصـلة التـدريب والـتعلم وممارسة استخدام "المصطلحات الشيوعية". بالنسبة للآخرين، يمثل هـذا الوصـف زمـن السجن لـ"جوزيف بروز" (تيتو فـيما بعـد) في "مـاريبور" السـلوفينية عـام 1928: "عـن طريق الإضراب عن الطعام، تمكن الشيوعيون... من الاجتماع في زنـازين مشـتركةٍ مـا منحهم إمكانية تحويل الزنزانة إلى مدرسة. كانوا يهربون الكتب الضرورية إلى داخـل السجن. لذا بدأ في هذا السجن وفي غيره من السجون الأخرى يتكون جيلٌ جديدٌ من القادة السياسيين... الذين تدربوا على الماركسـية بكثافـة والانشـغال بمسـائل عمليـة مثل التكتيك العسكري"، كما ورد في سيرة "تيتو" الكبيرة للمؤلـف "جوزيـه بـيرازي" Jože Pirjevec إذ يـروي المؤلـف عـن أن "تيتـو" صـار في السـجن "ثوريًـا" يمـتهن

1- المصدر نفسه السابق، ص 45.

حرفة الثورة لحدٍّ ما "كما لوحظ في سجن ماريبور. تمت كتابة عبارة "مجرم شيوعي" في خانة تدريبٍ متخصص (أي مجال تخصص)"[1].

دخلت "ناديجدا تولوكونيكوفا" بدورها في إضرابٍ عن الطعام، الأمر الذي صار بالنسبة لها تمردًا يوميًا. واستفادت من كل يوم كما كتبت فيما بعد "ولم يذهب شيءٌ سدى"[2]. فكل فعلٍ لأي فرد مهم: "مع كل حركة تضع أطرًا. وعدم اتخاذك لقرار هو شأنٌ تقره لنفسك"[3]. هذه هي الأخلاق الثورية وهي جدليةٌ بطريقتها الخاصة. كتاب "تولوكونيكوفا" مرافعةٌ شائقةٌ للغاية عن الحرية الفردية على الرغم من أنها تحمِّل كل فرد مسؤوليةً تجاه العالم. هذه الحركة الفكرية المزدوجة موجودةٌ بالفعل لدى "جان بول سارتر"[4]، وهي تجعل من كل ثوري إنسانًا سعيدًا وتعيسًا في الوقت نفسه.

الغزالة التي صارت لبؤة

مَن كان الأمر بالنسبة له مسألةً وجوديةً بديهية فحسب فهو ليس لديه مثل هذه المشكلات. مثال على ذلك "غزالة محمدي" من مدينة قفصة عاصمة منطقة الفوسفات في تونس. يعود أصل السيدة في منتصف الثلاثينيات إلى أسرةٍ ريفية مكونةٍ من ست أفراد وهي الوحيدة من بين الأبناء التي حصلت على شهادة

1- انظر كتاب: Pirjevec، ص 24-25.

2- انظر كتاب: Tolokonnikowa، ص 188.

3- المصدر نفسه السابق، ص 16.

4- Jean Paul Sartre, L’existentialisme est un humanisme; Editions Nagel, Paris 1946.

الثانوية ودرست إدارة الأعمال. روت ذات مرّةٍ: "حدث هذا أثناء الدراسة وكان ذلك عام 2002. في بيت الطلاب لا يتم منح الغرف إلا عن طريق الرَّشْوة لـذا أقمنـا فيـه مـع 34 طالبةً لمدة 15 يومًا. فحرمونا من المنحة وجمع البعض الأموال من أجلنا. وصـار لي اسـم شهرةٍ فبدلًا من غزالة صار اسمي لبؤة".

بقيت إذًا ملقبةً باسم "لبؤة"، قبل وأثناء وبعد الثورة. لم تقدر "غزالة" على فعل شيءٍ آخر، على الرغم من تعرضها للإساءة على يـد الشرطـة عـدَّة مـرات. ولأن أعـمال الظلـم مستمرة، تلك التي تثور ضدها اجتماعيًا وسياسيًا وخاصةً الذكورية، قالت: "انظر حولك مَن يجلس في مقاهينا؟ الرجال. أما النساء فيطبخن الكسكسي ويعملن مقابل أجرٍ زهيد في جمع محصول الزيتون. مقابل أجرٍ لا يمدُّ رجلٌ يـده لأخـذه". "غزالـة" امـرأةٌ ثوريـة. تدخل بثقةٍ في النفس إلى مقاهي الرجال. في النهاية هذا مجرد تقليد ولا يوجد قانونٌ في تونس يمنع المرأة من الجلوس على مقهى تفضله.

"غزالة" لا تتخذ من الثورة مهنـةً لهـا. هـذا شيءٌ مختلـف. شيءٌ غريـبٌ إلى حـد مـا. شخصٌ يعيش من أجل الثورة ومنها فحسب. يوضح كتـاب "ناديجـدا تولوكونيكوفـا" مـا إذا كانت تتخذ من الثورية مهنةً لها أم لا؟

4

مجموعة آلهة الثورة 2:

ممتهنو الثورية،

قطاع الطرق

الأناركيون اللاسلطويون

وصفت "حنا أرندت" نمط ممتهني الثورية بطريقةٍ مفاجئةٍ كالتالي: "لا تندرج قصة ممتهني الثورية في القرنين التاسع عشر والعشرين في الحقيقية سواءٌ تحت تاريخ طبقات العمال أو طبقات أصحاب الأملاك، بل تندرج تحت تاريخٍ لم يُسطَّر بعد من الكسل والغياب الفكري المُنتج"[1]. كما كتبت "أرندت" أن المصطلح نفسه خادعٌ ومُضلِّلٌ لأن هؤلاء الناس في الحقيقة لم يحدث مُطلقًا وأن اشتركوا في القيام بثورة، بل كانت الثورات تباغتهم دائمًا. "ليس صناعة الثورات، بل الانقضاض على مقاليد السلطة عند قيام الثورة، هذا هو شأن ممتهني الثورة وشغلهم الشاغل".

إلى هنا ينطبق هذا الوصف – مع بعض الاستثناءات – لكن حين تكتب "أرندت" وتقول: "يُحرر اندلاع ثورةٍ ما ممتهني الثورية المحليين من أماكن

1- Hannah Arendt, Über die Revolution; Piper, München 2014 (1963), S. 332 ff..

إقامتهم ومن السجون والمكتبات والمقاهي" يتسم الأمر بالسخرية ولكنه يصف عمل ممتهني الثورية وصفًا خاطئًا. إذ لا يقتصر عملهم في الأوقات غير الثورية كما تزعم "أرندت" على التنظير وقراءة الصحف، بل يعكف الثائر على تكوين علاقاتٍ دون كلل، أيْ أنه يعمل على تنظيم الأمور. فهو بمثابة مُنظم شبكات اتصال على أعلى مستوى. مع تحقيق نجاحاتٍ متغايرة. إلا أن حالات الإخفاق لا تعوقه عن تشدقه كما هو معروف.

يندرج نوعان تحت ممتهني الثورية: المستقرون أو المقيمون، والرُحل. يكرس المقيمون حياتهم للثورة في مكانٍ محددٍ وفي بلد بعينه. وتنتمي "لويز ميشيل" Louise Michel، تلك الشخصية الأسطورية من "كومونة باريس" أو "بلدية باريس" عام 1871، إلى هذا النوع. فقد كانت مثالًا حيًا للعمل بلا كلل.

"لويز ميشيل"، المُلقبة بـ"الأرملة الحمراء"

في الصباح الباكر ليوم الثامن عشر من شهر مارس عام 1871، استيقظ سكان حي "مونمارتر" الباريسي على أصوات وقع أقدام قواتٍ زاحفة؛ حيث أراد بعض الجنود الاستيلاء على مدافع الحرس الوطني الباريسي. يبدأ بهذا المشهد أحد أكثر فصول تاريخ الثورة الفرنسية دمويةً.

يتلقى هؤلاء الجنود أوامرهم من "أدولف تيرس" Adolphe Thiers، ذلك السياسي المحافظ (كما تكمن سخرية القصة أيضًا في أنه مؤرخٌ ثوري) الذي يترأس حكومةً انتقالية في "فرساي". وكانت فرنسا قد استسلمت لتوِّها أمام

بروسيا في اتفاقات صالة المرايا بقصر "فرساي"، الأمر الذي لم يتفق ورغبة شعب باريس الذي ساهم بقوات الحرس الوطني التابعة له في الدفاع عن المدينة أكثر من إسهام القوات الحكومية. وكانت باريس في ذلك الوقت مدينةً ذات توجهٍ جمهوري تُشكل فيها الطبقة العاملة الكادحة في كثير من الورش الصغيرة عُنصرًا سياسيًا قويًا. تلك الطبقة التي اتفقت مع البرجوازيين الليبراليين على ما يلي: بعد إسقاط الإمبراطورية الثانية يجب أن تنشأ جمهوريةٌ مُكافحِةٌ وديمقراطية واجتماعية لا تقبل أن تتلقى أوامر من البروسيين.

قوات الحرس الوطني التابعة لباريس المتمردة والواثقة بذاتها تحديدًا هي ما أراد "تيرس" أن يجردها من أربعمائة مدفع ثقيل، منها مائة وسبعون مدفعًا متمركزًا في حي "مونمارتر". فالمدافع تمثل رمز سلطةٍ لم يرغب في تركه في يد المدينة الثائرة.

اعترض أحد حراس نقاط التفتيش التابعة لحرس باريس الوطني طريق جنود "تيرس" وهددهم بحربة، فأردوه أرضًا بعد أن أطلقوا عليه الرصاص. عندئذٍ انتشر الخبر التالي انتشار النار في الهشيم: "إنهم يطلقون النار على الشعب!".

هنا ظهرت امرأةٌ في مسرح الأحداث وأرادت أن تقدم الإسعافات الأولية للجندي المُصاب إصابةً بالغة وطالبت قائد القوات الحكومية بضرورة نقل المصاب إلى أقرب مستشفى على الفور. إلا أن الضابط ترك الرجل ينزف حتى الموت بين يدي تلك السيدة التي تُدعى "لويز ميشيل".

عندئذٍ اجتاح الشعب الشوارع وأجبر الجنود على التراجع حتى أن بعضهم غير الجانب الذي ينتمي إليه. وقُتل اثنان من الجنرالات. تصاعدت الأحداث وتولى الحرس الوطني السلطة في المدينة مؤقتًا، ثم أُجريت انتخاباتٌ محليةٌ لتُعلن بلدية باريس لاحقًا استقلالها سياسيًا وطالبت بتشكيل حكومة مجالسٍ للعدالة الاجتماعية. وجاءت أولى القرارات للحكومة لتعلن فصل الكنيسة عن الدولة (الأمر الذي تضمن استبعاد كافة الصلوات والرموز والصور الدينية من المدارس). فضلًا عن منع العمل ليلًا في المخابز، وإعفاء المحتاجين من الديون لمدَّةٍ محددة وحظر بيع الأغراض المرهونة في بيت التسليف بالمدينة، إلى جانب منح العمال الحق في مواصلة إدارة المؤسسة التي تنازل عنها مالكها (مع ضرورة تعويض المالك في المقابل). كما أُلغي استخدام المقصلة رسميًا وتم تحطيم ساري نصر "نابليون" الكائن في ميدان "فندوم" بوصفه تجسيدًا للشوفينية القومية.

وجد الأناركيون الاجتماعيون من بين الأشخاص المنتخبين في "بلدية باريس" بداية ثورةٍ في البلاد بأكملها. ظلت تلك الكومونة الباريسية كائنةً طوال عشرة أسابيع حتى داهمتها قوات "تيرس" بوحشية شديدة وهزمتها في الأسبوع الأخير من شهر مايو. الأمر الذي خلَّف ثلاثين ألف قتيل. كانت تلك أكبر مذابح أوروبا في القرن التاسع عشر[1].

1- John Merriman, Massacre.. The Life and Death of the Paris Commune; Basic Books, New York 2014, S. ix

كانت "لويز ميشيل" تعتبر "كومونة باريس" حدث حياتها.

ولدت "لويز ميشيل" في العام الثوري 1830 دون أن يتزوج والداها ولكنها قضت طفولةً سعيدة مع أمها وباقي أفراد العائلة الذين يعيشون في سَعَة عيشٍ متواضعة. حيث اتسمت الأسرة بالتنوير والاطلاع وكانوا من قراء "فولتير". وهكذا أخذت "لويز" تُجرب بعض الأفكار الجريئة.

ذات يوم، أعلنت "لويز" أمام شهود حبها للشيطان، الذي لم يظهر رغم ذلك. "عندئذٍ فكرت في أنه لا وجود له"[1].

درست "لويز" بالجامعة وحصلت على دبلومة المعلمات إلا أنها رفضت أداء القسم للإمبراطورية وأسست وهي في سن اثنين وعشرين عامًا مدرسةً خاصة صغيرة في الريف الذي كان فكر الجمهورية وروحها يعصفان به، الأمر الذي لم يظل خافيًا على السلطات. ولكن كيف أصبحت فيما بعد تلك المرأة الثائرة "الأرملة الحمراء" أو كما يطلق عليها أعداؤها "الساحرة الشريرة"؟

انتقلت "لويز ميشيل" إلى باريس وعملت مديرةً لإحدى المدارس وبدأت تتراسل مع "فيكتور هوجو" الذي تأثرت بتوصيفاته لفقر الطبقات المحرومة وثوراتهم، فانخرطت في العمل من أجل حقوق النساء العاملات بالمدينة وكتبت للصحف اليسارية. زادت نقاشاتها في باريس من تطرفها أكثر فأكثر. وقد وصفت في أول مجلد من يومياتها مثلها الأناركي الأعلى كالتالي: "العقد الحر

1- Louise Michel, Mémoires, La République des Lettres, E-Book; Paris 2012, pos. 282

دائم التغير وقابلٌ للحل، بوصفه مبدأً للعلاقات الإنسانية، بـدلًا مـن الوصـاية القانونيـة والحكومية والانضباط المفروض"[1].

في يناير عام 1870، أطلق أحد الأمراء من عائلة "بونابارت" الرصاص عـلى الصـحفي "فيكتور نوار" Victor - Noir. وكان "نوار" قد ساند أحد الناشرين الناقدين في مبـارزةٍ مع الأمير. تفجرت مشاعر الغضب في باريس الجمهورية حتى وصلت الأمـور إلى انـدلاع مظاهراتٍ حاشدة. وفي الثاني عشر من شهر يناير، ظهرت "لـويز ميشـيل" مـع كثـير مـن رفاق الفكر في جنازة "نوار"؛ وقد تنكرت في زيٍّ رجلٍ وحملت بين طيَّات ملابسها خنجرًا وظلت تنتظر حتى يجتاح الآخـرون قصر "الإليزيـه" بعـد سـماع الإشـارة. إلا أن هـذا لم يحدث. ولكن "لويز ميشيل" ظلت تحلم بإسقاط هذا النظام. بينما تنقسم حياتها بـين التدريس والقراءة والأنشطة الخيرية والأعمال الأناركية.

لكن "لويز ميشيل" تحلم الآن بالإسقاط. تنقسم حياتهـا إلى تعلـيم وقـراءةٍ وأنشـطةٍ خيرية وأعمالٍ أناركية.

كانت "لويز ميشيل" في أيام "كومونة بـاريس" تقـف عـلى قـدميها طـوال اليوم وعلى مدار الساعة تقريبًا. فهي تريد تأسـيس مدرسـةٍ للأطفـال الأيتـام وترعــى الجرحــى، وتنطلــق وحــدها إلى قصر "فرســاي" كي تقتــل "تــيرس".

1- المرجع السابق ص 5065.

وقد تمكنت من التوغل في المدينة لأنها كانت ترتدي ملابس راقيةً إلا أنها لم تتمكن من الاقتراب بشكلٍ كافٍ من الرئيس[1].

عندما هاجم "تيرس" البلدية بوحشية وراح يطلق الرصاص على كل شيءٍ يتحرك، وقفت "لويز" حتى النهاية المُرَّة فوق المتاريس. وبمعجزة، ظلت على قيد الحياة لكي تمثل لاحقًا أمام القضاء، وتحول القضية إلى محاكمةٍ ثورية. هذا بدوره يُعد عنصرًا كلاسيكيًا للسير الذاتية الثورية؛ إن المحاكمة بالنسبة للثائر بمثابة فرصةٍ أخرى لاتهام المستبدين. هذا في حدٍّ ذاته هدفٌ وليس محاولة للحصول على حكمٍ مُخففٍ، وهو ما سعى الاشتراكيون إلى ترسيخ أهميته لاحقًا في العشرينيات. لقد تُرك الأمر للستالينية كي تُبطل هذا المبدأ، في محاكمات موسكو الاستعراضية من عام 1936 وحتى عام 1938 اعتبر الكثير من المتهمين أنه من واجبهم بوصفهم اشتراكيين الاعتراف بكل ما يثقل كاهلهم.

عودة إلى "لويز ميشيل"، تلك المرأة ذات المظهر القاسي والنحيلة المتشحة بالسواد لأن حبها الكبير سقط قتيلًا رميًا بالرصاص في أحداث ردود الأفعال، طالبت القاضي بما يلي: "نظرًا لأن الأمر يبدو وكأن كل قلب ينبض بالحرية ليس له الحق سوى في شيءٍ من الرصاص، لذا أطالب بنصيبي منه أيضًا. وإذا كنتم ستدعونني أعيش فلن أكفَّ عن الصراخ لأجل الانتقام"[2]. ولكن

1- Merriman, a. a. O., S. 107f.

2- Pierre Milza, L'annéeterrible; Perrin, Paris 2009, S. 436.

المحكمة التي كانت قد أصدرت بالفعل الكثير من أحكام الإعدام لا تريد أن تجعل من "لويز ميشيل" شهيدةً لذا نفتها إلى "كاليدونيا" الجديدة الكائنة في جنوب المحيط الهادئ بأحد معسكرات الاعتقال، لتدعم هناك ثورةً للمرضى.

عادت "لويز" عام 1880 مرةً أخرى إلى باريس بعد أن حصلت على عفو. وما إن يمر اثنا عشر يومًا على عودتها حتى تلقي خطبةً أمام حشدٍ من ألفي شخص[1]. وتواصل دعايتها الأناركية التي لا يقطعها أحيانًا سوى فترات حبسٍ ووقتٍ قضته في المنفى بلندن. وحين يطلق عليها أحد المختلين عقليًا الرصاص ويصيبها فهي تدافع عنه في المحكمة وتحصل له على حكمٍ بالبراءة وإخلاء السبيل.

يتناول الجزء الثاني المنشور من مذكراتها هذه الفترة الزمنية. حيث نجد مخطوطًا جديرًا بالملاحظة عن "دوي فان" Doi Van، قائد الفلاحين الفيتنامي واللص والقرصان، من منظورٍ استعماري فرنسي نشأ في مارس عام 1889، وسرعان ما تحول التعامل معه بشكلٍ جذري حتى قطع الفرنسيون رأسه في نوفمبر من العام نفسه. كتبت "لويز ميشيل" في هذا الصدد تقول: "لقد أراد تحرير بلاده من المتطفلين عليها الذين يسعون وراء ثرواتها ويسرقون شعبها. إذ يخاطر بحياته أولًا في سلوكٍ بطولي ويكافح ثم يستعلم عن قوات العدو وأساليبه القتالية بادعائه خضوعًا مزيفًا له. وبعد أن رأى "دوي فان" ما كان يريد رؤيته، عاد إلى طبيعته وتولى أمر الثورة ثانيةً. لذا رصد الفرنسيون مكافأةً

1- Thankmar von Münchhausen, 72 Tage. Die Pariser Kommune, 1871– die erste "Diktatur des Proletariats"; DVA, München 2015, S. 445.

لمـن يرشـد عنـه. وحـدهم الخونـة هـم مَـن أوقعـوا بـه فـتم القـبض عليـه. وقـد فـاق الفرنسيون أساليب تعذيب الآسيويين ليثبتوا بذلك ذكاء الأمم المتحضرة في المقـام الأول. فقطعوا رأسه بعد أن قرعت الأجراس ثلاث مرات، وحملها كلب أحد الفرنسيين وأعادها إلى هانوي. وإذا لم تنتشر الثورة انتشارًا واسعًا فسوف تمتد مثل هذه الأفعـال الوحشـية في المستعمرات كافة"[1].

يتضح هنا أمران؛ تعود "لويز ميشيل" لتنظر إلى المصير الفردي وليس فقط إلى الكـل المتكامل للثورة. وأصبحت تستقبل الأمور بوجهة نظـرٍ دوليـة ومناهضـةٍ للاسـتعمار. في الوقت نفسه هي فرنسيةٌ مثل وعاءٍ فوق النار. أيْ أن ميدان حربها هو باريس. ولا شيء يمكنه إيقافها عن العمل دائمًا وأبدًا من أجل الثورة الأناركية الاجتماعية في فرنسا.

"باكونين".. الرحالة الحائر

"ميخائيل باكونين" Michail Bakunin، الذي كان قد شارك في تمـردٍ بمدينـة "ليـون" قبل ستة أشهر على إعلان "بلدية باريس"، هو نمطٌ مختلـف كليـةً عـن "لـويز ميشـيل" المعاصرة له زمنيًا وفكريًا. إذ كان "باكونين" هو الثوري البدوي بامتياز.

1- Louise Michel, À travers la mort; La Découverte, Paris 2015, S. 216.

كان هذا الأناركي العملاق يظهر في منتصف القرن التاسع عشر بشكل موثوقٍ بـه في كل مكان وُضعت به متاريس في أوروبا. حيث كان يقاتل ويأمر ويشرب ويلتهم الطعـام وهو يحتقر العادات البرجوازية (السبب الذي جعل زوجة "ريتشارد فاجنر" "مينا" ابنـة مدينة "دريسدن" النبيلة تعتـبره رجـلًا روسـيًا فظًـا ومقـززًا). إلا أنـه كـان يلقـي خُطبًـا ويناقش كل شيء أسفل الطاولة. فقد صحته في السـجون دون أن يفقـد طاقتـه الثوريـة (تقريبًا). لم يُخلف "باكونين" للعالم وراءه نظريةً ولا حتى وجهات نظر، ولكنه ترك بعض الصياغات الناجحة مثل: "إذا كان الـرب موجـودًا يكـون الإنسـان عبـدًا؛ ولكـن الإنسـان يمكنه أن يكون حرًا وينبغي أن يكون كذلك؛ بناءً عليه، فإن الرب غير موجود"[1]. إلا أننا سنظل نتذكر لفترةٍ طويلةٍ للغايـة إبداعـه ورغبتـه في التـدمير التـي لا تنضـب والقابلـة للاشتعال دائمًا. وكان ينقصه "الدافع للسلطة والسـيادة"، وفـق مـا كتبتـه مؤلفـة سـيرته الذاتية والمؤرخة والأديبة "ريكاردا هوخ" Ricarda Huch: "وكان أكثر ما يهمـه هـو أن ينعم بالحياة، وإن أمكن الحياة بأكملها دون عوائق. كان هذا ما يميزه وهكذا بقـي. أيْ أنه ببساطةٍ كان شاعرًا أو إنسانًا أو يمكننا القول إنه كان طفلًا"[2].

1- Michail Bakunin, Gott und der Staat; Karin Kramer, Berlin 2013, S. 5

2- Ricarda Huch, Michael Bakunin und die Anarchie; Suhrkamp, Frankfurt/M 1972, S. 148

"تشي جيفارا".. شخصيةٌ تراجيدية

ينتمي "إرنستو تشي جيفارا" هـو الآخـر إلى جماعـة الثـوريين الرُحَّـل المتنقلـين بكـل تأكيد، على الرغم من أن هذا النوع - إن كـان قـد اختـار مكانًـا في المقـام الأول - يـلازم مكانه بعد ذلك مُفضِّلًا ألا يستسلم، إلى أن يترسَّخ الانتصار (كوبا) أو تصبح الهزيمة أمـرًا واقعًا (الكونغو). لم يكـن "جيفـارا" مـع ذلـك دُميـةً تتحـرك وفـق إلهامـه الخـاص مثـل "باكونين"، ولم يكن طفلًا بالطبع.

وجَّهت صورة "جيفارا" المستوحاة من الثقافة الشعبية الأنظـار في مرحلـةٍ مبكـرة إلى شخصيته الحقيقية. إذ كان الرجل الذي يصـورونه حاليًـا وكأنـه المسـيح، الـذي حَمَلْـتُ صورته على لافتات في الأرجاء يومًـا مـا، شخصـيةً تراجيديـة في الواقـع. صـحيح أن حبـه للحرية هو ما كان يدفعه أيضًا، لكنه أنشأ - بمطلـق الأحـوال - مُعـتَقَلًا لمعـارضي الثـورة بعد انتهاء الثورة الكوبية، ووقَّع أحكامًـا بالإعـدام، وأقحـم الزراعـة والصـناعة في نظـام قيادةٍ عسكري، وأشاد بالرفيق "ستالين".

وافق "فيدل كاسترو" في مـايو عـام 1962 عـلى نشر صـواريخ باليسـتية سـوفيتية عـلى أراضٍ كوبية، وذلك بعد محاولة الولايات المتحدة الأمريكية التدخل عسكريًا في كوبا. حاول الجواسـيس إخفاء أمر هذه الصفقة، ولكن النزاع بين الولايات المتحـدة الأمريكيـة والاتحـاد السـوفيتي هـدَّد بقيـام حـربٍ نوويـة. فحـبس العـالم أنفاسـه (واشـترت أمـي مُعلَّبـات الفاصـولياء والحليـب

المُكثَّف وشرائح الخبز المُحمَّص)، إلى أن توصلت واشنطن وموسكو إلى الاتفاق على إزالة الصواريخ مقابل إخراج صواريخ الولايات المتحدة الأمريكية من تركيا. غضب كل من "تشي" و"فيدل"؛ لأن موسكو لم تستشرهما قبل عقد الصفقة. لكن سرعان ما توصَّل "كاسترو" إلى تفاهمٍ مع قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي KPdSU من جديد؛ لأنه أدرك بجلاءٍ أن الاتحاد السوفيتي هو وحده الذي سيحميه من الولايات المتحدة الأمريكية. فماذا تبقى له إذًا سوى القتال إلى جانب الاتحاد السوفيتي؟ أعلن "كاسترو" في أبريل عام 1963، بعد رحلةٍ إلى موسكو، إيقاف برنامج التصنيع السريع الذي كان "جيفارا"، وزير الاقتصاد، يتولاه حينها، وصرَّح أن التركيز سينصب على إنتاج السكر بدلًا من ذلك. إذ أصبح لديه الآن مُشترٍ بالجملة يتمثل في الاتحاد السوفيتي. لكن "تشي جيفارا" انتابه الغضب.

رأى وزير الاقتصاد، الذي تعرض للخزي، كوبا تنزلق لتقع تحت سيطرة قوةٍ عُظمى مرةً أخرى. لذلك جاب "تشي" العالم باحثًا عمَّن يشاركونه الأفكار، كما بحث عن حلفاء من أجل إذكاء الثورات في أفريقيا، لكنه كان دائمًا يفشل. ألقى "جيفارا" خطابًا يوم 24 فبراير عام 1965 في الجزائر العاصمة، انتقد فيه الدول الاشتراكية علانيةً لمشاركتها في استغلال العالم الثالث. ثم بدأ حين عاد إلى هافانا في إبداء تعاطفه مع الماويين بالصين، في معارضةٍ صريحةٍ لـ"كاسترو". وهكذا بات انقطاع الصلة بين رفيقي الكفاح أمرًا محتومًا. لكنهما تجنبا النزاع علانيةً، وتوجَّه "تشي" بدلًا من ذلك إلى الكونغو، ليُشعِل الثورة

هناك، لكن دون جدوى. كانت محاولته لإشعال الثورة في بوليفيا مأساويةً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. إذ قُتِل هناك الثائر الأسطوري يوم 9 أكتوبر عام 1967، أيْ قبل حوالي 50 عامًا من الآن.

يُعد كتاب "جيفارا" "يوميات بوليفيا" موضوعًا حزينًا للمُطالعة. فهو يتناول بالوصف المداهمات الصغيرة والمشاكل اليومية لمجموعةٍ تتكون من نحو أربعة وعشرين من الخارجين عن القانون، الذين اكتسبوا معاشهم بطرقٍ ملتوية ولم يتمكن المواطنون من فهمهم على الإطلاق. كما كان حال الجماعة الأولى من الساندينيين في نيكاراجوا، فشلت إستراتيجية "جيفارا" القائمة على تأسيس "بؤرةٍ" ثورية مُسلَّحةٍ في بادئ الأمر، تحتشد حولها الجماهير فيما بعد، إذ لم تكن الجماهير مهتمةً ببؤرة كتلك. رأى "جيفارا" أن الأمر لم يتناسب معهم. ويحتوي الكتاب على براهين تكشف عن انعدام ضميرٍ مُطلق، فقد ورد الآتي على سبيل المثال في نصٍ بتاريخ 31 مايو عام 1967: "تأتي الآن المرحلة التي سيمارس فيها الطرفان الإرهاب ضد الفلاحين، حتى وإن اختلفت الكيفية. فانتصارنا سيستلزم تغييرًا نوعيًا وحتميًا من أجل طفرة التطور الخاصة بهم كنتيجةٍ له"[1].

حسنًا، بإمكان هؤلاء الفقراء الريفيين أن يفرحوا إذًا. ثائرٌ يفرض المستقبل على مَن يعيشون في الحاضر، كان هذا "تشي جيفارا"، ممتهن الثورة

1- Ernesto Che Guevara, Bolivianisches Tagebuch; Kiepenheuer & Witsch, Köln 2008, S. 187

التراجيدي الذي قطع الطريق بدايةً من الإنسانية وصولًا إلى الفلسفة التشاؤمية (حيث تنعدم الثقة في المنظمات وجوانب المجتمع المختلفة).

التشاؤمية. تعرفتُ بمرور الوقت إلى ممتهني ثورات مختلفين إلى حدٍّ بعيد، مثل موظفي "الأباراتشيك" قساة القلوب والماكرين بالحزب الشيوعي الألماني DKP، حيث كان يُطلَق هناك على موظفي الكادر المدفوع لهم "موظفون بدوامٍ كامل"، وهي صيغةٌ بيروقراطية ذات معنى. على الرغم من ذلك، يُصنَّف أيضًا ضمن أفراد هذا "الجهاز" - الذي تناسبت معه تسميته على نحو ملائم - الرفاقُ القدامى السالف ذكرهم الذين حرَّكتهم كراهيةٌ مبررةٌ حياتيًا تجاه النازيين، نقلوها إلى النظام الاجتماعي بالجمهورية الاتحادية. كان بإمكانهم على أية حال الإشارة إلى أن نازيين سابقين - من بينهم هؤلاء الذين انتموا للقيادة أيضًا - تقلَّدوا مناصب مهمةً في جمهورية ألمانيا الاتحادية الناشئة. لكنهم قمعوا تحيُّز الاشتراكية على نحوٍ لا يمكن إنكاره، وهو ما لم يجده الغالبية أمرًا صعبًا على الإطلاق، لأن غضبهم استنفر طاقةً نفسيةً تكفي لتحقيق هذا الإنجاز أيضًا. فهل كانوا من أتباع الفلسفة التشاؤمية؟ أم كانوا ببساطةٍ فاسدين وحسب؟

تعرَّفتُ فيما بعد إلى ممتهني ثوراتٍ مستقلين عن الأحزاب، كرَّسوا حياتهم لفكرة وطوَّعوا كل شيء، بما في ذلك عملهم الذي يتقاضون عليه أجرًا، من أجل هذا الهدف. هناك على سبيل المثال إيطالي عجوز مؤمن بفلسفة الأناركية اللاسلطوية، كان في الأصل عضوًا بمجموعة عملٍ مكونةٍ من

العُمَّال ومتعاطفًا مع منظمة الألوية الحمراء الإرهابية وهي منظمةٌ شبه عسكرية يسارية. انتقل هذا الرجل إلى باريس، كي يعمل هناك بين المهاجرين دون أوراق الذين يُعرفون باسم Sans-Papiers، وكي يُقدِّم الدعم والتنظيم للمهاجرين الذين لا يملكون تصريحًا بالإقامة، ويدفعهم للاهتياج. عمِل صباحًا في مطبعةٍ لبطاقات العمل، في حين كانت اللقاءات تُعقَد مساءً، أو كان يَكتب حينها المنشورات ويطبعها بالتعاون مع المهاجرين غير حاملي الأوراق.

"عبد الحفيظ بن عثمان"..

مجرم، ومتمرد، وكاتب

هناك أيضًا صديقي "عبد الحفيظ بن عثمان" الذي كان كاتبًا. لكن هل كان ممتهن ثورة أيضًا؟ ليس تمامًا. لكنه كان متمردًا طوال حياته وممتهن إجرامٍ في الأصل.

ترك "حفيظ"، الذي ولِد ابنًا لمهاجر جزائري، المدرسة حينما كان عمره 15 عامًا فسَرَق واقترف جرائم سطو وانتهى به الحال بدخول السجن للمرة الأولى حينما كان عمره 16 عامًا، وتحديدًا إصلاحية بلدية "فلوري مِروجيس" Fleury-Mérogis سيئة السمعة. ما زال مجمع المباني الذي يقضي فيه السجناء البالغون عقوبتهم أيضًا حتى يومنا هذا مصدرًا للجريمة

وخصوصًا الجهادية. تحوَّل "حفيظ" هناك إلى مجرم؛ إذ سطا بعد إطلاق سراحه على متاجرَ فاخرةٍ وعلى بنك في إحدى المرات أيضًا. وأُطلق على ما يفعله "إعادة توزيع". واجه الجاني الذي كان يعود للجريمة مرارًا وتكررًا تهديدًا بالترحيل إلى الجزائر عام 1994. فهرب من السجن، وبدأت سلسلةٌ أخرى من الأعمال الإجرامية والإدانة وحالات الهروب الجديدة.

تعلَّم أثناء الوقت الذي قضاه بالسجن والذي وصل إلى 13 عامًا في المجمل من خلال الدراسة عن بعد كيف يكتب قصصًا وروايات تتناول الواقع داخل مناطق الجيتو وداخل السجون[1]. حققت كتبه نجاحًا، لكنه لم ينتقل ببساطةٍ إلى عالم الطبقة المتوسطة. وإنما أدار بدلًا من ذلك جريدة للسجن[2]، وسجَّل أيضًا برامج إذاعيةً لمحطة إذاعية أناركية، يتحدث فيها السجناء عن الواقع القاسي داخل السجون الفرنسية. هذا بالإضافة إلى برامج أخرى لا يتحدثون فيها بوصفهم مجرد أشخاص يشعرون بالمعاناة وحسب، وإنما يتحدثون كأعضاء فاعلين أيضًا وثائرين، وهاربين من السجن. حظي "حفيظ" بعلاقة صداقةٍ جيدة مع أسرة أخوين أبقيا البلاد في حالة من الترقب بفعل عمليات هروبهما المدهِشة، أعرفُ أحد هذين الأخوين أيضًا. كان قد تصدَّى للمعاملة المُهِينة داخل السجون باستخدام الوسائل التي تجلَّت له. شكَّل العنف أحد هذه الوسائل، لكنه لم يكن الوسيلة الوحيدة؛ إذ ربح أيضًا

1- خصوصًا الروايات الصادرة لدى دار نشر Ed. Rivages في باريس:

Les Forcenés (2000), Marche de nuit sans lune (2008), Eboueur sur échafaud(2009).

2- متوفرة حاليًا كموقع: http://lenvolee.net/

دعوى قضائية أمام المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان. فبدت الصورة النمطية لمتهن الإجرام مختلفة.

رافقتُ "حفيظ" يومًا ما أثناء محاولته التدريب مع أطفال جيتو من باريس على مسرحية ثورية كتبها. كان اسم المسرحية "أدب الجماهير"، ودارت حول قرية تعاني من الجوع في إسبانيا، رفضت دفع الضرائب للملك. فأرسل الملك لهم قائدًا حربيًا، فأزهق الفلاحون الجائعون روحه وقاموا بشوائه على السيخ. تبدلت أجواء المسرحية بين الجدية والسخرية، وبالتالي لم يكن أداؤها بسذاجة أمرًا واردًا. طرح "حفيظ" على الشباب أسئلةً بخصوص المحتوى وجعلهم يحفظون فقراتٍ عن ظهر قلب وأوضح لهم كيف يتحركون على خشبة المسرح. فهل فهموا المغزى الثوري للمسرحية؟ لقد استوعبوا على الأقل وجود تقسيم بين الأسفل والأعلى في مكان آخر أيضًا، إذ كانوا يعيشون في "سيفران"، أحد مراكز اضطرابات عام 2005، التي لا تزال حتى يومنا هذا مسرح أحداثٍ لهجمات الشباب على الباصات وسيارات الشرطة. "سيفران" بلديةٌ فقيرة، لذلك فمَن يذكر اسم "سيفران" على طلب التقدم لوظيفة الخاص به، يمكن أن يُلقى في سلة المهملات أيضًا.

لم يُسفر المشروع عن شيء. إذ كان الأمر برمته مُضنيًا جدًا لأطفال الجيتو، الذين كانت حياتهم العادية في نهاية الأمر شاقةً بما فيه الكفاية. تدرَّب "حفيظ" على مسرحيته في دارٍ للمسنين في نهاية الأمر. وكان لا يزال لديه كثيرٌ من المشاريع الأخرى كلها سياسيةٌ وأناركية وثورية بمعنى أنها

روَّجت لفكرته حول مجتمعٍ دون مجرمين أو سجون، ودون عملٍ مُحـدَّد الأجـر أو رأس مال، ودون تعصُّب أو كنائس. لكن "حفيظ" وافته المنية عام 2015 إثر سكتة قلبية، من المحتمل أنها كانت عاقبةً متأخرة لنقص الرعاية الطبية في السجن.

كان هذا "حفيظ"، صديقي الكاتب والمتمرد الأبدي وأيضًا "حفيظ" المجرم.

تتسم الحدود بين الحياة الثورية والإجرام بكونها متشابكة.

ينتهي كلاهما إلى نقطةٍ واحدة، حيث يُجـرَّم النشـاط الثـوري، حتـى وإن كـان الأمـر محض دعاية. هكذا أُدِين شيوعيون عـدَّة مـراتٍ بعـد حظـر الحـزب الشـيوعي الألمـاني KPD عام 1956، لأنهم نشروا كتابات حزبهم الذي لم يعد قانونيًا. كان انتهـاك القـانون في هذه الحالات مجرد أثرٍ جانبي للعمل السياسي. يأتي انتهاك القانون المتظـاهر كحالـةٍ ثانية من ناحية أخرى، ويمكن أن يتمثل في حـالات المحـاصرة واحـتلال الأمـاكن العامـة، التي تتسم بها إلى حدٍّ كبير كل الحركات الاحتجاجية الكبيرة في ألمانيا.

هناك أيضًا عمليات النهب، فقد شاركتُ في إحدى هذه العمليات في عيد الميلاد عام 1968. سرقنا لعبةً وبضائع أخرى من متاجر كبيرة، وحاولنا توزيعها على المارَّة في وسط مدينة "هامبورج" أثناء إنشاد أغاني عيد الميلاد. رأينا أن هذه الفكرة جريئةٌ ولا بأس بها؛ فهي تؤكد على تحميل المسؤولية للمِلْكِيَّة الفردية المتسببة في البؤس المنتشر في العالم. كانت تلك صبيانيةٌ هوجاء، لكن هل كانت حقًا بريئة؟

حسنًا، كانت خصومات عيد الميلاد في كل الأحوال هي ما دعَّم انتهاكنا للقوانين، لا اعتقادنا بأن كل شيءٍ مباح. لكننا تصوَّرنا أننا مسؤولون شخصيًا عن اتخاذ القرار بشأن ما كان مباحًا وما كان ممنوعًا. ليست العدالة أو دولة القانون مسؤولتين عن ذلك، بل نحن. ظلت سرقة كتب "ماركوز" و"لوكاش" وأيًا كانت أسماؤهم جميعًا لفترةٍ طويلةٍ مسألةٌ تتعلق بالشرف بالنسبة لنا نحن التلاميذ اليساريين الراديكاليين (بشرط ألا تكون السرقة من المكتبات اليسارية). لهذا لم أعد أرى أيَّ غضاضةٍ في كون الحزب، الذي انضممت إليه لاحقًا، يلجأ إلى طرق تمويلٍ غير قانونية.

تتسم الأيديولوجيات الثورية بأنها تحرر معتنقيها من النظام المعياري للمجتمع. ويمكن لهذا أن يصل إلى الاعتقاد بأن الصورة الذاتية الثورية تشمل أن يكون الثوري خارجًا عن القانون، كما يصل الأمر في الواقع إلى إضفاء سِمةٍ تخريبية على كل جريمةٍ بوجهٍ عام. "هؤلاء الذين يتوقعون من

الإجرام إذلالًا أقل ومنافع أكثر من خدمات التنظيف لا يتخلون عن سلاحهم، وحتى السجن لن يغرس فيهم حب المجتمع"، هذا ما ورد في منشور عن "الثورة الوشيكة"، تسبب في إحداث قليلٍ من الضجة بفرنسا قبل عدة سنوات[1]. لكن الأمر الأفضل من العيش ببساطةٍ اعتمادًا على الأعمال الإجرامية هو "الاستقلال، الذي قد يعني أيضًا أن يتعلم الشخص كيف يتعارك في الشارع، وكيف يستولي على المنازل الخاوية، وأن يتعلم ألا يعمل، وأن يحب نفسه بجنون، وأن يسرق من السوبر ماركت"[2].

تظهر شخصية رجل العصابات الثوري في التاريخ مرارًا وتكرارًا. وكان "باكونين" مولعًا بهذه الشخصية. كما احتوت أوروبا عند بداية القرن العشرين على كومونات أناركية لاسلطوية، تعمل على نحوٍ جماعي وتعتدي على الممتلكات على نحو مُشترَك أيضًا. كانت عصابة "بونو" الباريسية أو Bande à Bonnot العصابة الأشهر، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى قائدها "جول بونو" Jules Bonnot. وهي العصابة الأولى - بالمناسبة - في التاريخ الجنائي التي استخدمت السيارات للهرب بعد السطو على البنوك.

رأى "بونو" وشركاؤه في الجريمة في عمليات السطو المسلح، التي تتضمن حالات قتلٍ أيضًا، طريقةً مشروعةً لنزع الملكية عن الطبقة المتوسطة. وصاغوا لأنفسهم - بسبب افتقارهم لموقفٍ ثوري - موقفًا يستطيعون فيه تحقيق

1- Comité invisible, L'insurrection qui vient; La Fabrique, Paris 2007, S. 10.

2- المرجع السابق، ص 26

حلمهم بحياةٍ تخريبية. عرف الاشتراكي الأناركي "فيكتور ميريك" (1876 – 1933)، الذي كان صحفيًا موهوبًا، هذا الوسط جيدًا ووصفه عام 1926 في كتابه المشوق الذي يضم تحقيقاتٍ صحفيةً ويحمل عنوان "العصابات المأساوية" Les bandits tragiques. وقد لخَّص دوافع عصابة "بونو" في الكلمات التالية: "أراد البؤساء أن يعيشوا، أرادوا أن يعيشوا الحياة بكل ما فيها، لا سيما بكل الوسائل"[1] مثل "ميخائيل باكونين"، و"فيكتور سيرج".

كان لدى "فيكتور سيرج" هو الآخر اتصال بعصابة "بونو" لأن مُنظِّرها واسع الاطلاع وخبير المفرقعات بها "ريمون كالمان" (المُلقَّب بـ"ريمون العلم" Raymond-la-Science لشدَّة حبه للقراءة والعلوم) كان أحد أصدقائه المقربين. بل إن "سيرج" منح أفراد العصابة مخبأً حينما كان رجال الشرطة يطاردونهم، لكنه رفض أساليبهم. ولم يكن رفضه نابعًا من الامتثال للقوانين، وإنما لأنه استشف في أساليبهم نوعًا من "الانتحار الجماعي" للاسلطوية.

أطلقت العصابة النار على حارسٍ يافعٍ يوم 20 ديسمبر عام 1911، فساد الغضب أنحاء البلاد. لكن تعليق "سيرج" على المقالات الصحفية المنشورة جاء مشابهًا تمامًا لما كان صديقي "حفيظ" ليقوله أيضًا: "القوانين التي يحترمونها تُستَخدَم لتضييق الخناق على الفئات الأضعف... هذا الاحترام (المزعوم) لحياة البشر، الذي يتحدثون عنه بشكلٍ حتمي بعد

1- Victor Méric, Les bandits tragiques; Simon Kra, Paris 1926, S. 9

كل جريمة قتلٍ هو مِراءٌ وقِحٌ لأن جرائم القتل تُرتَكَب باسمه عن طريق الجوع أو العمل أو الإذلال أو السجن! أنا أنتمي إلى الجانب الآخر، ولا أخشى الاعتراف بذلك. أنا مع رجال العصابات الخارجين عن القانون"[1]. وهكذا تعرض للاعتقال.

نجحت الشرطة في آخر الأمر في القضاء على العصابة. فخضع الأعضاء الناجين للمحاكمة. أُسقِطَت التهمة المُوجَّهة ضد "سيرج" بسبب اشتراكه في الجريمة، لكنه سُجِن لمدة خمس سنوات، في سجن "لا سانتي" سيئ السمعة في باريس من جملة سجونٍ أخرى والذي يجثم كأخطبوطٍ عملاق رمادي وبني عند الحافة الجنوبية للمدينة. احتُجِز "عبد الحفيظ بن عثمان" في هذا السجن أيضًا بعد ذلك بعِقْدٍ كامل.

صدر في عام 1913 حُكمٌ بإعدام أفراد العصابة، وأُعدِم معظمهم بالمقصلة أيضًا بمَن فيهم "ريمون العلم"، صديق "سيرج". وهكذا تحقق "الانتحار الجماعي".

الجماعات الموازية لجماعة الجيش الأحمر RAF واضحةٌ للعيان، لكنَّ هناك فرقًا؛ إذ لم تكن عمليات السطو بالنسبة للعصابة المحيطة بـ"أندرياس بادر" و"أولريكه ماينهوف" بمثابة تظاهراتٍ سياسية، وإنما هَدَفت لجمع الأموال، أما جرائمهم السياسية فتمثلت في جرائم قتلٍ ضد السياسيين ورجال الأعمال. وهكذا فإن وجه الشبه بين جماعة الجيش الأحمر وعصابة "بونو" في هذا الشأن

1- مقتبس وفقًا لما جاء في مقدمة جيل سيلبرشتاين في كتاب فيكتور سيرج المُقتبَس بالأعلى، ص 18.

ضئيل، لكنها تشابهت أكثر مع رجال العصابة السياسيين، الذين تزعمهم "ستالين" في شبابه في تبليسي بچورچيا والذين رفعوا موارد الحزب المالية بالسطو على البنوك والابتزاز بالتهديد[1]، أو مع مقاتلي حرب العصابات بالقوات المسلحة الثورية الكولومبية - الجيش الشعبي FARC-EP الذين اعتبروا أنفسهم ماركسيين لينينيين وموّلوا أنفسهم عن طريق زراعة المخدرات والابتزاز بالتهديد.

عرفت جزءًا من الوسط الاجتماعي الذي نشأت منه جماعات الإرهاب الألماني في السبعينيات وبعض معاونيهم أيضًا. شاركتهم اعتقادهم بأنهم فوق القانون. ولم أرفض الاغتيالات التي قامت بها جماعة الجيش الأحمر لاعتباراتٍ إنسانيةٍ وإنما لأسبابٍ سياسيةٍ بحتةٍ؛ لأن هذه العمليات كانت في رأيي غير مناسبة. هكذا كان الموقف الذي اتخذه حزبي؛ الحزب الشيوعي الألماني، بدمٍ باردٍ. حيث ساد في قلبه الاعتقاد بأن جماعة الجيش الأحمر رفاقٌ لنا لكنهم ضلوا الطريق فقط. يُقال إنه اتضح فيما بعد أن حزب الاتحاد الاشتراكي في ألمانيا كان قد وفّر للإرهابيين من ألمانيا الغربية ملجأً آمنًا.

كنا نقرأ آنذاك بحماسٍ مذكرات "ماكس هولتس". كان "ماكس هولتس" ابنًا لعاملٍ زراعيٍ وظلَ لفترةٍ يتنقل بين وظائفَ مؤقتةٍ حتى كوّن في عام 1920 جماعةً من العمال الذين يعملون بمنازلهم في منطقة "جبال

1- لمعلومات تفصيلية انظر:

Simon Sebag Montefiore, Der junge Stalin; S. Fischer, Frankfurt/ M 2007

الخام". حارب مع جماعته وحدات "الفرايكوربس" التطوعية العسكرية الرجعية وسطوا على الأغنياء واقتسموا الغنائم مع الفقراء مثل "روبن هود". كان "هولتس" عضوًا بالحزب الشيوعي الألماني الذي استبعده بسبب مغامراته لكن سرعان ما ضمه إليه مرةً أخرى واعتبره فيما بعد بطلًا. كما شارك "هولتس" في الحركة الثورية الشيوعية في منطقة "مانسفيلد" عام 1921 على رأس أربعة آلاف عاملٍ مسلحٍ. كانت هذه الجماعة "أيضًا لا تخشى إضرام النيران في المباني وخطف الرهائن وسرقة المواد الغذائية والأموال"[1]. ثم هاجر "هولتس" فيما بعد إلى الاتحاد السوفيتي حيث استفز السلطات أيضًا حتى لقي حتفه أخيرًا غرقًا في ظروفٍ غامضةٍ.

مأوى الثورات

يعد نمط الحياة الجمعي الذي تُقتسم فيه الملكيات والموارد سمةً متكررةً في الجماعات الثورية الصغيرة. فقد عاشت عصابة "بونو" معًا في منزلٍ ريفيٍ كبيرٍ في بلدية "رومينفيل" الصغيرة التي تقع شمال شرق باريس، وأنشؤوا به مطبعةً. احتوى المنزل على مطبخٍ كبيرٍ وكانت غرف النوم في الطابق الأول. زرعوا في الحديقة خضرواتٍ وقاموا بتربية أرانبَ ودجاجٍ وبطٍ.

1- Ulla Plener, Max Hoelz, Ich grüße und küsse Dich – Rot Front!; Karl Dietz Verlag, Berlin 2005, S 13.

حتى اليوم، توجد جماعاتٌ تسكن معًا وتظن نفسها ثوريةً خاصةً في فرنسا. تتكون هذه الجماعات من مجموعاتٍ من العمال الزراعيين أو أصحاب الحرف أو ممن يعملون في نقل الأثاث أو البرمجة ممن يرون أنفسهم نواةً لأسلوب حياةٍ جديدٍ. وغالبًا ما يكونون أساس تنفيذ عملياتٍ مسلحةٍ كذلك[1]. مما يذكرنا بالأفراد الذين شغلوا المنازل الخالية دون إذنٍ في ألمانيا في الثمانينيات، حيث كانت هناك مشروعاتٌ مشابهةٌ أيضًا. كما يذكرنا بقطعة الأرض التي احتلتها مجموعة شبابٍ منذ سنوات. كانت تقع بالقرب من مدينة "نانت" في غرب فرنسا وأرادت الحكومة بناء مطارٍ بها.

تعبِّر هذه الأشكال من الحياة والتنظيمات الجمعية عن الرغبة في بدء العيش بطريقةٍ جديدة؛ العيش دون قيود مِلكيةٍ ودون سلطاتٍ مع مراعاة الصالح العام، حتى وإن تحقق ذلك مبدئيًا على مستوىً محليٍ محدود، دون الحاجة للانتظار لوقتٍ طويل[2].

لكن العيش في مثل هذه المساكن المشتركة يخفي خطر تصعيدٍ محتملٍ. حيث يختبئ الفرد فيه خلف حصونٍ تحميه من العالم الخارجي المعادي. ويقضي معظم وقته مع مَن لهم آراؤه نفسها. وسرعان ما يصل الأمر إلى تنافسٍ بينهم حول مَن يكون الأكثر إصرارًا على تحقيق هدفه. هذا ما حدث

1- Detaillierter Überblick und Selbstdarstellung: collectif Mauvaise Troupe, Constellations – Trajectoires révolutionnaires du jeune 21e siècle; Éditions de l'éclat, ohne Ortsangabe 2014.

2- Programmatisch: Pierre Dardot, Christian Laval, Commun Essai sur la révolution du XXIe siècle; La Découverte, Paris 2014.

أيضًا لجماعة برلين 1 التي تكونت قبل خمسين عامًا وأصبحت راديكاليةً في وقتٍ قصيرٍ حتى أنَ اليساريين المتطرفين تجنبوها.

من "صوفيا بيروفسكايا" قاتلة القيصر..

إلى "أولريكه ماينهوف"

وصفتْ "ليليانا كيرن" Liliana Kern ما حدث في كتابها الجدير بالقراءة "قاتلة القيصر: حياة الإرهابية الروسية صوفيا بيروفسكايا"[1]. حيث شاركت ابنة العائلة الكبيرة في اغتيال القيصر "ألكسندر الثاني" في عام 1881.

عندما سأل القاضي رئيس المحكمة "صوفيا بيروفسكايا" Sofja Perowskaja عن مهنتها في بداية جلسة محاكمتها بتهمة القتل، أجابته قائلة: "كنت أعمل مؤخرًا كثائرة". كانت "صوفيا بيروفسكايا" أيضًا قد أقامت مع جماعة ممن يماثلونها في الفكر وتطرفت. كان كل ما يهم هذه الجماعة هو التفاني من أجلها. استطاعت النساء فيها المطالبة بمساواتهن بالرجال وهو ما لم يكن ملائمًا للعصر آنذاك على الإطلاق. كما ظهرت في الجماعة شخصياتٌ قياديةٌ ذات شعبية. وفقد القانون سطوته تدريجيًا؛ **فالغاية تبرر الوسيلة،** كان شعار الجماعة التي انتمت لها "صوفيا بيروفسكايا". كانت هذه العبارة هي جوهر الأخلاق الثورية التي شكَّلت

1- Liliana Kern, Die Zarenmörderin Das Leben der russischen Terroristin Sofja Perowskaja; Osburg Verlag, Hamburg 2013.

الإرهاب الروسي في أواخر القرن التاسع عشر والتي تبناها البلاشفة بعد ذلك بوقتٍ ليس بطويلٍ.

عبر الثائر الروسي "سيرجي نيتشاجيو" Sergei Netschajew (1847 - 1882) عن أسلوب التفكير هذا في كتابه "التعاليم الثورية" الذي انتشرت منه نسخٌ مسروقةٌ فيما بعد في جمهورية ألمانيا الاتحادية في أواخر الستينيات. ونفذت جماعة الجيش الأحمر أفكاره. ورد في الكتاب عن الثائر أنَ: "الأخلاقي بالنسبة له هو ما يؤدي إلى انتصار ثورته. وغير الأخلاقي والإجرامي هو كل ما يقف في طريق ذلك".

كما قرأت تعريفًا للثائر ذات مرةٍ في أول فقرتين من منشورٍ متداولٍ في مركز اتحاد الطلاب الاشتراكيين الألمان SDS في "هامبورج":

"1. إن الثائر هو شخصٌ حكم عليه القدر بذلك. ليس لديه مصالح شخصيةٌ ولا علاقات عملٍ ولا مشاعر ولا روابط روحية ولا يملك شيئًا ولا اسمًا. لا يفكر سوى في الثورة التي يكرس نفسه لها تمامًا.

2. يعرف الثائر أنه قد قطع في قرارة نفسه - بالأفعال وليس بالكلام فقط - كل الروابط التي تقيده بنظام المجتمع والعالم المتحضر بكل قوانينه وأخلاقياته وعاداته

وتقاليده المتعارف عليها. فهو عدوهم اللدود وإن كان لا يزال يعيش معهم فذلك فقط لكي يدمرهم أسرع"[1].

تعبر جمل "أولريكه ماينهوف" التالية عن أسلوب التفكير هذا: "نقول، بالطبع، إن رجال الشرطة خنازير، نقول إن الرجل الذي يرتدي الزي الرسمي هو خنزير وليس إنسانًا ويجب أن نتعامل معه على هذا الأساس. يعني ذلك أننا لا يجب أن نتحدث معه. فمن الخطأ التحدث مع هؤلاء الأشخاص ويمكننا بالطبع إطلاق النيران"[2]. يظهر هذا الفكر اللاإنساني أيضًا في الكلمة المركبة المنتشرة حتى اليوم "رجال شرطة خنازير" التي تشبه إنسانًا بحيوانٍ.

لم ننتهِ بالطبع بعد من سرد كل ما يقال لتبرير عنف الثوار. سننتقل لهذا الجزء فيما بعد، لكننا هنا نصف أولًا تفكير الثائر، نصف الاستعداد الداخلي للثائر وما الذي يبقيه ثائرًا؛ فالعنف هنا عامل استقرار يبعد الثائر عن المجتمع ويعزز دوره.

كتب مؤرخ الثورات الفرنسي "ران هاليفي" Ran Halévi واصفًا الثورية بأنها طريقة تفكيرٍ وتصرف، وأنها سلوكٌ مستقلٌ تمامًا عن هذه الأيديولوجية الثورية أو تلك[3]. وأهم ما يميز هذا السلوك هو التفكير بمنطق إمَّا كل شيء أو

1 - نسخة مسروقة بلا تاريخ.

2- Ulrike Meinhof, "Natürlich kann geschossen werden"; in: Der Spiegel Nr 25 vom 15 Juni 1970; S 74.

3- Ran Halévi, La France et l'esprit révolutionnaire; Revue des deux mondes, Nov 2015, S 30.

لا شيء؛ فالخيار السياسي بالنسبة للثائر "ليس مسألة تفاوضٍ بين الرغبات والمصالح وإنما بحثٌ عن حقائق لا يمكن المساس بها"[1]. وقد يكون هذا البحث عن الحقيقة سببًا لكون الثورة دائمًا ما تجذب المثقفين. ولا أعني بالمثقفين المعنى الكلاسيكي لهم أي الأشخاص التي تتحدث علنًا عن الشئون العامة وتستمد سلطتها من إنجازاتها الفكرية في مجالٍ ما وإنما أعني المثقفين بالمعنى الاجتماعي؛ المنتمين للطبقات المثقفة مثل "روبسبير" و"ماركس" و"إنجلز" و"لينين".

لكن الوضع لم يكن سهلًا أبدًا بالنسبة للمثقفين الثوريين، فقد وجب عليهم دائمًا خوض صراعٍ مع محيطهم أولًا. ولم تضم الحركات الثورية من ناحيتها المثقفين إلى صفوفها دون أن تساورها الشكوك بشأنهم، خاصةً حينما تكون حركات عمالٍ راديكالية. يا لها من خيبة أملٍ لهؤلاء الذين أرادوا حقًا البحث عن وطنٍ جديدٍ لهم! لكنْ هناك تكتيكٌ لجأ له العديد من المثقفين للتغلب على هذا الخوف من الغرباء؛ وهو القيام بعملٍ ثوريٍ جدًا وملاحقة المشككين مثلًا ملاحقةً مستميتة.

من أين عرفتُ ذلك؟ لقد مررتُ بذلك تمامًا. كان يقال عني دائمًا في حزبي إن "أصولي من أدنى الطبقة الوسطى" وكان ذلك عائقًا في طريق مهنتي. حتى أنني كتبت هذا الهراء بنفسي عندما طُلب مني تقديم بياناتٍ عن نفسي للجان الحزب قبل ضمي إلى العاملين به. حاولت التخلص من الاشتباه بعدم

1- المرجع السابق. ص. 32.

الثقة بي بسبب أصلي الاجتماعي عن طريق التحلي بمظهرٍ صارمٍ والتزامٍ تامٍ تجاه الحزب، حتى أدركت بعد سنواتٍ عديدةٍ أن أسلوب الحياة هذا خاطئٌ وأنه من الخطأ الاعتقاد بأن "المثقفين" لا يمكنهم العمل من أجل عالمٍ أفضلَ بالجدية ذاتها التي يعمل بها - لنقول مثلًا - عامل معادن.

الأناركي المراعي لمشاعر الآخرين "إريش موهزام"

أقدم لكم الآن شخصًا بدا أن كل الأحكام المسبقة عن المثقفين تنطبق عليه، وفي الوقت ذاته يعد واحدًا من أهم الثوار على الإطلاق، وهو "إريش موهزام" Erich Mühsam.

وُلد الكاتب "إريش موهزام" في برلين عام 1878. وعاش حياةً بوهيميةً في حي "شفابينج" حيث كان يمر طوال الوقت بأزماتٍ ماديةٍ وعاطفيةٍ. وكان بشكلٍ عامٍ لا يفكر سوى في ملذاته الشخصية (فكان دائمًا ما يدخل في صراعاتٍ مع ضميره ويشعر بالشقاء). شغلته فكرة الأناركية، كتب "موهزام" في عام 1912: "تعني الأناركية اللاسلطوية. وإن مَن لا يربط هذا المصطلح بأية فكرة - إذا لم يفسره على أنه انحلالٌ - يتمتع حقًا بأعصابٍ من حديدٍ"[1]. وبعد ثورة نوفمبر 1918، أكمل "موهزام" قائلًا: "المخلص للحرية والمقتنع اقتناعًا تامًا بفكرة أن الإنسان يصبح حرًا عندما يكون المجتمع مجتمعًا حرًا كوَّنه أفرادٌ أحرارٌ من داخلهم هو مَن سيبدأ بتحرير

1- Erich Mühsam, Anarchie (1912); https://www anarchismus at/anarchistische-klassiker/erichmuehsam/164erichmuehsamanarchie.

نفسه ودائرته المحيطة به. ولن يكون عبدًا لأحد، وسيعلم أن مَن ليس عبدًا لأحد هو فقط مَن لا يرضى بأن يكون سيدًا لأحد"[1]. يعتبر "موهزام" التحرر عمليةً قائمةً بذاتها تشمل ما هو أكثر من السياسة.

لكنه ألقى بنفسه في مجال السياسة على الرغم من ذلك. حيث هزَت الحرب العالمية الأولى كيانه. وتسبب حماس الشاعر الأولي للحرب في أزمةٍ له. لكن كيف يمكن وضع حدٍّ لهذه المجزرة؟ تناقش "موهزام" مع الأناركي السلمي "جوستاف لانداور" Gustav Landauer الذي كان ضد إشعال ثورةٍ في ذلك الوقت "لأنه يجب وضع أهدافٍ محددةٍ والاستعداد والتنظيم جيدًا من أجل الثورة"[2]، حسب ما جاء في مذكرات "موهزام" في يوم 19 يونيو عام 1916. "لا أتفق معه في هذا الرأي. لو قامت ثورةٌ الآن سيكون هدفها السلام. ولو تحقق هذا الهدف لاكتسب الشعب ميزةً أخلاقيةً ستجعله متقبلًا للإعداد لأشياءَ أكبر وأكثر اشتراكية".

بعدها بعامين، بدأت ثورة نوفمبر. وهُزمت جمهورية ميونيخ السوفيتية التي أعلنت استقلالها عن جمهورية فايمار هزيمةً دمويةً. نجا الشاعر "موهزام" بصعوبةٍ شديدةٍ من الثورة المضادة. وسُجن وحُبس انفراديًا وأسيئت معاملته لكنه لم ينهزم. حارب بعدها النازيين في جمهورية فايمار حتى قتلوه في العاشر من يوليو عام 1934 في معسكر اعتقال مدينة "أورانينبورج" الألمانية.

1- Erich Mühsam, Die Freiheit als gesellschaftliches Prinzip (1929); http://www syndikalismusforschung info/erich2 htm.

2- Erich Mühsam, Tagebücher, Bd 5 (1915–1916); Verbrecher Verlag, Berlin 2013; Eintrag v 19 6 2016; S 249.

عرضنا حتى الآن ثوارًا من خلفياتٍ متعددةٍ. ويوجد غيرهم الكثيرون الذين يستحقون التفكير فيهم؛ ثوارٌ مشهورون مثل "نيلسون مانديلا"، وثوارٌ مغمورون مثل الفلاحين الصينيين الذين اتبعوا "ماو تسي تونج" ولا نعرف أسماءهم، ومرتكبو أعمالٍ إرهابيةٍ مثل العامل والأناركي الفرنسي "رافاشول" ("فرانسوا كلوديوس كونيجشتاين"، 1859 - 1892)، وزعماء ذوو شعبية مثل "توسان لوفرتور" (1743 - 1803) الذي قاد ثورة عبيد "هايتي" حتى النصر، أو مثل "نستور ماخنو" (1888 - 1934) زعيم حركة الفلاحين الأناركية في أوكرانيا التي سيطرت لحوالي خمس سنواتٍ على مناطقَ كبيرةٍ من أوكرانيا وأسست بها دولةً مستقلةً حتى هزمها الجيش الأحمر تحت قيادة "ليو تروتسكي"، أو "بوينافينتورا دوروتي" (1896 - 1936) زعيم العمال الأناركي وقائدهم خلال الحرب الأهلية الإسبانية. جمع الأناركيون والشيوعيون اليساريون الأسبان بين الحرب ضد الفاشيين والقيام بثورةٍ اجتماعيةٍ وتأسيس نظامٍ سوفيتي في مناطقَ عديدةٍ في إسبانيا. لكن الشيوعيين أنهوا هذه التجربة الشعبية بقوة السلاح تحت قيادة الاتحاد السوفيتي وبتسليحٍ منه.

وثوارٌ آخرون كثيرون يشكلون معًا صورةً ملونةً لكنها صورةً واحدةً تجمعهم؛ فقد أثبتت سير الثوار أنهم لا يجمعهم نوعٌ واحدٌ صحيح لكن تجمعهم صفاتٌ مشتركة.

أول صفة بديهية هي الثورة. الثورة ضد الامتناع عن توفير الحد الأدنى للاحتياجات الإنسانية (سواءٌ في البيئة المحيطة أو في أي مكانٍ آخر) وضد النفاق الذي يصاحب ذلك.

ثاني صفة هي القدرة على الاستمرارية. لا يبقى كل ثائرٍ وحيدًا، لكنَّ قدرة العديد من الثوار على الصمود مثيرةٌ للإعجاب. حيث يصبح تصرفهم مستقرًا بذاته وينتج شعورًا بالسلطة وبالذات، وحيث إن معظم الثوار يتصرفون تصرفاتٍ جمعيةٍ يعكس الآخرون هذا الشعور. فهي عملية تغذيةٍ راجعةٍ للتصرف.

ثالث صفةٍ هي نسبية القواعد السائدة، مما قد يصل إلى التركيز التام غير المشروط على الهدف وبالتالي إلى انهيار الأخلاق.

لكن هذه الصفات ليست ملزمة. فحتى "باكونين" الداعي إلى التدمير رفض في وقتٍ ما العنف المتشدد للثائر الروسي "نيتشاجو". ولم يتخلى ثوارٌ آخرون مثل "إريش موهزام" و"فيكتور سيرجيه" أبدًا عن مشاعرهم وتفكيرهم العميق. وكذلك أعرف شيوعيين تونسيين يكرسون كامل طاقاتهم منذ عقودٍ من أجل النموذج الثوري ولم يصبحوا قساةً وأشرارًا ولم يصابوا بالجنون بسبب ذلك. ضحكاتهم ليست غاضبةً وإنما يسخرون من أنفسهم في أحيانٍ كثيرةٍ. وتتناقض نظريتهم اللينينية تمامًا مع سياستهم اليومية الديمقراطية تمامًا التي لا يوجد بها أيُّ أثرٍ ضئيلٍ للستالينية. ما الذي يمكن قوله؟ فالثوار يَحْيون في تناقضٍ تمامًا مثل أيِّ إنسانٍ آخر حتى وإن كانوا لا يعترفون لأنفسهم بذلك.

أن تكون ثائرًا يعني الرغبة في العيش بلا قيود. لكن هذا نظريًا فقط ونادرًا ما يتحقق في الواقع. فالثوار في الواقع هم غالبًا مجرد أفرادٍ يعارضون الوضع القائم بحدةٍ أكثر من الآخرين.

5

أفكار.. دوافع.. وحجج

ما الثوار إلا أناسٌ لديهم أفكار، تعبر عن توجهات الجماهير، تطلق العنان للمشاعر، تمنحها شكلًا وتحدد لها اتجاهًا. ليست الأفكار مجرد أيديولوجيةٍ أو وهمٍ مصاحبٍ للثورات، بل هي جوهر الحدث الدرامي، ولذلك لا بد من دراستها جيدًا، حتى يتسنى لنا فهم الثورات. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى مقولة "كارل ماركس" الشهيرة: "إن النظرية تصبح قوةً ماديةً حالما تمتلك الجماهير"[1]. فهذه المقولة تعبر عن معاني أكثر كثيرًا من تلك التي كانت تنشدها، إذ برهن القرن التالي لظهورها على مدى قوة الجماهير، التي يمكن أن تصل إلى حد العنف، عند اتباعهم لأحد المذاهب، خاصةً إذا كان مذهبًا ثوريًا.

يعود لـ"كارل ماركس" الفضل الأكبر في وصفه ذلك الفخ الذي يقع فيه كل مَن لا يتحكم في تصرفاته سوى الأفكار، فهي مجرد وسيلةٍ تُمكِّن أصحاب الشأن من شرح تصرفاتهم، ولكنها لا يجب أبدًا أن تكون دافعهم الوحيد وراء تلك التصرفات. وقد قام "كارل ماركس" بتحليل الثورات بشكلٍ مغاير: "فكما أنه لا يمكن الحكم على الفرد وفقًا لرأيه الشخصي في ذاته، كذلك لا

1- Karl Marx, Zur Kritik der Hegelschen Rechtsphilosophie, in: MEW, Bd.1, S. 378.

يمكن الحكم على فترة تحوُّلٍ كهذه وفقًا لوعيها الخاص، بل الأحرى هو تفسير ذلك الوعي انطلاقًا من تناقضات الحياة المادية، والنزاع القائم بين قوى الإنتاج الاجتماعية وعلاقات الإنتاج"[1] أيْ انطلاقًا من الاقتصاد السياسي.

ولا يعتبر هذا الرأي أحادي الاتجاه، فقد تجاوز التأريخ ذلك الاختزال الذي ينص على أن الكم الذي يعتمد على أساسٍ اقتصاديٍ هو وحده الذي يشكل البنية الفوقية. فلم يعد أحدٌ يُضفي على الاقتصاد صفة "المادية" أو يُصنف ثنائية الدولة والثقافة تصنيفًا "فكريًا". فالاقتصاد يعتمد في نهاية المطاف وبشكلٍ كبير (وذلك اليوم أكثر من أي وقت مضى) على المعلومات والأفكار. أما على الصعيد الآخر، فلطالما اعتمدت ثنائية الدولة والثقافة على المادة في ضوء تفاعلها مع أدواتٍ معقدة. إذ يمكن القول مجازًا إن الأجزاء الصغيرة تتبع الذرات وأن الذرات بدورها تتبع الأجزاء الصغيرة، حيث يمكن للأفكار أن تشكل حياةً خاصةً لأنها تؤدي وظائف عقلية، وهو ما نأمل أن يكون قد تم إيضاحه في الفصل السابق المعني بالثوار.

ولا شك أن مجرد إيضاح "ماركس" لتلك الفروقات يعتبر سبقًا عظيمًا بالنسبة لزمنه. ورجوعًا إلى محورنا الرئيسي وهو الثورة، يمكن أن نتعلم مما سبق أنه على مَن يريد أن يفهم الأحداث ألا يكتفي بسماع أصحاب الشأن فقط، حتى وإن كان ذلك يمثل شقًا ضروريًا، فالشق الآخر لا يقل من حيث

1- Karl Marx, Zur Kritik der politischen Ökonomie, in: MEW, Bd.13, S.9.

الأهمية وهـو يكمـن في فهـم الأحـداث في سـياقها، في محيطهـا الفكـري، بـل والروحـي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي أيضًا.

وقد جرى الكثير مـن المحـاولات لتبريـر الاقتصـاد السـياسي الخـاص بالفعـل الثـوري استنادًا إلى ما يُعرف في علم الاقتصاد بـ"الهومو إكونوميكـوس" Homo oeconomicus أو "الإنسـان الاقتصـادي". فقـد قـام "جـوردون تـالوك" Gordon Tullock، وهـو أحـد مؤسسي نظرية "الخيار العام"، في دراسةٍ لـه بعنـوان "مفارقـات الثـورة" ظهـرت في عـام 1974، بفحص دوافع المشاركة في الثـورات[1] انطلاقًـا مـن فرضيـةٍ تـنص عـلى أن نجـاح الثورات يُحسن من الوضع العام (حتى وإن كان أمرًا لا ينطبـق عـلى جميـع الحـالات). واستنتج "تالوك" أن تكاليف ومخاطر المشاركة في الثورات بالنسبة للفرد أعلى بكثيرٍ من نصيب ذلك الفرد في تحسين الوضع العام. فيقول الفرد لنفسه: "تكفي مشاركة الآخرين في تغيير المجتمع، فما الإضافة العظيمة التي يمكن لي أن أقدمها؟" أما بالنسبة لما يتعلـق بالمكاسب الخالصة للأفراد، مثل المكافآت الشخصية أو المميـزات الخاصـة، فهـي ليسـت مضمونةً، وأثبتت التجارب أنها غالبًا ما تكـون مـن نصـيب قـادة الثـورة ولـيس الثـوار، وبالتالي فلا ينتفع بها إلا فئةٌ قليلة.

تلك هي الأسباب التي جعلت "تـالوك" يـرى أن الثـورات الشـعبية الحقيقيـة نـادرةٌ للغاية، فهي لا تؤتي ثمارها حتى وإن حظت بالنجاح.

1- Nachdruck in: Gordon Tullock, The Social Dilemma; Liberty Fund, Indiana 2005, S.174 ff.

ويمكن أن نعتبر هذه الحجة حجةً مقنعةً إذا ما اتفقنا مع فرضيتها، إلا أنها فرضيةٌ خاطئة، فهي تستبعد كلًا من الشق العاطفي والشق الأخلاقي للدوافع. فنموذج "الهومو إكونوميكوس" مثالٌ جيدٌ لشرح بعض (ولكن ليس كل أو حتى أساس) ما يتعلق بهذا الصدد، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد الدوافع الدينية تحرك بعض الأفراد، إذ تبدو طريقة حسابهم للفوائد والأضرار مختلفةً؛ فهم يكتسبون من خلال مشاركتهم في الثورة شيئًا لا مثيل له، ألا وهو الإشباع الروحاني، وفي تلك الحالة تعتبر الفائدة المكتسبة أعظم كثيرًا من أيِّ ضرر يمكن أن يخطر في الحسبان.

لقد سخر "برتولت بريخت" في كتابه الذي لم يكتمل "نحاتو العالم" من هؤلاء الذين "يتوهمون أنهم يرغبون في صنع الثورات لكي يسيطروا على المادية الجدلية"[1] أيْ ليس انطلاقًا من الحاجة المادية مثل البروليتاريين. صحيح أن هذه المقولة تبدو صائبةً، إلا أنها تستبعد الاحتياجات العاطفية لأصحاب العقائد الخاصة، الذين يثورون دفاعًا عن أيديولوجيةٍ معينة. فلا تصبح "المصالح المادية" ثوريةً إلا من خلال الأفكار، خاصةً عندما لا تتحقق التوقعات والآمال والتلهفات. "لا تقبلوا أن تكونوا لا شيء بعد الآن" هكذا حفزت كلمات أغنية "دي إنترناتسيونالي" كلَّ ذي حقٍ مسلوب. فالوحيد الذي لا يحتمل أن يكون لا شيء هو ذلك الشخص الذي يقدر ذاته، فهو الوحيد الذي

1- Bertolt Brecht, Gesammelte Werke; Suhrkamp, Frankfurt/M 1967, Bd.20, S.50.

سيثور، خاصةً عندما يدرك كم الفرص المتاحة له، أو يعي أن شيئًا ما يعوقها، فلا بد وأن يسقط ذلك الشيء، كلا، بل لا بد أن تتم الإطاحة به.

ثورة الكرامة

ما زلت أحتفظ في ذاكرتي بصورة ذلك الرجل العجوز، الذي قال لي "إن هـذه الثـورة هي ثورة الكرامة" وذلك عندما تجمهر الشـعب التـونسي في يـوم 14 ينـاير 2011 أمـام وزارة الداخلية، التي كانت مقرًا للسلطة. فقد تواجـد الجميـع، الكبـير والصـغير، الغنـي والفقير، لم يكن يعنيهم هذا المطلب الاقتصادي أو ذاك، ولا اكتسـاب أيَّـة رفاهيـةٍ عـلى المستوى الفردي أو نصيبٍ من دورٍ جماعي في تحقيق الرخـاء، بـل كـان يعنـيهم المبـدأ، الكرامة. فلنتذكر معًا ما سطرته التونسية الشابة "ألفة رياحي"، أنه لا يوجد "أسـوأ مـن فقدان الكرامة".

ومن الخطأ أيضًا الاعتقاد أنه جرت العادة على أن يثور الفقـراء في سـبيل تحقيـق أهـدافٍ مادية، بينما يثور الأفضل حالًا من أجل المثاليات، فالفقر في حد ذاته مذلةٌ، تصـاحبه الاتكاليـة والإهانة والقبح والظلم والاستبعاد الثقافي. فعندما يثور الشعب، فإنه يطالـب بكرامتـه. ولقـد جاء "سبارتاكوس" ردًا عـلى العبوديـة، بيـنما كـان "مانـديلا" ردًا عـلى التمييـز العـنصري. وقـد اسـتطاع الثـوار الصـينيون والكوبيـون والجزائريـون أن يكسـبوا تعـاطف الشـعب معهـم

بسبب الاحتلال الذي جعل من الصين وكوبا والجزائر كيانًا ذليلًا. وفي الصين لا يزال يُشاع حتى يومنا هذا أنه في منتصف القرن التاسع عشر كانت توجد لافتةٌ في إحدى الحدائق مكتوبٌ عليها "ممنوع دخول الصينيين أو الكلاب". حتى وإن لم يكن لتلك اللافتة وجود، فلا يزال يتضح من خلال هذه الأسطورة الصورة التي رسمها الصينيون لأنفسهم.

لطالما كان هناك جدلٌ دائرٌ حول مصطلح الكرامة، التي لا تعني في سياقنا هذا كرامة هؤلاء من أصحاب المهام المحددة مثل رؤساء الولايات، بل الكرامة الإنسانية التي تسري على نطاقٍ أوسع وأعم. وتمثل الثورات بداية وصول هذا المصطلح إلى العالم السياسي. فهل الكرامة صفةٌ يكتسبها الإنسان ينتُج عنها الشعور بالاستحقاق؟ أم هي ذلك الشعور بالاستحقاق في حد ذاته؟ أو ما يعرف باستحقاق الاحترام؟ إنني أميل إلى الصياغة الثانية، إذا كنا نريد أن نتجاوز البُعد الاجتماعي لمصطلح الكرامة، فعلينا أن نرجع إلى المجال الميتافيزيقي، وهو أمرٌ ليس بالضروري عند التعامل مع هذا المصطلح بشكلٍ عامٍ في سياقه الاجتماعي. كما أننا بذلك يمكن أن نتجنب صياغةً أساسيةً ونستخدمها كمصطلحٍ تاريخي؛ فالحد الأدنى من الاحترام الذي يتطلبه كل إنسانٍ يتغير مع مرور الزمان، إذ كانت بعض الظروف الحياتية تعتبر عاديةً منذ عدة قرونٍ، ولكن ها هي الآن قد أصبحت تعتبر مهينةً للإنسان.

إن المساواة بين جميع البشر، باختلاف جنسياتهم وألوانهم، هي أساس كل أيديولوجيةٍ ثورية. وقد تجلى لي هذا المبدأ بشكلٍ واضح في مايو 1983 في مدينة "كليفلاند" بولاية "أوهايو"، حيث شاركتُ في أحد المؤتمرات التابعة لمنظمة الشباب الشيوعية بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد شكل أصحاب البشرة البيضاء نسبةً أقل من نصف الحضور، كما تردد شعار "الأسود والأبيض يتحد ويكافح". وكان كل متحدثٍ يُعرف بنفسه من خلال وصف أصوله العرقية، فيقول مثلًا: "ألماني كندي"، أما الغالبية فكانت تستخدم مصطلح "هاينز 57" نسبة إلى شركة المواد الغذائية الشهيرة بـ57 نوعًا (وهو ما كان يُذاع آنذاك عبر الإعلانات). فكان استخدام المتحدثين لهذا المصطلح مرادفًا لتنوع أصولهم. وعقب ذلك قمت بزيارة بعض الشباب الشيوعين في "بروكلين" و"هارليم" لأجد جماعاتٍ متعددة العرق واللون من أصول يهودية، وأفروأمريكية ولاتينية وآسيوية. فهكذا كنت، وهكذا ظللت، أتخيل شكلًا أفضل للعالم بأسره، ولألمانيا ضمنيًا. ويمكن لذلك أن يتحقق دون تلك الأيديولوجية التي كنا نؤمن بها آنذاك. وهذا ما أثبته الألمان في خريف عام 2015 عندما قدموا يد العون والمساعدة للاجئين، بعيدًا عن أيِّ تنظيرٍ أو ادعاء الرغبة في إصلاح العالم.

ولكن لماذا كنت فاتر المشاعر حيال بعض توجهات الحركة الشيوعية التي لم تتماشَ مع هذا الموقف الجوهري في المساواة بين الأفراد؟ لم يكن الشيوعيون قادرين على تناول إشكالية معاداة السامية بين الأفراد والتي لم

يذكرها زعيمهم "ماركس" في نظرياته، إلا أنه كثيراً ما عبر عنها في مقولاته، كما أنهم لم يلتفتوا إلى إشكالية التطهير المعادي للسامية، الذي وقع في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن الماضي تحت حكم "ستالين" ثم في تشيكوسلوفاكيا والمجر وألمانيا الشرقية، تلك الدول التي كانت لديها توجهاتٌ معاديةٌ "للعالميين بلا جذور"، وكذلك لم يلتفتوا إلى تحريضات "حزب الأخوة البولندي" المعادية للشباب.

فلماذا إذاً؟ لأنني غضضت النظر، فعلت ما يلومنا عليه الجيل الأكبر.

وعلى صعيدٍ آخر، نشأت معاداة الصهيونية، ذلك البناء التافه لـ"الأممية البروليتارية"، الذي حرم اليهود من إقامة دولتهم الخاصة باستخدامه لحججٍ عديدة من بينها حججٌ علمانيةٌ لا تمت للتاريخ بصلة، وكأن معسكر اعتقال "أوشفيتز" لم يكن. فلنتذوق تلك اللذة مرةً أخرى، فقد سولت إلينا أنفسنا أننا ورثة معاداة الفاشية، فصرنا نجادل وكأن "أوشفيتز" لم يكن.

كان الحديث أعلاه عن "الكرامة الإنسانية بشكل عام" فهي الفكرة التي تقوم الثورات على أساسها، إذ إن الثورات تعتمد على معايير متشابهةٍ على المستوى العالمي. فهل يعتبر ذلك وصفًا مُستجدًا على الثورات؟ نعم ولا، فمنذ بداية عصر التنوير، أصبحت حقوق الإنسان المتفق عليها عالميًا مطلبًا للحشود. وقد ذكرت "حنا أرندت" Hannah Arendt في كتابها "عن الثورة": "لا توجد خصائصُ جديدةٌ تميز حداثة الثورات عن ذلك الذي

كانت تطالب به منذ البداية، ألا وهو تمثيل مسألة الإنسانية"[1]. وفي هذا الصدد لا يجوز استبعاد ما حدث مع أكثر من مائة ألف مقاتلٍ من جيش المحارب "سبارتاكوس" في القرن الأول قبل الميلاد، إذ لم ينضم إليهم العبيد فقط، بل أيضًا الأحرار من الفقراء وكذلك رعاة الغنم والفلاحون المُعدمون. وكان هدفهم جميعًا هو إنشاء نظامٍ خاصٍ بهم ينعمون فيه بأي شكلٍ من أشكال الحرية وقوت اليوم[2]. حتى وإن أراد البعض أن ينفي وجود نظريةٍ محددةٍ للخلاص آنذاك (وهو الأمر غير الصحيح، إذ استند "سبارتاكوس" ومن قبله الصقلي "أوينوس" Eunusإلى الوحي الإلهي) فلا يمكن لأحدٍ أن ينكر فاعلية تلك الثورة. صحيح أنها لم تكن أول ثورة للعبيد في العصور القديمة، إلا أنها كانت الأضخم والأكثر تنظيمًا، إذ اضطرت روما أن تحشد عددًا أكثر من الجنود، أكثر من ذلك الذي كان متوفرًا للقيصر في بلاد "الغال". وقد ساهم القائد "ماركوز ليسينيوس كراسوس" Marcus Licinius Crassus في تخليد تلك الثورة عبر التاريخ، عندما أسر ستة آلاف ثائرٍ من العبيد وصلَبهم كافةً بمحاذاة جزءٍ من شارع "فيا أبيا" يمتد لمسافة 125 كيلومترًا. وحتى في العصور الحديثة ظهرت بعض الحركات والمنظمات الثورية التي جعلت من "سبارتاكوس" مرجعيتها، كتلك التي اختارت اسمًا

1- Arendt, a. a. O., S.10.

2- Siehe Jean-Paul Brisson, Spartacus; CNRS Editions, Paris 2011, z. B. S.207.

لهـا تيمنًـا بشخصـه، مثـل الجماعـة الشـيوعية التابعـة لــ"روزا لوكسـمبورج" و"كـارل ليبكنيشت" وكذلك اتحاد الطلاب التابع للحزب الألماني الشيوعي.

الثورة الماوية

الحرية والكرامة للعبيد أيضًا، بل للجميع. هذا هـو الـدافع الأسـاسي وراء كـل فكـرةٍ ثورية. ولهذا يمكن لنا أن نُضفي على بعض الحملات المناصرة لـ"ماو"، والتي ظهرت بـين عامي 1966 و1976، صفة الثورية، فيما عدا ثورة "البروليتاريا الثقافية الكبرى"، فهـي لا تمت للثورية بصلة. إذ لم يحظَ مفهوم الحرية بأي دورٍ بها، ولا حتى مفهوم الكرامة. أما عن الأعداء الذين كان يُطلق عليهم "الحكام الرأسـماليون" أو "الإصـلاحيون" أو مسـمى غريبٌ مثل "أنصار خروشوف من الإصلاحيين المعادين للثورة"[1]، فقد كانوا أيضًا أنصـارًا للشيوعية، إلا أنهم كانوا تابعين لجماعـاتٍ أخـرى منافسـة. وقـد حشـد تيـار "مـاو تسي تونج" شباب "الحرس الأحمر" للتصـدي لهـؤلاء الأعـداء بعـد أن عشَّـمهم بنصـيبٍ مـن السلطة، وبذلك تمكن تيار "ماو" من إزاحة جميع منافسيه في الحزب الشيوعي الصيني، وإذا به يمارس الإرهاب في الدولة ويتبع سياسة الترحيلات والمذابح الجماعية.

1- Konrad Seitz, China. Eine Weltmacht kehrt zurück; Berlin Taschenbuch Verlag, Berlin 2002, S.885.

استنادًا إلى "كومونة باريس" أو "بلدية باريس"، قام أنصار "ماو" في يناير 1967 بتحريض سكان "شنغهاي" على التظاهر ضد حكومة المدينة الشيوعية، التي كانت من ناحيتها تعوِّل على الأيدي العاملة في مجال الصناعة، وأجبروا المدينة (بدعم من بكين) على تشكيل حكومةٍ استشارية. وقد تكرر هذا المشهد في مدنٍ أخرى بعد ذلك، ولكن قبل أن تتجلى خطورة الديمقراطية الشعبية الناتجة عن تشكيل مثل ذلك الهيكل الاستشاري، سرعان ما استبدله "ماو" بما يسمى بـ"اللجنة الثورية" التي انقسمت فيها المقاعد بالثُّلث بين كلٍ من الحزب، والجيش الذي كان مناصرًا لـ"ماو" في تلك الفترة والمنظمات الجماهيرية. أيْ بعبارةٍ واضحة: تمكن أنصار "ماو" من الاستحواذ على السلطة[1]. وها هو نموذجٌ آخر من تلك الأحداث التاريخية التي تبدو وكأنها تعود إلى العصور القديمة، إلا أنها قد وقعت منذ خمسين عامًا فقط.

وقد استمرت المذابح لفتراتٍ طويلة، إذ شكل أنصار الثورة الثقافية فرقًا إصلاحيةً متعددة أخذت تبيد بعضها بعضًا. وكانت الكتلة الشعبية التي ناشدها "ماو" في واقع الأمر حشدًا من المتطرفين الذين وافقوا بكامل إرادتهم على أن يتم استخدامهم كأداةٍ للسلطة، وكانت دوافعهم شبيهةً بدوافع الألمان النازيين في عهد الرايخ الثالث: الجشع، الاستيلاء على خيرات البلاد المجاورة، المبالغة في الإعلاء من قدر الذات على حساب الآخرين والسادية المطلقة، فعمَّت الفوضى وكانت الدولة على وشك الانهيار. ويرى

1- Ebd., S.191.

خبير الشئون الصينية "كونراد زايتز" Konrad Seitz أنه "في تلك الأثناء، تحديدًا في يـوم الخامس من شهر سبتمبر من عام 1967، أصدر ماو أوامره للجيش باستعادة النظام عن طريق استخدام السلاح. فها هو القيصر الذي وهب رعيته حـق التظـاهر، ينـزع مـنهم ذلك الحق بمنتهى السيادية"[1]. فقد أباد الجيش أعضاء الحـرس الأحمـر وأطلـق علـيهم الرصاص في مذبحةٍ جماعية، واستمرت المجزرة حتى صيف العام التالي.

أهي ثورةٌ؟ فقط في الشعارات الرنانة. كلا، فالثورة الثقافية الماويـة لا تمـت للثـورات التي نقصدها في سياقنا هذا بأيّة صلة.

ولكن كيف لنا أن نفسر تحوُّل الكثير من الأوروبيين اليساريين إلى أنصارٍ لــ"مـاو" في أواخر الستينيات؟ فمثلًا في عام 1967، حصل بعض أعضاء اتحاد الطلاب الاشتراكي الألماني على ملصقات لـ"ماو" وسلموها لمركز الطلاب الاشـتراكيين المسـتقلين (الـذي كنـت أحـد أعضائه). كما تم تعليق صورةٍ كبيرةٍ لـ"ماو" في غرفة الاجتماعـات المشـتركة، وفي أسـفلها اقتباس للرئيس العظيم: **"للثورة مبرراتها"**، فصرنا نشعر بوجود قوةٍ عظمى بعيدةٍ تؤيـد قيام الثورات خاصة ضد "المستبدين الرجعيين البرجوازيين". فكيف كان يمكـن لـذلك ألا يترك أثرًا عليَّ، وقد كنت تلميذًا متمردًا في الرابعة عشرة من العمر؟

1- Ebd., S.192.

بالإضافة إلى ذلك، شرح لي بعض الطلاب اليساريين المتطرفين، الذين كنت أكن لهم كل الاحترام، كيف كان "ماو" معارضًا لتقليدية الشيوعيين. فبينما لم يكن وقع كلمة "تقليدية" جيدًا على أذني، كنت أرى أنه من الأناقة والتميز أن ألصق بملابسي صورة لـ"ماو"، وفي ذلك الزمن الذي كان يسوده الحديث حول "الخطر الأصفر"، لم يكن يوجد فعلٌ أكثر استفزازية من ذلك. فبعد أن قمت ببيع ملصقات "ماو" في ساحة المدرسة، انعقد اجتماع للآباء نوقش فيه أهمية "التخلص" من "العناصر" المماثلة لي. نعم، هكذا كان الوضع في مدينة "هامبورج" الليبرالية.

استطاع المخرج الفرنسي "جان لوك جودار" في فيلمه "الصينيون" أن ينقل تلك الأجواء المناصرة لـ"ماو" التي وجدت نفسي منخرطًا بداخلها مع أصدقائي لفترةٍ زمنيةٍ قصيرة. عالمٌ مُحكمٌ غير متأثر بالظروف الخارجية يتّبع فلسفة جمالٍ صارمةً ورغبةً حتمية في التماسك والاتساق للوصول إلى أقصى درجات القوة. فقد اقتنيت "الإنجيل الماوي"، ذلك الكتاب الأحمر الصغير الذي كان يحمل عنوان "مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسي تونج" ووضعت سطرًا تحت هذه العبارة: "إن جميع الرجعيين نمورٌ من ورق، يبدو ظاهرهم مخيفًا، إلا أنهم في واقع الأمر لا يتمتعون بقدرٍ كافٍ من القوة"[1]. إنها حقًا عبارةٌ مثيرة للاهتمام.

1- Mao Tse Tung, Gespräch mit der amerikanischen Korrespondentin Anna Louise Strong; in: Worte des Vorsitzenden Mao Tse Tung, Peking 1967, S.86.

وبعدها قرأت العبارة التالية: "القوة السياسية تنبع من فوهة البندقية"[1]، التي تحمل أكثر من معنى، فيمكن أن نعتبرها مقولةً سياسية بسيطة وواقعية، حيث إنها تشير إلى أهمية العناصر القمعية في قيام الدول، لأن أساس الدول يتمثل في احتكارها للسلطة. أو يمكن أن نعتبرها ضرورةً لا مفر منها، وهكذا كان فهمي لها. فقد ظللت لفترةٍ طويلةٍ أؤمن بضرورة اللجوء إلى العنف المسلح في الثورات. حتى كوادر الحزب الشيوعي الألماني، الذين كانوا في ظاهرهم يقدرون الشرعية، لم يكن لديهم شكٌ في أنه لا يمكن ضمان "الانتقال السلمي إلى الاشتراكية" (كما كان يُشاع آنذاك)، على الرغم من أنه كان المسار المأمول. ولذلك أكدوا على ضرورة تهيئة النفس لسائر الاحتمالات.

كان ذلك منذ زمنٍ بعيد، إلا أنني عندما كنت في الصين قبل بضعة أعوام، وجدتني أستحضر وهم الماوية الأوروبية مرةً أخرى، ذلك الخليط الغريب من الثورية والاستبداد والدُولية والاستشراق. فأفضل موقعٍ لالتقاط صورةٍ لبورتريه "ماو" الكبير المُعلق في مدخل المدينة المحرمة في بكين هو ميدان السلام السماوي "تيان آن من" الذي سُميت باسمه المجازر التي وقعت في عام 1989، عندما نبعت القوة السياسية من فوهة البندقية لتطلق الرصاص على الطلاب المتظاهرين، ولتمنع بذلك أيَّ فرصةٍ للانتقال السلمي إلى الديمقراطية. فاليوم ينغمر الميدان بكاميرات المراقبة ويلتقط فيه السياح صور السيلفي، ويبتسم "ماو" في قبره.

1- Ders., Probleme des Krieges und der Strategie, ebd., S.74.

صحيح أنه هناك رب، ولكن العبودية ليست مُنزَّلةً من السماء، هذه هي خبرة الثورات، تحديدًا الثورات الحقيقية.

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى الكتاب الكلاسيكي "مقالة في العبودية المختارة" الذي ألفه "أيتن دي لابويتيه" Etienne de la Boétie (1530 - 1563) وهو لا يزال طالبًا قبل أن يصبح أحد أشهر القُضاة في التاريخ. وقبل تأليفه للكتاب بعدَّة أعوام، كان قد تم إدراج محاكم التفتيش في روما، كما كان "كوبرنيكوس" قد نشر لتوِّه كتاب "في ثورات الأجواء السماوية"، الذي لم يكن يدور حول ثورات الأرض، بل ثورات السماء بمعناها التقليدي الذي يعبر عن التغيرات الدورية وليس إعادة البناء من جديد. وبالمناسبة، لا يزال المفهوم العصري للثورات يحتفظ بهذا المعنى. ومنذ زمنٍ بعيد، ذكر الشاب "لابويتيه" في كتاباته عباراتٍ مثل هذه: "فلتكونوا حاسمين، توقفوا عن الخدمة وستصبحون أحرارًا"[1]. فالحكام شأنهم شأن سائر البشر، لديهم عينان وأذنان ويدان وساقان، فما يمنحهم السلطة في المقام الأول هو اعتياد الرعية على خدمتهم.

هذه هي فكرة التحرر، التي انتشرت بعد ذلك في الثورات الحديثة، التي اعتبرها البعض انفصالًا عن كل ما هو قديم وإرساءً لبداية جديدة في التاريخ. فقد اقترن هذا الرأي بثورات القرن الثامن عشر وصولًا إلى القرن العشرين،

1- Etienne de la Boétie, Discours de la servitude volontaire; Flammarion, Paris 1983, S.139; vgl. Max Stirner, Der Einzige und sein Eigentum; Verlag Otto Wigand, Leipzig 1845, S.257: "Hörte die Unterwürfigkeit auf, so wär's um die Herrschaft geschehen".

حيث تقول "حنا أرندت": "لن يحق لنا أن نتحدث عن الثورة إلا عندما يسود بيننا الشغف بالبدايات الجديدة، وعندما يرتبط ذلك الشغف برؤيةٍ وتصورٍ عن الحرية"[1].

المستقبل المضيء

يشمل ذلك الشغف الوعود الدينية المتعلقة بنهاية العالم والبرزخ والعودة إلى الجنة. أما عن المحطة الأخيرة لذلك الشغف فهي محطة "الطوباوية"، فالفكر الماركسي يرى أن الرأسمالية قد سطرت نهاية "فترة ما قبل التاريخ في المجتمع البشري"[2]، إذ بدأ بعدها عصر الحرية الحقيقية.

وقد امتنع كلٌّ من "ماركس" و"إنجلز" عن تحديد ملامح المستقبل، وهو ما يمكن تفسيره من خلال عبارات "لويز ميشيل"، المناضلة الأناركية في حي باريس لعام 1871، إذ تساءلت في مذكراتها: "ماذا عن الغد؟ إن الغد ملكٌ للبشرية الجديدة، وسينتظم في العالم الجديد. هل لنا أن نتخيل ذلك الغد؟ هل سيتخطانا فيعبر من فوقنا وكأننا جسر؟ فهذا هو الدور الوحيد الذي نجيده. فنحن لا يحق لنا، ونحن عميان بهذا الشكل، أن نتناقش معًا حول شمس الفجر التي ستبزغ"[3]. صحيح أن كلماتها تنتقص من الذات، إلا

1- Arendt, a. a. O., S.41.

2- Karl Marx, Zur Kritik der politischen Ökonomie; in: MEW, Bd.13, S.9.

3- Mémoires de Louise Michel, Version Kindle; La république des lettres, Paris 2012, Pos. 5194.

أنها منطقية. فبغض النظر عن الأديان والمعتقدات، دائمًا ما سيوجد "إنسان جديد". إلا أن التبشير بقدوم أجيالٍ جديدةٍ في المستقبل يعني في الوقت نفسه أن الأجيال الحالية تخلي مسؤوليتها تجاه كل ما خلفت وراءها للمستقبل.

يمكن أن نتفق أو نختلف حول سذاجة "الطوباوية" التي ترسخت في أذهان البشر طوال فترةٍ لا يمكن أن نغفل فيها جرائم الشيوعية في حق الإنسانية. ففي عام 1969، أوضح "هربرت ماركوز"Herbert Marcuse، كبير فلاسفة ومفكري الحركة الطلابية التي وقعت في فرنسا عام 1968: "إن احتمالات تكوين مجتمعٍ جديدٍ ما هي إلا احتمالاتٌ "مجردة"، أيْ بعيدةٌ عن واقع الكون المترسخ بالفعل، بل ومتناقضةٌ معه لدرجةٍ تعوق محاولات إيجاد مكانٍ لها بين مفاهيم هذا الكون"[1]. تبدو عباراته شاعرية، لدرجة تزيح الهدف من الثورة لتضعه في منطقةٍ بعيدةٍ بدرجةٍ تجعله لا يمكن حتى التعبير عنه بمفردات عصرنا الحالي، بل وتعفيه من الالتزام بالتبرير.

وقد أدرك "ماركوز" مشكلة الامتناع عن المحاسبة ووضع لها حلًا ليس بسيئ على الإطلاق، فلا بد أن يبرهن الثوريون من خلال ممارساتهم السياسية على جديتهم في تحقيق الخلاص "وحساسيتهم الجديدة" تجاه جميع أشكال الظلم والقمع، وأن ما يحركهم هو وعيهم بأن "الشغف بالحرية والاحتياج لها لا بد أن يأتي قبل الخلاص[2]". ولكن للأسف لم

1- Herbert Marcuse, Versuch über die Befreiung; Suhrkamp, Frankfurt/M 1969, S.127.

2- Ebd., S.130.

يتحقق ذلك. كما أن النقاش حول دور حركة 68 لم يتوصل إلى أي نتيجةٍ بعد، إلا أن هؤلاء الذين يقيمونها بشكلٍ إيجابيٍ (مثلي) لن يدَّعوا أنه قد تم تنفيذ برنامج "ماركوز"، ويسري ذلك بشكلٍ خاصٍ على كل مَن اعتنق المذاهب الشيوعية فيما بعد. فلم يكن "للشغف بالحرية" أو "الاحتياج لها" أيَّ دورٍ يُذكر، بل على النقيض، حيث إن الظروف الداخلية للمنظمات الثورية تعطي انطباعًا أوليًا عن آمال الشعب وتوقعاته، إذا ما وصلت تلك المنظمات إلى السلطة. كذلك كان حال البلشفية، وحزب الشيوعيين الألماني وحزب الوحدة الاشتراكي الألماني، وللأسف كذلك كان أيضًا حال جبهة التحرير الوطني بالجزائر والمؤتمر الوطني الأفريقي بجنوب أفريقيا.

يمكن أن نتساءل في غضون ذلك عمَّا إذا كان قد مر وقتٌ كافٍ ليحاول الإنسان أن يحدد تصورًا لمستقبلٍ تسوده مجتمعاتٌ أكثر آدمية. فقد تحطم الاقتصاد المخطط مركزيًا بخطتة الخمسية بحلول الربع الأخير من القرن العشرين. ولم تتم الاستفادة من تلك الفترة، فالحسنة الوحيدة لها تتمثل في ابتكار نظريات الاشتراكية المُدارة ذاتيًا، كما عرَّفها الاشتراكيون الطوباويون في القرن التاسع عشر، حيث حدد اتحاد المجالس الاستشارية، الذي شكلته الديمقراطية الشعبية، دور السياسة والاقتصاد في تلك المجتمعات المصورة. إذ يكمن أساس الفكرة في أن المجتمعات تشبه الحاسب الآلي الذي يمكن برمجته.

في الماضي كان أكبر آمال مديري الاقتصاد في ألمانيا الشرقية، الذين تملكهم الشغف بالسِبرانية (علم القيادة أو التحكم في الأحياء والآلات ودراسة آليات

التواصل) واعتبروها أساسًا لعلم التحكم والضبط، هـو معالجـة مشـاكل إدارة الاقتصـاد من خلال تطبيق تقنياتٍ لمعالجة المعلومات. ولم يكن النقص في الإمكانات التقنيـة هـو السبب الوحيد وراء فشل تلك المساعي. فحتى يومنا هذا لا يزال المنظرون يعـبرون عـن طوبـاويتهم الاشـتراكية التقنيـة، إذ قـام الصـحفي اليسـاري والأديـب "ديـتمار دات" Dietmar Dath بابتكار هيكلٍ استشاريٍ مبنيٍ عـلى الشـبكة، حيـث رأى أن "المنصـات والمجالس النيابية والمجالس الاستشارية وأجهزة ربط الشبكات (كلهـا بالنسـبة لــ"دات" مرادفات لأجهزة تمثيلٍ أساسيةٍ معدَّةٍ تقنيًا) لا بد وأن تصبح أجهـزةً مبرمجـةً بتكليفـاتٍ معينةٍ لكي تقوم بالعمليات الحسابية التي توكل إليها من قبـل جهـات الإنتـاج وجهـات تنسيق الإنتاج الخاص بالمجتمع" وذلك وفقًا لمعاييرَ اجتماعيةٍ مُثلى كالاستدامة[1].

ولكن إذا اعتبرنا اقتصاد المجتمع جهازًا مُكلَّفًا بالوصول إلى كمٍ محـددٍ مـن الأهـداف وبرمجتها بشكلٍ مناسب، فنظريًا يمكن لذلك أن يتحقق، أمَّـا عمليًـا فلـيس الأمـر بتلـك السهولة.

لا شك أن مراقبة المستهلك وإعداد البيانات الكبيرة يتيحان فرصة توفير تكهناتٍ دقيقةٍ لسلوك مجموعاتٍ أكبر من البشر، إلا أن هذه التكنولوجيا تفشل في التنبؤ بما يتعلـق بالحـالات الفرديـة. فهي مثلًا تلعب دورًا محدودًا في الحرب على الإرهاب، كما أنني على سبيل المثال أتفاعل مع أوجه قصـورها كـل يـوم، وذلـك عنـدما ترشـح لي إعلانـات "الفيسـبوك" بضـائع لم أقـم بشرائهـا

1- Dietmar Dath, Klassenkampf im Dunkeln; KVV konkret, Hamburg 2014, S.21.

مؤخرًا أو لن أنوي شراءها أبدًا. فالبشر دائمـي التغـير، إذ تظـل احتياجـاتهم وأولويـاتهم ومدى إقبالهم على المجازفة في تغيرٍ مسـتمر. ومـن حسـن الحـظ أن هـذه هـي شـيمة الأفراد، منتجين كانوا أو مستهلكين، فبهذا يمكـن لأي فـردٍ أن يـأتي بفكـرةٍ لمنـتجٍ جديـد، فيتمتع بإقبال الجماهير، حتى وإن لم يروا أو يتصوروا شيئًا مثله من قبل. فمَـن يتصـور أن مجتمـع المسـتقبل سـيكون مجتمعًـا ثابتًـا، سيتصـور أن الاقتصـاد سيصـبح محكـم التخطيط، سواء أكان تخطيطًا مركزيًا أم ديمقراطيًا شعبيًا. أما عـن الناحيـة البيئيـة، فلا يعتبر الاقتصاد الثابت، الذي يفتقر إلى الإبداع، أمرًا إيجابيًا ولا عقليًا. إنني لا أترافع هنـا في صف الاقتصاد غير المنظم، بغض النظر عن عدم وجوده، إلا أنه يعتبر تجربة يمـر بهـا كل مَن لا يلتزم بقـوانين التعاقـدات أو اللـوائح. فالدولـة تقـف خلـف كـل سـلعةٍ يـتم إنتاجها. وقد توصل "ماكس شتيرنر" Max Stirner لهذه النتيجة التي كادت أن تـذهب في طي النسيان، إذ رأى أنه لا بد وأن نُذكر بعضنا بعضًا بمـا يـتردد بـين أنصـار الأناركيـة الفردية إمَّا بشكلٍ استحساني أو نقدي عن أن "الأسواق" تشكل قوةً مستقلة.

كلا، فقد تأكدت (وأنا شـخصٌ أنظـر حـولي جيـدًا) أنـه لا يوجـد سـبيلٌ للوصـول إلى معلوماتٍ حول نظامٍ اجتماعيٍ مختلفٍ وفي الوقت نفسه أفضل.

نحن نسـمع عـن "النظريـة المتطرفـة الجديـدة" للأفكـار الثوريـة الملائمـة للعصر. ومَن يتتبع ذلك الأثر سيصل إلى كتابـاتٍ تختلـف عـن ثقافـة كتابـة النظريات اليسارية ولها مصطلحاتها الخاصة. فبعـد قـراءةٍ مُحبِطـة لعـددٍ لا

بأس به من الكتب والمقالات، اكتشفتُ أن لقاء هذا الكاتب أو ذاك وجهًا لوجهٍ والحوار معهم يساهم في إيضاح الأمور. فالاتجاه الذي ساد في جنوب أوروبا للمشاركة في الحركات الاجتماعية لم يكن في سبيل تطبيقها بشكلٍ عملي، بل كان لمجرد الإنصات إليها والتقاط أفكارها. فلن نُسلم مفهوم مجتمع المستقبل للأجيال القادمة بهذه البساطة، بل سنبحث عنه في الأماكن التي تحدث فيها الحركة. تبدو تلك العبارات مضادةً للينينية ولكنها مقبولة. صحيح أن تلك النظرية لم تتوصل لأيٍّ شيءٍ حتى الآن، إلا أن ذلك ليس مستحيلًا، فلا يجب أن نفقد الأمل.

ينتمي إلى "المنظرين المتطرفين الجدد" أنصار ما بعد الحركة العُمَّالية، هكذا كان يُدعى كل مَن كانت تنشئته الاجتماعية السياسية في إطار تيار الحركة العمالية (وهو النسخة الإيطالية من أناركية عمال المصانع). يعتبر كلٌّ من ممتهن الثورية "توني نيجري" Toni Negri، والمنظر الأمريكي في مجال الأدب "مايكل هاردت" أشهر أنصار ما بعد العمالية؛ فقد ألفا العديد من الكتب الضخمة، أشهرها كتاب "الإمبراطورية" الذي ظهر في عام2000[1]. وقد قام المؤلفان بتحليل العالم الغربي ككيانٍ معقدٍ بلا مركزٍ محدد، إلا أنه يسيطر على السلطة، التي تترسخ فوق مجتمعنا المعاصر وكأنها شبكة (فقد قرآ ذلك في أحد كتابات "ميشيل فوكو" الذي تناول "الفيزياء الميكروية" بالتفصيل). وفقًا لـ"نيجري" و"هاردت"، يتحكم رأس المال في كل من

1- Michael Hardt, Antonio Negri, Empire; Campus, Frankfurt/M 2002.

"الذاتية" والجسد والروح والعلاقات الإنسانية، إذ ترتبط تلك العناصر ببعضها بعضًا بشكلٍ غير قابلٍ للتمزق. فبذلك لم يعد يوجد مكانٌ متميزٌ لحدوث الانتفاضات الثورية. ولم يتبقَ للمظلومين أيَّ مخرجٍ آخر سوى بناء أشكالٍ من التعاون تمكنهم من التخلص من القيود المتحكمة فيهم بدلًا من السير عكس التيار. وهذا هو ما تم تناوله في الفصل السابق في سياق الجمعية الصغيرة بوصفها تقليدًا قديمًا.

لا يمكن لأحدٍ أن يعترض على تجاربهم، إلا أن استخدام تلك الممارسات لتصور مبدأ قابلٍ للتعميم على الأنظمة الاجتماعية، خاصةً تلك التي تتعلق بالنقود والبضائع، لم يؤتِ ثماره حتى الآن. فبدلًا من أن يقدموا نظريةً ما، لا يعرض ممثلو العامة (كما يُطلق عليهم أثناء ذروة الثورات) سوى بعض المصطلحات الاستشارية أو الكلمات الموسيقية (التي تطلق العنان لتشكيل مفرداتٍ جديدة، بل وعلم وجودٍ جديد، دون تقديم أية أدلة داعمة)[1].

بعبارة أخرى، بعد انهيار الرؤى المستقبلية المعادية للسامية، لم تظهر أيُّ رؤى ثابتةٍ جديدة، مما يعد خسارةً فادحة، فلن يتسنى لنا إدراك الأوضاع القائمة بالفعل إلا إذا تمكنا من قياسها أمام إجراءٍ مضادٍ أو على الأقل وضعها أمام أفقٍ طوباوي. ومن ناحية أخرى، لا تحتاج ثورات الحاضر الحقيقية إلى تلك الطوباوية.

1- Eklatant: Silke Helfrich, David Bollier und Heinrich-Böll-Stiftung (Hg.): Die Welt der Commons. Muster gemeinsamen Handelns; transcript Verlag, Bielefeld 2015.

إصلاح العالم أم إنقاذه؟

سعت الثورة التونسية لقيام جمهوريةٍ شعبية، لا أكثر ولا أقل. كما اندلعت موجة "الثورة الملونة" في كل من چورچيا (2003) وأوكرانيا (2004) وقيرجيزستان (2005) انطلاقًا من الرغبة في الوصول إلى مستوى أوروبي من الحداثة على الصعيدين السياسي والاجتماعي، وليس الرغبة في تجاوز ذلك المستوى.

وحتى الآن لا نستطيع أن نجزم عمَّا إذا كان افتقارنا إلى نظريةٍ ثوريةٍ جديدة يعود علينا بالضرر. فلا بد وأن نسأل أنفسنا، بالنظر إلى الوضع الحزين للعالم، عمَّا إذا كان التركيز على الإنقاذ والإصلاح أكثر صحية من محاولة إطلاق بدايةٍ جديدة. وقد كانت هذه هي الفكرة الرئيسية لعددٍ من فلاسفة اليسار المتطرف مثل "أندريه جلوكسمان"André Glucksmann و"بيرنارد هينري ليفي" Bernard Henri Lévy (الشهير باسم BHL) الذي يصف موقفه باليسارية الميلانخولية في مقابل اليسارية العاطفية، فهي ليست يساريةً حزينةً أو متشائمة ولكنها لا ترى العالم بصورةٍ سماوية لدرجة تَصرف الانتباه عن أنه لا يزال يوجد الكثير لفعله كي لا يصبح العالم أكثر جحيمًا. وقد قال لي "ليفي" ذات مرةٍ إن اليساريين العاطفيين (بإيمانهم بالتطور المبني على أساسٍ تاريخيٍ مادي) لا يختلفون كثيرًا عن الأسواق المتطرفة التي تؤمن بوجود يدٍ خفيةٍ وراء تحقيق المصالح. ويرى "ليفي" أنه

على الفلاسفة أن يتفهَّموا أوجه الشر وكيفية تخطيه لخلق أشكالٍ للحياة بدلًا من أن يتفقوا على أوجه الخير.

كثيرًا ما تم إلقاء اللوم على "جلوكسمان" و"ليفي" خاصة وأن إسهامهم السياسي أحيانًا ما يسوقهم إلى صفوف "نيكولا ساركوزي"، السياسي القومي، حيث إن اعتبار السياسة نشاطًا طبيًا لا محاولة ثورية هو مفهومٌ لم يعترض عليه أحدٌ حتى الآن. فلا بد من إسقاط الأوضاع التي لا تجلب إلا المعاناة، والطب معروفٌ بعملياته البطولية.

ومنذ فترة وجيزة، توصل فيلسوفٌ يساريٌّ شابٌّ يدعى "مهدي بلحاج قاسم" إلى فكرٍ مشابهٍ عندما تحرر من مُعلمه "آلان باديو"، المنظر الشهير الذي كان من أنصار "ماو" سابقًا. وقد قابلت "قاسم" في مقهى بباريس وكان الشر هو محور الحديث الهادئ الذي دار بيننا. إذ قال لي إننا لا بد أن نتعلم أن نندهش من الشر، "فقد قلَّت حدة الشر، لأن أغاني الراب والميتال والمسلسلات البوليسية تعرضه كل يوم ويتعامل معه الفلاسفة وكأنه أمرٌ مسلمٌ به، ثم يُمعنون التفكير في الخير". ويُعرف "قاسم" الشر بأنه: "معاناةٌ إضافيةٌ جلبها الإنسان إلى العالم، فالحيوانات لا تعرف التعذيب". ويرى "قاسم" أن مشروع البشرية الحقيقي يكمن في إعادة إصلاح الشر الذي جلبه الإنسان بنفسه إلى العالم[1]. يا لها من مقولةٍ متطرفةٍ رافضةٍ للفكر الثوري، من اليسار!

1- Mehdi Belhaj Kacem, Après Badiou; Grasset, Paris 2011, S.35.

6

الثورة تتحدث

حينما وقفتُ يوم الرابع عشر من يناير عام 2011 مع عشرات الآلاف في الشارع العريض المعروف باسم شارع "الحبيب بورقيبة"، وقع نظري على لافتةٍ من الورق المقوى رفعها شابٌ تونسي عاليًا، وكُتِب عليها: "انتهت اللعبة – Game over".

فكرت في نفسي قائلًا: "لا تخدعوا أنفسكم. سيغير الديكتاتور "بِن علي" التكتيك الخاص به، ويؤلّف حكومةً إصلاحية (ألم يقُل في الليلة السابقة على شاشة التليفزيون "أنا فهمتكم"، تلك الصيغة التي كان "ديجول" قد نجح بسببها؟) لكن لعبته لم تنتهِ بعد". كان هذا ما دار بخلدي. وما هي إلا ساعاتٌ قليلةٌ حتى هرب الديكتاتور (أو بالأحرى، دفعه فرسانُه إلى الهرب أملًا منهم في أن يتمكنوا من الإبقاء على السلطة). لكن سقوط النظام كان مفاجأة. فالثورات تندلع على نحوٍ مباغِت.

إلا أنه نادرًا ما يبدو الوضع على هذا النحو فيما بعد. إذ تظهر تفسيراتٌ لكل شيءٍ بعد ذلك. وتقريبًا يُصاب معاصرو الحدث بالدهشة دائمًا؛ فالثورة الأمريكية عام 1783، والثورة المكسيكية عام 1910، والكوبية عام 1959،

إلى جانب الثورة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية عام 1989 كانت كلها عبارةً عن مفاجآت. وكان شاه إيران قد أعلنها في يونيو عام 1978 قائلًا: "ليس بمقدور أحدٍ الإطاحة بي". ثم عاد "آية الله الخميني" إلى طهران بعد ذلك بأقل من عام.

تصطدم الثورات كما الصواعق بالسير المألوف للأمور. فهي ليست حوادث عرضية، وإنما وقائع. ويرى "آلان باديو" Alain Badiou - الذي أتينا في البداية على ذكر نظريته عن الحدث بالفعل - الأمر على النحو التالي: توجد حقائقُ مُسلَّمٌ بها في العموم ودون التقيد بزمنٍ معين، وتكشف هذه الحقائق عن نفسها في الحدث[1]. حسنًا، يتبع "باديو" الأفلاطونية ويؤمن بالوجود المستقل للأفكار. لكن حتى إن لم يتبع المرء منهجَه الفلسفي، فإن عرضه تنويري؛ إذ يتضح في الثورات بين ليلةٍ وضحاها شيءٌ ما، إمَّا كان منسيًا وإمَّا لم يكن قد خطر ببال أحدٍ بعد.

تنطق الثورات بشيءٍ ما. وغالبًا ما يكون هذا الشيء هتافًا تتضح فيه للعيان ماهية الثورة، أو ماهية حركةٍ ثوريةٍ ما. والنداء الكلاسيكي هو **"الحرية، المساواة، الإخاء"**، الذي ظهر إبَّان الثورة الفرنسية وما زال قائمًا حتى يومنا هذا بوصفه الشعار الوطني للجمهورية الفرنسية.

يعبِّر النداء عن أن الأمر كان متعلقًا بثورةٍ سياسيةٍ "الحرية" توجَّهت ضد امتيازات ما قبل البرجوازية "المساواة"، واعتبرت نفسها إنجاز شعبٍ

1- Alain Badiou, Second manifeste pour la philosophie; Fayard, Paris 2009, S. 95 f.

بأكمله، وليس طبقةً واحدةً وحسب "الإخاء"، حتى وإن عاد المكسب الأكبر في النهاية على أصحاب الأملاك فقط واستُثني المعدمون. لبعض الوقت، كان الشعار المنتشر هو **"الحرية، المساواة، الإخاء أو الموت"**. وصف "شاتوبريان" Chateaubriand - المعارض للثورة - في مذكراته كيف عاد من منفاه عام 1800 وتنقل عبر بلدٍ أصبح فقيرًا، ومحترقًا، ومُدَمَّرًا؛ وكيف كان غالبًا ما يقرأ هذه الشعارات على الجدران التي ظلَّت على حالها؛ كان يرى "مقاطع الموت" تلك ظاهرة تحت الطلاء الرمادي الذي لم ينجح في إخفائها بالكامل [1].

"Liberté, Égalité, Fraternité" **"حرية، مساواة، إخاء"** نداءٌ ثوري جاء في نهاية حقبةٍ زمنيةٍ فارِقة ادَّعت فيها الطبقة الأرستقراطية الفرنسية بشكلٍ جدِّي أنها تنتمي لعِرقٍ بشريٍ أعلى. مع ذلك، لا أحد ممن يسمعون هذا النداء حاليًا يُرجِعه إلى القرن الثامن عشر وحسب. إذ احتفظ النداء بصداه الأخاذ، حتى عندما نعرف، أو ربما تحديدًا لأننا نعرف، أنه لم يتحقق بعد. فهو يبين الحقيقة الكونية القائلة بأن كل إنسانٍ تقريبًا بما يتخطى حاجز الثقافات المختلفة يتمنى التمتع بمقدارٍ معينٍ من الحرية، والمساواة، والإخاء. وما يتغير بمرور الوقت وتبدل المكان هو هذا المقدار، لا النوعية ذاتها.

1- Chateaubriand, a. a. O., S. 33.

امتاز نداء ثورة أكتوبر البلشفية في 1917 بأسلوبٍ مميز آخر، فكان يقول **"السلام، والخبز، والأرض"**، حتى وإن أضاف البعض "الحرية" أيضًا. لكن الأمر لم يعد متعلقًا بالحرية حينها، فقد أُطيح بالقيصر في شهر فبراير بالفعل، لكن الحرب استمرت "السلام"، وعانت الطبقة العاملة في المراكز الصناعية القليلة والمهمة مع ذلك من الجوع "الخبز"، وقضى العوز الزراعي على "الأرض"، ماذا دون ذلك؟

تعهَّد البلشفيون بتقديم مساعدات، وهو وعد لم يتمكنوا من الالتزام به إلا جزئيًا. إذ لم يتحقق السلام على الرغم من الاستسلام، وذلك بسبب بدء حربٍ أهلية أشعلت فتيلَها قوى الثورة المضادة. كما أصبح الخبز في ذلك الوقت أقلَّ مما كان عليه في السابق، أما الأراضي الموزعة على المزارعين فكان من المُفتَرَض أن تؤخذ منهم لاحقًا لتُدار وفقًا لمبادئ جماعية.

بوسعنا حتى أن نتساءل ما إذا كانت هذه ثورةً من الأساس. إذ ربما تلوح حجةٌ قائلةٌ بأنها لا تستوفي معيار الحرية عند "كوندورسيه"Condorcet ، لكن الثورة البلشفية حالت - كما هو متوقَّعٌ بالطبع - دون قيام انقلابٍ عسكري، كان من شأنه تحطيم كل الحريات المدنية مرةً أخرى. وهناك حجةٌ أخرى مفادها كالتالي: صحيح أن البلشفيين كانوا يمثلون الأغلبية في مجالس العمال والجنود، لكن وضعهم لم يكن كذلك بين الجماهير، وذلك طبقًا لانتخابات الجمعية التأسيسية لوضع الدستور التي تلت اعتلاء السلطة (وقد قام "لينين" بحلِّ هذه الجمعية أيضًا فيما بعد). مع ذلك لا يمكن قياس

الطبيعة الحاشدة لثورةٍ ما بناءً على ما إن كانت الأغلبية أيضًا تتبعها. فصحيح أن الأحداث الثورية في باريس وباقي المدن الفرنسية الكبرى كانت مصحوبةً بثوراتٍ للفلاحين في أنحاء البلاد كافة، لكننا لا نعرف ما إن كانت الأغلبية في هذه الدولة الزراعية قد تبعت ثوار المناطق الحضرية، ناهيك عن أنه لا أهمية أيضًا للسؤال عمَّا إن كانت هذه ثورةً بحق.

ربما يمكن الاتفاق على التالي، تُعدُّ ثورة أكتوبر البلشفية بمثابة فردٍ من الأسرة بعيدٍ نوعًا ما. إذ يمكن القول بعبارةٍ أخرى إنها ابن عمٍ من الدرجة الثانية، فضلًا عن كونها فرد عائلةٍ يثير الامتعاض بسلوكه. إلا أننا لو نظرنا إلى ما وراء ملابسات تلك الفترة، سنجد أن نداء الثورة "**السلام، والخبز، والأرض**" يبين في واقع الأمر حقيقةً عالميةً ألا وهي رغبة البشر في العيش بأمان.

نداءات، وهتافات، وشعارات

"**فلترحلي يا روسيا**" Russia go home، سرعان ما أصبح هذا نداء الثورة المجرية عام 1956، الذي عكس بجلاءٍ أن الأمر كان أكثر من مجرد تمرد. إذ رغب الثوار في وضع نهايةٍ للاشتراكية السوفيتية التي كانت قد فُرِضت عليهم حتى ذلك الحين في نسختها الأسوأ، ألا وهي النسخة الستالينية.

"**الخيال في السلطة!**"، كان هذا أحد أشهر هتافات أحداث مايو 1968 في فرنسا. إذ قدَّم برهانًا على أن هذا الحدث انبعث من الرغبة في تجديد الثقافة

السياسية وإضفاء السحر على الحياة اليومية. فاستولى شبابٌ من الأكاديمين على مسرح "أوديون" في باريس وحوَّلوه إلى جمعيةٍ دائمة الانعقاد تحت شعار "عندما تصبح الجمعية الوطنية مسرحًا من مسارح عامة الشعب، يجب على كل مسارح عامة الشعب أن تصبح جميعاتٍ وطنية".

أما شعار "نحن الشعب"، الذي كان أحد أهم شعارات المظاهرات في جمهورية ألمانيا الديمقراطية عام 1989، فقد تمتع بقوة تفجيرٍ خاصة، لأنه كان موجهًا ضد شائعات الشعب، التي أطلقها أصحاب المناصب العليا باستمرار؛ إذ كان هذا الشعار بمثابة استردادٍ للفكرة عن طريق الجماهير نفسها وعبَّر بشكلٍ دقيقٍ عن طبيعة الثورة الديمقراطية. فضلًا عن ذلك، يتضح فيه التأثير المتواصل للعُرف الثوري، كما أنه يرجع إلى قصيدةٍ للشاعر الثوري "فرديناند فرايليشجراد" Ferdinand Freiligrath (1810 – 1876):

فلتدعموا كل ما يتداعى!

فلتكونوا صناديق منغلِقة.. لا تستسلم لشيء!

نحن الشعب.. نحن الإنسانية،

ولهذا سنبقى خالدين، رغم كل شيء!

الإنسانية إذًا. أسوأ ما في الأمر أن هذا النداء صار يُستَخدَم حاليًا بالمعنى المُضاد، وذلك كهتافٍ عنصري، مُوجَّهٍ ضد الأجانب، وضد الدولة الدستورية، وضد ممثلي الشعب المُنتَخَبين، هتافٌ ثائر، لكنه رجعي. وعلى ذِكر هذا، نجد

أن "فرايليشجراد" نفسه كتب قصيدة الحرب المُستَهجَنة "تعيش جرمانيا" بسبب الحرب ضد فرنسا عام 1870.

"La Gwadloup sé tan nou, La Gwadloup sé pa ta yo" – **"جوادلوب لنا، جوادلوب ليست لكم"**، سمعت هذا الهتاف في فبراير عام 2009 في هذه المنطقة الكاريبية الفرنسية، وقد جاء مصاحبًا لانتفاضةٍ تضمنت إضرابًا عامًا ومتاريس أُضرِمت فيها النار. المقصود بالضمير "نحن" في هذا الهتاف هو جماهير المنطقة من ذوي البشرة السمراء بالدرجة الأولى، والمُتحدِّرون من نسل العبيد؛ أما "أنتم" فكان يُقصَد بها رجال الأعمال في الجزيرة من ذوي البشرة البيضاء في المقام الأول، بما في ذلك أحفاد المستعبِدين. استمر الترنُّم بهتاف "Sé tan nou" لأيامٍ وأسابيعَ حتى حلول المساء، مصحوبًا بموسيقى قارعي الطبول ونافخي الأبواق المصنوعة من الأصداف البحرية. إلا أن "نحن" تلك ليست خاليةً من المشاكل كُليًا. فهي تشمل عمَّال ميناءٍ دقيقي التنظيم، يكسبون أموالًا مثلما يكسب المرء في فرنسا ويحتفظون بعبيدٍ من "هايتي" يعملون لديهم وفي منازلهم. إلى جانب ذلك، تُعد "جوادلوب" في العموم الوجهة التي يلجأ إليها كثيرٌ من المهاجرين الكاريبيين؛ لأن اقتصاد الجزيرة مدعومٌ بقوةٍ من قِبَل فرنسا، كما أنه يعْلَق نتيجةً لذلك نوعًا ما في فئات الدخل الأدنى. يتضح عند النظر للأمر من هذه الزاوية أن الانتفاضة لم تكن أكثر تحريرًا من الإضرابات العادية

المصحوبة هـي الأخـرى بهتافـاتٍ ثوريـة، وأغـانٍ، وحفـلات شـواء، وخُطَـب تضـامنٍ في المنشآت العامة الفرنسية وغيرها من المؤسسات الكبرى الأخرى، التي يحظـى موظفوهـا حتمًا بالامتيازات عند مقارنتهم بالعاملين في المنشآت الأصغر بالدولة.

Dégage!، "**ارحل!**"، كان هذا نـداء الثـورة التونسـية عـام 2011. وقـد لخَّـص الأمـر بإيجازٍ هو الآخر على النحو التالي؛ أولًا، ضاق التونسيون ذرعًا بتعرضهم للنهب من قِبـل العصابة المحيطة بـ"بن علي"، وسئموا من تعرضهم للقمع وجعْلِهم أضحوكة. وثانيًا، كان لنداء "**ارحل!**" الفظِّ - على وجه الدقة - تلك النغمة الوقحة، التي قد جاء عزفُها بمثابـة عملٍ تحريري.

سافرتُ في العام نفسه إلى الجزائر حيث تاقت حركةٌ ديمقراطية صغيرة إلى أن تشـهد ربيعًا عربيًا هي الأخرى. لكن ضد مَن يتعين عـلى هـذه الحركـة أن تتوجـه؟ إذ لم يكـن للنظام الحاكم، المكَوَّن من دوائـر سـلطةٍ متعـددة، مـوطن ضـعف "سـيجفريدي" مثـل نظيره التونسي. وبدا لي واضحًا وضوح الشمس في كبد السماء أنه ما من شيءٍ قـد يـنجم عـن هـذه الحركـة، حـين رأيـت لافتـةً مكتـوبٌ عليهـا Système dégage! "**ارحـل أيهـا النظام**".

شهدتُ في السنغال من ناحيةً أخـرى مظـاهراتٍ حاشـدةً عـلا فيهـا هُتـاف Y'en a marre، أيْ **فـاض الكيـل**، وهـي لغـةٌ واقعيـة. اتسـمت تلـك الحركـة الشـعبية بـالقوة، ونجحت في التخلص من "عبد اللـه واد"، رئيس الدولة الأزلي، لكنها لم تتمكن من تغيير أيِّ شيءٍ في نظام الحكم وامتيازات النخبة.

يتطلب فهم ثورةٍ ما أو حتى تمردٍ ما من المرء أن يسمع ما تقوله، أو أن يراقب عن كثب، عندما تبقى صامتةً، وعندما لا تكون أماراتها مجرد هتافات، بل سياراتٍ مُحترِقة واشتباكاتٍ في الشوارع مع رجال الشرطة، مثلما حدث إبان اضطرابات فرنسا عام 2005، التي استمرت لأسابيع. ولم تسفر عن أي شيء سوى ذكرى الكراهية، بسبب الشابَّين اللذين أفضت وفاتهما بعد تفتيش من قِبل الشرطة إلى إثارة الغضب، وبسبب ردود الشرطة. إنها ذكرى ساهمت في خلق التطرف داخل مناطق "البونليو" (أي الضواحي) بالمدن الفرنسية.

يستولي الشباب منذ عدَّة سنواتٍ في كثير من دول العالم على الميادين العامة، وهو أمر مشابهٌ للهتاف تقريبًا هو الآخر؛ فهم يمارسون حق التدخل في السياسة، كما هو الحال في ميدان "التحرير" بالقاهرة، وميدان "الاستقلال" في كييف، وحي "الأميرالية" في هونج كونج، ومنتزه "جيزي" في إسطنبول، وساحة "ليبرتي بلازا" في "مانهاتن"، وساحة "بويرتا ديل سول" في مدريد، وميدان "سنتجما" في أثينا. وليس الأمر نابعًا هذه المرة من شباب أحياء الأقليات بالمدن، إذ جاء الاحتجاج في المقام الأول منبثقًا من الطبقات الوسطى، خصوصًا تلك الطبقات التي ساهمت بشكلٍ أو بآخر في العولمة. فمن الجَلي أن شيئًا جديدًا يحدث هنا. لكنه لم يُفضِ إلى إنتاج أي تصورات، إذ ما زال أحد قوالب إضفاء الطابع السياسي يبحث عن جوهره.

تجمَّع العبيد الثوريون منذ القِدم، بما في ذلك هؤلاء الذين كانوا موجودين قبل "سبارتاكوس"، في لقاءاتٍ من أجل التحدث بشأن نهجِهم. فالثورة، أيًا كانت، عبارةٌ عن انخراط عناصر فاعلةٍ جديدةٍ في الشئون العامة. تميل الحشود الكبيرة إلى تسييس ذاتها في الثورات، ويشكل هذا عمليةً مصحوبةً في الغالب أيضًا بأشكال تعبيرٍ جديدة وأصلية. إذ كتب الطبيب الإنجليزي" "إدوارد ريجبي" Edward Rigby إلى زوجته يوم التاسع من يوليو عام 1789، أي قبل خمسة أيامٍ من اقتحام سجن "الباستيل": "يتحدث الجميع عن السياسة، وتُباع الجرائد في الأركان بالطرقات، وتنخرط جماعاتٌ كبيرة باستمرارٍ في نقاشٍ جادٍ داخل القصر الملكي"[1]. ويقال إن عدد المؤلفات التي طُبِعت في العِقد الأول بعد عامٍ 1789 داخل فرنسا يزيد عمًّا طُبِع في المائة عامٍ السابقة[2]، إذ تتضمن تلك المؤلفات الأعمال الكاريكاتيرية والمجلات الهزلية إلى جانب المنشورات والكتابات الجدلية الساخرة، التي لجأت إلى استخدام لغةٍ دارجةٍ رديئة.

لم يكن ما عايشته في عام الثورة بتونس مختلفًا، ففي الدولة التي تكوَّن فيها الخطاب العام حتى ذلك الوقت من أناشيد تمدح حكومة "بن علي" الرشيدة بينما التزم الشعب الصمت، وقف المواطنون في الشوارع، الذين لم يكونوا في السابق سوى رعيةٍ خاضعة، وراحوا يتناقشون فيما بينهم. ما

1- Landauer, a. a. O., S. 142.

2- Reichardt, a. a. O., S. 191

الطريقة التي يجب علينا المواصلة بها الآن؟ كيف يمكن الحيلولة دون أن تتنزع العصابة البائدة السلطة من جديد؟ هل نحتاج إلى دستورٍ جديد، ومن ثَمَّ إلى جمعيةٍ تأسيسية لوضع الدستور، ومتى يجب علينا انتخاب أعضائها؟ كلما كان يظهر أجنبي ما، يقترب منه أحدهم بشكلٍ متعذر الاجتناب، كي يحكي له الوقائع من منظوره حاثًّا إياه على نشرها في العالم. كما تواصل الحديث في المدونات وخصوصًا على "الفيسبوك" الذي شكَّل أسلوب مشاركةٍ جماعيةٍ استثنائيًا من الناحية التاريخية حتى الآن. فالحشود تتحدث إلى نفسها في الثورات.

7

الحشود والطبقة

عودة مرة أخرى إلى يوم الرابع عشر من يناير عام 2011، وفي تـونس مجـددًا. يقـف الناس منذ ساعاتٍ أمام مجموعة المباني المُحصنة لوزارة الداخليـة، يتغنـون بالشـعارات، الأجواء متوتِّرة، لكنها حماسية في الوقت ذاته. التزمت الجماهير الصـمت فجـأة، حيـث اقتربت منهم مسيرةٌ احتجاجيـةٌ قادمـة مـن الضـواحي - أيْ الأحيـاء الفقـيرة بالمدينـة - وبدت مختلفةً عن جَمْع الطبقة المتوسطة. فالثياب ليست ملونة، بل تجمع بين الأسـود والأبيض. والوجـوه شـاحبةٌ ومتجهمـةٌ ذات نظـراتٍ مُتَقِـدة؛ أمـا ملامحهـا فكانـت تشي بالحياة المريضة، وبالعزم أيضًا.

لا هتافات. وإنما نعشٌ بداخله شخصٌ لقي حتفه رميًا بالرصاص. فقالت سيدةٌ كانـت تقف إلى جانبي بصوت أجش: "ها قد جاء الشعب".

شعر الجميع أن الوضع سيتغير الآن، فهو حدثٌ تاريخي.

لم تكن حركات الانتفاضة في الولايات التي فتك بها الفقر حركاتٍ سياسيةٍ في بادئ الأمر، بل حالات تعبيرٍ عن السخط، إذ كانت قد استمرت في المـدن السـاحلية الحديثـة التـي تعـيش فيهـا الطبقـة المتوسـطة التونسـية، ثـم

بدأت الحركة في التعبير عن نفسها سياسيًا، ولم يحدث ذلك بحق، إلا عندما وصلت الحركة إلى الاتحاد العام التونسي للشغل وأخيرًا إلى العاصمة. لكنها اكتسبت عنفوانها في اللحظة التي عزم فيها الفقر في المناطق الحضرية على خوض الصراع.

عندما صار الديكتاتور خارج البلاد في نهاية الأمر وتشكَّلت حكومةٌ مؤقتةٌ من ممثلي النظام القديم، لم يغمد الشعب سيفه. إذ تدفق الفقراء من جميع الأنحاء إلى تونس، واستولوا على ساحة "القصبة" المقابلة لقصر الحكومة، وتصدُّوا هناك لأعمال الشرطة، ومارسوا ضغطًا ليُجرى تعديلٌ وزاريٌّ وراء الآخر، إلى أن تقرَّر في آخر الأمر موعدٌ لانتخاب الجمعية التأسيسية لوضع الدستور.

تداول في هذه الأثناء المواطنون الأيسر حالًا في البلاد مرارًا وتكرارًا الرأي التالي: حسنًا، يكفي هذا الآن. لكنهم بعد ذلك تركوا التوابع، التي انشغل بها الفقراء، تجرفهم مرةً أخرى إلى أن تحطمت في آخر الأمر هيمنة ممثلي النظام القديم داخل المضمار السياسي. فعاد الفقراء إلى مساكنهم، حيث اتضح لهم أن أوضاعهم لم تتغير؛ في حين تمكَّن عامةٌ الناس من ناحيةٍ أخرى من استئناف أعمالهم من جديد، متحررين من كليبتوقراطية، أيْ نظام حكم اللصوص، النظام القديم واستبداده. تقاطعت المصالح عند حدٍّ تاريخي، لكن هذا الحد تم تخطيه في تلك الأثناء.

يُمكن أن يُكتَب الآن عن مصطلحات مثل "طبقة" أو "فئة اجتماعية" كتابٌ كامل، لا، بل مكتبةٌ بأكملها، ثم تُضاف إلى المكتبات الموجودة بالفعل حول هذا الأمر. لكن حَريٌّ بنا أن ندع الأمر وشأنه عند هذا الحد، وأن ننتقي جانبًا واحدًا فقط من تعريف "لينين" المتعارف عليه للطبقات، الذي يبدأ بالكلمات التالية: "يُطلَق مُصطلح طبقاتٍ على الجماعات الكبيرة، التي تختلف عن بعضها وفقًا لمكانتها في منظومة الإنتاج الاجتماعي المُحدَّدة تاريخيًا[1]". حسنًا، يُفترَض بهذا أن يكون كافيًا، فالبقية تتناول المخطط الماركسي لمِلْكية وسائل الإنتاج ومصادر الدخل المرتكزة عليها. لهذا الموضوع أيضًا مراجعٍ لا نهائية، ونخص بالذكر هنا المراجع الماركسية الذي كافحت من أجل فرض توافقٍ بين نظرية "كارل ماركس" عن الاستقطاب التبسيطي للمجتمع في البروليتاريا والبرجوازية وبين عالم اليوم الذي يزداد تعقيدًا. لسنا بصدد المشاركة في هذه اللعبة هنا، لكننا نرغب فقط في توثيق فكرة أن الأمر يتمحور حول "جماعاتٍ بشرية كبيرة" مُحدَّدةٍ اجتماعيًا، لديها مصالح متوافقةٌ وغالبًا ما تتسم بسلوكياتٍ خاصَّة. وتندرج بالمثل تحت هذه الجماعات الأقلياتُ المُعرَّضَة للتمييز، التي تُخَصَّص لها مواضعُ معينةٌ في إطار التواصل الاجتماعي، فهناك السود، والمثليون، وغيرهم الكثيرون. تشمل

1- W. I. Lenin, Die große Initiative, in: LW, Bd 29, S. 410.

هذه المجموعات النساءَ أيضًا، فهن على كل حال يُشكِّلن نصف البشرية، الذي يُمثِّل كُتلةً جمعيةً بموضوعيةٍ وبناء على مصالحه.

لننظر مرة أخرى إلى ثورة العبيد لـ"سبارتاكوس". هل أنشأ العبيد طبقة؟ ليس بالمعنى الماركسي على الأقل، ففي أثناء حقبة "سبارتاكوس"، لم يلعب هؤلاء العبيد سوى دورٍ ثانوي في الحياة الاقتصادية الإنتاجية أو في علاقات الإنتاج، إذا صح التعبير؛ إذ كان يُنظر للعبيد في المقام الأول بوصفهم مقتنياتٍ ثمينة. وكان الظفر بمكانةٍ اجتماعيةٍ رفيعة يتحقق من خلال عملهم كخدم، أو مهندسين معماريين، أو شعراء، أو أطباء، أو ببساطةٍ عن طريق امتلاك المصارعين.

كان العبيد في أغلب الأحيان أشخاصًا عرفوا الحرية فيما مضى، ثم أُخِذوا أسرى في الحروب. وبينما طابت لبعض العبيد المُترَفين حياتهم الجديدة، كان في انتظار المصارعين من أمثال "سبارتاكوس" نهايةٌ محتومةٌ ومريعة. لكنهم كانوا مُدَرَّبين على استخدام الأسلحة الفتَّاكة. ما المُنتَظَر بجلاءٍ إذًا سوى قيام انتفاضة؟ فالصلة بين الوضع الاجتماعي والتمرد (إن لم نكن نرغب في تسميته بالثورة) كانت مباشرةً لأقصى حد.

لا يمكن قول الشيء ذاته بوضوحٍ عن انتفاضات واضطرابات القرن السابع عشر في إنجلترا، وفرنسا، والمجر وأي مكانٍ آخر. إذ تناحرت فصائلُ شتَّى من النبلاء والجماعات ذات التوجهات الدينية فيما بينها، وحارب أمراء الأقاليم سلطة الدولة، بينما ثار الفلاحون - شأنهم شأن مَن سبقهم في

القرون الماضية - على الأعباء الضريبية المضنية، وعلى الجانب الآخر، تصدى المواطنون للأضرار الجائرة التي تعرضت لها أعمالهم التجارية. بالنسبة لفرنسا، هناك تاريخٌ يشير إلى الصحوة السياسية للطبقة الوسطى، تتمثل هذه الصحوة في الجمعية الوطنية في فرنسا قديمًا منذ 27 أكتوبر عام 1614 وحتى 23 فبراير عام 1615، والتي كانت عبارةً عن اجتماعات لممثلي النبلاء، ورجال الدين، و"الطبقة الثالثة" (أي مَن ينتمون إلى الطبقة الوسطى والعليا من غير النبلاء)، كان البلاط الملكي يدعو إلى عقد هذه الاجتماعات في اللحظة التي يُرتِّب فيها البلاط لمركَزة السلطة السياسية. وكان بمقدور كل الرجال، ممن تصل أعمارهم إلى الخامسة والعشرين فما بعدها، ولديهم محل إقامةٍ معلومٍ ويدفعون الضرائب، انتخاب ممثلي "الطبقة الثالثة" وإعطاء الأوامر لهم؛ فأسفر ذلك عن الآلاف من دفاتر الشكوى، المشهورة باسم cahiers dedoléances، وكانت هذه الدفاتر موضوعةً بما لا يدع مجالًا للشك بناءً على مصالح الطبقة الوسطى التي ضاقت ذرعًا بامتيازات طبقة النبلاء وبالاستبداد الإقطاعي.

تبدو المسألة مثيرةً للاهتمام؛ لأن المؤرخ الفرنسي "أوجستين ثيري" Augustin Thierry (1795 – 1856) الموثوق لأقصى حد الذي عَمِل ببحثٍ وتحقيقٍ شديدين، انكبَّ على دراسة تاريخه؛ فكان "ثيري" أحد أوائل العامَّة الذين أولوا اهتمامًا بالكيفية التي يُصنَع بها التاريخ على يد مصالح الطبقات. إذ رأى في مطالب "الطبقة الثالثة" "توقًا إلى تحقيق المساواة

للطبقة الوسطى، وسعيًا إلى الوحدة القضائية والقانونية المدنية إلى جانب تحقيق الحرية الصناعية اليوم"، وهو "برنامجٌ ضخمٌ يشمل الإصلاحات، التي نفَّذت حكومات القرن السابع عشر جزءًا منها، في حين تحتَّم تأجيل الجزء الآخر حتى عام 1789"[1].

يُعَدُّ ارتداء الثورة الفرنسية لحُلَّة الطبقة الوسطى أمرًا بديهيًا في البحث التاريخي (ربما لن يصوغ الجميع الأمر على هذا النحو، لأن له - وبشكلٍ يبعث على الخوف - وقعًا ماركسيًا، لكن هذا هو المقصود في أغلب الأحيان). إذ مُرِّر على سبيل المثال في عام 1791 قانونٌ يمنع كل النقابات التي يُمكِن أن تنشأ بين الدولة والمواطن، أي ما قد يُطلَق عليه اليوم "المجتمع المدني". وصاغ السياسي "إسحاق رينيه جي لو شابليي" Isaac René Guy Le Chapelier، الذي سُمِي القانون تيمنًا به، الأمر على النحو التالي: "لا يوجد سوى المصلحة الفردية لكل شخصٍ والمصلحة العامة"[2]، مما يعني أنه لم يكن هناك وجودٌ للمصالح الجمعية. فقَمَع قانونُ "شابليي" نتيجةً لذلك الجمعيات العمالية وجمعيات الحرفيين كافة، أي أسلاف النقابات العمالية الحالية؛ وبالتالي أصبحت الطبقة العاملة تحت رحمة مُلَّاك الورش بالكامل.

1- Augustin Thierry, Essai sur l'histoire de la formation et des progrès du tiers-état. Les États-généraux de 1614 et le ministère du cardinal de Richelieu; in: La revue des deux mondes, März 1850, S. 825.

2- مقتبس طبقًا للمرجع التالي:

Elisée Reclus, L'homme et la Terre, Bd. V.; Librairie Universelle, Paris 1905, S. 44.

علاوة على ذلك، لم يتمكن كثيرٌ ممن ينتمون لهذه الطبقة على الإطلاق من المشاركة في الانتخابات وفي الجمهورية تبعًا لهذا؛ إذ كانوا خاضعين للضرائب وإنما بشكلٍ غير مباشر، وكان يتم في واقع الأمر اختيار ناخبين من خلال إجراءات تصويتٍ متعددة ومُتَدَرِّجة ومُطَوَّلَة، مما كان يستغرق وقتًا أطول من أن يسمح بمشاركة شخصٍ يجب عليه السعي لتوفير قوت يومه. من ناحية أخرى، تحتَّم على الناخبين - إلى جانب ذلك - دفع رسومٍ باهظةٍ للغاية. كما لم يُسمح بأي حالٍ للخَدَم والنساء بالتصويت.

يظل مع ذلك تقييم صِبغة الطبقة الوسطى - التي اتسمت بها الثورة - موضع جدل حتى يومنا هذا. إذ يرى البعض أن وجود مجتمعٍ في نهاية الثورة تنعم فيه الطبقة الوسطى بامتيازاتها يُعد خيانةً لجوهر الثورة التحريري، في حين يعتبر آخرون هذا الحكم مُعبِّرًا عن وجهة نظر لا أساس لها في التاريخ. ويشتعل الجدال بشكل خاصٍ حول شخص "روبسبير": هل كان إرهابه الثوري سلفًا غير وثيق القربة بديكتاتورية البروليتاريا الماركسية، أم كان يحمي برنامج الطبقة الوسطى؟[1] يظل اليساريون بطبيعة الحال متمسكين بالصيغة الأولى، في حين يتمسك اليمينيون بالصيغة الثانية.

كان الواقع متناقضًا في الحقيقة؛ لأن المصالح الاجتماعية للمشاركين كانت متباينةً هي الأخرى. وحلَّل المؤرخ "فرانسوا أوجست ميجنه" François

1- انظر المرجع التالي:

François Furet, La Révolution sans la Terreur? Le débat des historiens du XIXe siècle; Le Débat Nr. 13/1981, S. 40 ff.

Auguste Mignet (1796 – 1884)، هـذه المصـالح بأسـلوبٍ أكـثر تفصـيلًا مـن كـل مؤرخي عصره الآخرين (ولهذا كنَّ له "كارل ماركس" تقديرًا خاصًا). فوفقًـا لــ"ميجنـه"، شارك في الثورة "الرأسماليون بناءً على مصالحهم وخوفًا من التعرض للإفلاس؛ والمثقفـون والطبقة الوسطى بأكملها بدافع حب الوطن؛ وأخـيرًا الشـعب الـذي أرجـع معاناتـه إلى الامتيازات والبلاط الملكي والذي كان مدفوعًا لهذا بسبب حاجته"[1].

تحوّلت أدوار هذه المجموعـات المتعـددة عـن وجهتهـا بشـكلٍ يختلـف بالتبعيـة. فيقـول "شـاتوبريان": "بـدأ الأرسـتقراطيون الثـورة، وأكملهـا العامَّـة"[2]؛ إذ كانـت انتفاضـة الشـعب وحدها قادرةً على حماية الثورة من معارضيها. جـادل "روبسـبير" ضـد الأغنيـاء مـن أجـل أن يظفر بالثورة (مثلما أشـار كـل السياسـين المـدنيين تقريبًـا في بدايـة الثـورة الألمانيـة 1848 إلى أنفسهم باعتبارهم "اشتراكيين"[3])، دون أن ينادي - على الرغم من ذلك - بمبـدأ إلغـاء الملكيـة الفردية أو حتى بتأميم المنشآت الإنتاجية. وحمَّست الأفكار الاشتراكية عددًا قليلًا من الفلاحين أو من شعب باريس الثائر، فلم يُطالب بإنتاجٍ وتوزيعٍ تحت مسؤولية الدولة سوى حفنـةٍ مـن المُحرِّضـين اليسـاريين. وطبقًـا لبيانـات "إليـزي ريكلـوس" Elisée Reclus، المـؤرخ الاشـتراكي

1- François- Auguste Mignet, Histoire de la Révolution Française, 1e Partie; Wahlen, Brüssel 1824, S. 46.

2- Chateaubriand, a. a. O., 5. Buch, Kap. 10, S. 392.

3- Friedrich Engels, Revolution und Konterrevolution in Deutschland, in: MEW, Bd. 8, S. 21.

اللاسلطوي والعالم الجغرافي الأبرز في عصره، "ربما" كان يوجد بين ما يقرب من 4000 مُؤَلَّفٍ سياسي، تم تداولها حينها، "20 مُؤَلَّفًا اتسمت تقريبًا بصبغةٍ اشتراكيةٍ مُبهَمة، إلى جانب خمسة أو ستة مؤلفاتٍ أخرى أخفقت على نحو أكثر تحديدًا[1]".

اختلف هذا الوضع بعدها بنحو 80 عامًا؛ إذ تُلقِي سجلات المحاكمات، التي ترجع إلى فترة ما بعد المذابح، الضوء على التكوين الاجتماعي لأعضاء ومؤيدي "كومونة باريس". قيَّم المؤرخ "جاك روجيري" Jacques Rougerie بيانات ما يزيد على 34722 مُدَانًا؛ فكانت الأغلبية من الأُجَرَاء، وشكَّل العُمَّال بالأجر نسبة الثلثين، ويتضح بالإضافة إلى ذلك عند تدقيق النظر أنه لا وجود لعمال المصانع، ولا مزيد من الحرفيين؛ إذ لم يتم إدراك البروليتاريا إلا عند نشأتها[2]. وانتشرت بينهم بالطبع قناعاتٌ اشتراكية. فأسسوا أثناء فترة الكومونة عام 1871 جمعياتٍ تعاونيةً إنتاجيةً مرتكزةً على الملكية الجماعية.

لم يكُن ثوار عام 1789 والأعوام التالية مدفوعين بعد إلى مثل هذا الأفق الاشتراكي الأولي. وبدأت مع ذلك عملية تطرفٍ، سعى "روبسبير" في البداية إلى الدفاع عنها بديكتاتوريته الإرهابية ثم إلى إنهائها. إذ عملت هيمنته على ترسيخ السلطة الثورية مؤقتًا، لكنها أفضت في النهاية إلى قلقٍ أكثر من

1- Reclus, a. a. O.

2- Pierre Milza, L'année terrible; Perrin, Paris 2009, S. 203 und 206.

إفضائها إلى النظام بسبب استبداد المحاكم، إلى أن سقط "روبسبير" أيضًا وتشكَّل نظامٌ جديدٌ شيئًا فشيئًا؛ نظامٌ استبداديٌ لكنه مصبوبٌ في قوالب قانونية؛ وينتمي للطبقة الوسطى، لكنه آل مع ذلك إلى إمبراطورية.

شعرت الطبقة البرجوازية بالرضا، حيث يمكن - من أجل الدِّقة - الاستشهاد بما قاله الفذ "فيكتور هوجو": "ظهرت على نحوٍ خاطئ رغبةٌ في تحويل البرجوازية إلى طبقة. إذ تُشكل البرجوازية بمنتهى البساطة القطاع الذي يشعر بالرضا من الشعب. والبرجوازي هو الرجل الذي لديه الوقت الآن كي يجلس ويستريح مرةً أخرى. لكن القذارة ليست طبقةً اجتماعية[1]".

تُستخدَم الفئات من نوعية الطبقة الوسطى، أو الطبقة العاملة، أو الشعب على أي حالٍ كمصطلحاتٍ تقريبية فقط. فلنتحدث عن سكان المدن الفقراء وحسب - الفقر في المناطق الحضرية - أي تلك الطبقة السكانية التي غالبًا ما تبرز في الثورات بوصفها قوة الهجوم. احتوى التاريخ على فترةٍ قصيرةٍ نسبيًا، كانت فيها هذه الطبقة في بعض دول أوروبا بروليتارية بالدرجة الأولى، أي أن أفرادها كانوا مكدسين معًا في مصانع كبيرة، تُوَحِّدهم مصالحهم، بينما يتسمون بتنظيمٍ جيد. فظهر ذلك على سبيل المثال في إنجلترا الرأسمالية الصناعية أو في المدن الكبيرة بألمانيا وفرنسا بشكلٍ مؤقتٍ إلى جانب "سانت بطرسبرج" وموسكو عند بداية القرن الماضي. لكن هذه كانت حالاتٍ

1- Hugo, a. a. O., S. 934.

استثنائية، إذ ظل الفقر في المناطق الحضرية في الإجمال كتلةً غير متجانسةٍ دون صِبغَةٍ بروليتارية واضحة، وضمَّت هذه الكتلة أيضًا الجماعات التي كانت تحتشد في أي وقتٍ وتحت ظروفٍ معينةٍ بوصفها دهْمَاء - في شكل حشدٍ رجعي أو حشدٍ ثوري وحسب - كما وُصِف في رواية "تشارلز ديكنز" "قصة مدينتين"، التي تدور أحداثها في لندن وباريس إبان الثورة الفرنسية.

الدهماء

يُمكِن النظر إلى هذه الجموع باعتبارها مخزونَ عنفٍ، يقف رهن إشارة الثورة وتلجأ إليه الثورة بشكلٍ مُكثَّفٍ نوعًا ما وفقًا لما يقتضيه الوضع. فهناك يعيش الغضب، وهو يسعى للحصول على ما يخصه. قَتَل دهماءُ باريس البروتستانتيين في مذبحة "سان بارتيليمي" التي وقعت في الثالث والعشرين من أغسطس عام 1572، وأنشدت "سنشنق النبلاء على مصابيح الشوارع!" في أيام البطولة إبان الثورة الفرنسية عام 1789؛ وفي الحالتين حملت الحشود في نشوة الانتصار الرؤوس المقطوعة على الرِّماح في الأرجاء. وقد اقتبس "فالتر بنيامين" في كتابه "الممرات" وصفًا من ثورة "الأيام الثلاثة المجيدة" في يوليو عام 1830، كما ما زال يُطلق عليها في فرنسا حتى الآن: "رأى الناس نساءً يَسكُبْن الزيت المغلي أو الماء الساخن على الجنود، بينما يتعالى صراخهن وصياحهن. وقُدِّم إلى الثوار في مواضع عديدةٍ خمر، أثارهم إلى حد الجنون بسبب ما اختلط به من مكوناتٍ مختلفة... وبترت بعض النساء الأعضاء التناسلية لكثيرٍ من الحراس

المتنقلين الذين وقعوا في الأسر... وكانت رؤوس الجنود تُرَى على الرِّماح التي كانت مُثبَّتةً على المتاريس... لجأ كثيرٌ من الثوار إلى استخدام تلك الرصاصات التي يَصعُب انتزاعها من الجروح بسبب وجود سلكٍ مشدودٍ عبرها يمتد على جانبيها من الخارج. وانتصبت وراء المتاريس العديدة مِرَشَّات اِستُخدِمت لرشّ زيت الزاج (حمض الكبريتيك) على الجنود المُهاجِمين"[1].

لا تعرف ظاهرة الدهماء الاجتماعية والسياسية أيَّ حدودٍ زمنيةٍ أو مكانيةٍ، إذ برزت هذه الظاهرة في شكل "البليبس"[2] بروما، وكشفت عن نفسها بشكلٍ عامٍ لقرون وعبر حدود البلدان في مذابح مُنظَّمة معادية للسامية، وأشاعت الفزع أثناء الثورة الثقافية الماوية على غرار ما حدث في ميدان التحرير بالقاهرة عام 2013.

فإذا أُثير سخط الحشود، تُلازم البسالة الوضاعة عن قرب، وتُرجِّح في النهاية عواملٌ سيكولوجيةٌ واسعة النطاق الكفَّة، وقليلًا ما يكون لتلك العوامل علاقةٌ بوضع الطبقة الاجتماعية أو ما يُسمى بالمصالح الموضوعية؛ فأحيانًا ما يقرر حضور وتأثير الأشخاص ذوي الكاريزما كَوْن الحشود شيطانيةً أم روحية، ويظهر ذلك من خلال أوصاف ثورة يوليو 1830 في رواية "فيكتور هوجو" "البؤساء"، إذ دوَّن الكاتب كذلك هذا الأمر عن الحشود الغاضبة في

1- Walter Benjamin, Das Passagen- Werk; e-artnow 2015 (o. Ortsangabe), Kindle edition, Pos. 14211.

2- مُصطلح يُطلق في روما القديمة على أفراد الطبقة العامة الرومان الأحرار أي ليسوا عبيدا، لكنهم في الوقت نفسه لا ينتمون إلى طبقة النبلاء (المترجمة).

فترة الثورة: "هذه الجموع الرثَّة التي اندفعت في الأيام الأولى لنشأة الاضطراب الثوري إلى باريس البالية المحطَّمة، بثيابها المهترئة، وهتافها. هذه الجموع الضارية التي ترفع الهراوات وتستل الرِماح، ماذا كان مبتغاها؟ تاقت هذه الجموع إلى نهايةٍ للقمع، ونهايةٍ للاستبداد ولحُكْم السيف. ورغبت في توفير عملٍ للرجال، وتعليمٍ للأطفال، ولباقةٍ اجتماعيةٍ في التعامل مع النساء، فضلًا عن رغبتها في الحرية، والمساواة، والإخاء، والخبز، والرأي لكل الناس، وفي أن يتحول العالم إلى جنة، إلى جانب رغبتها في التقدم. طالبت الجموع بالتقدم، ذلك الشيء المُقدَّس الجميل واللطيف، مدفوعةً حتى النهاية، وثائرةً، ومخيفةً، بأجساد نصف عارية، تحمل الهراوات في أيديها، وتصرخ. صحيح أن هؤلاء الأشخاص كانوا هَمَجًا؛ لكنهم كانوا همجًا متحضرين"[1].

يستأنف "هوجو" كلامه قائلًا: "صرخوا غاضبين مطالبين بالعدالة؛ إذ أرادوا الدفع بالجنس البشري إلى الجنة، سواءٌ أمال هذا الجنس البشري إلى الخوف أم شعر بالرعب. بدوا وكأنهم برابرة، لكنهم كانوا المُنقِذين. فقد طالبوا بالنور من خلف قناع الليل. ومقارنةً بهؤلاء الرجال - مع إقرارنا بأنهم غاضبون ومرعِبون، لكن ذلك من أجل تحقيق الخير - هناك آخرون أيضًا مبتسمون، ومُنَمَّقون، يكسوهم الذهب، ويرتدون حلي مُزينة. يترصعون بالنجوم، بينما يرتدون جوارب حريريةً، وأرديةً بيضاء، مع قفازاتٍ صفراء، وأحذيةٍ لامعة. يجلسون إلى طاولة مخمليةٍ كائنة في ركن مدفأةٍ رخامية،

1- Hugo., a. a. O., S. 960.

ويتمسكون بموقفهم وحديثهم عن الماضي، وعن القرون الوسطى، والقانون الإلهي، والتعصُّب، والجهل، والعبودية، وعقوبة الإعدام، والحرب، يُعظِّمون السيف بصوتٍ منخفضٍ ودماثة، ويُبجِّلون الإعدام حرقًا والمشنقة. لكننا - على النقيض من ذلك - إن أُجبِرنَا على الاختيار بين برابرة الحضارات ومتحضِّري البربرية، لوقع اختيارنا على البرابرة"[1].

اقتضت الضرورة ذكر هذا الاقتباس الطويل بغرض مقارنته بالصورة البيانية للحركة العمالية الاشتراكية التي كانت غالبًا ما تنظر من أعلى بازدراء مُؤكَّد إلى "برابرة الحضارة" هؤلاء. تحدَّث "كارل ماركس" عن "اللومبنبروليتريا" أو طبقة ما تحت البروليتاريا واستخدم هذا المصطلح لوصف القاعدة الجماهيرية المُستأصَلَة اجتماعيًا وثقافيًا لـ"شارل لويس نابليون بونابارت" الذي قام بانقلاب عام 1851. وبهذا رُسِم خطٌّ فاصلٌ بين الفقراء الجيدين والسيئين من الناحية السياسية. أُطلِق مُسمى أتباع "اللومبنبروليتريا" لاحقًا أيضًا على أولئك الذين شاركوا عام 1892 في أعمال شغب العاطلين التي استمرت لثلاثة أيام في برلين بدلًا من المشاركة في أمسيات نادي الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني SPD[2] أو أولئك الذين قاموا بأعمال سلبٍ ونهبٍ لمتاجر المنتجات الغذائية مدفوعين بضيق

1- المرجع السابق.

2- انظر المرجع التالي:

Michael Schwartz, “Proletarier” und “Lumpen”; in: Vierteljahreshefte für Zeitgeschichte, Jg. 42 (1994), Nr. 4, S. 537 ff.

ذات اليد في أوائل عشرينيات القرن العشرين، بدلًا من المشاركة في محاولات الانتفاضة التي قام بها الحزب الشيوعي الألماني KPD.

انتهى الحال أيضًا بالنسبة للقوة العاملة الصناعية نفسها إلى إجراء تقسيمٍ طبقي، وهو الظرف الذي ساعد الشيوعيين من أتباع "لينين" على تفسير الحقيقة الغريبة القائلة بأن طبقة العمال في العالم لا تجري بأكملها خلفهم تابعةً خطاهم. وجاء في النظريات التي وضعها "لينين" عام 1920 بمناسبة المؤتمر الثاني للشيوعية الدولية ما يلي: "يكمن أحد الأسباب الرئيسية، التي تُعرقِل الحركة العمالية الثورية في البلاد الرأسمالية المُتقدِّمة، في أن رأس المال هنا نجح بفضل الاستعمار والأرباح الإضافية لرأس المال وما إلى ذلك، في تطوير طبقةٍ عريضةٍ نسبيًا وراسخةٍ من الأرستقراطية العمالية[1]". وهذه الطبقة فاسدةٌ من الناحية البرجوازية، وإصلاحيةٌ، لكن ليس هذا كل شيء، إذ كتب "لينين" في موضعٍ آخر: "لا يمكن الحديث عن حركةٍ عماليةٍ شيوعيةٍ جادةٍ دون محاربة هذه الطبقة، ودون التدمير الكُلِّي لسلطتها بين العمال، ودون إقناع الجماهير بالفساد البرجوازي التام لهذه الطبقة"[2]. وبهذا اعتُبِر الديمقراطيون الاشتراكيون الإصلاحيون عمليًا أعداءً لطبقة العمال، أصرَّ "ستالين" بعد ذلك بأربع سنواتٍ فقط على أن "الديمقراطية الاشتراكية

1 - W. I. Lenin, Thesen über die Hauptaufgaben des zweiten Kongresses der Kommunistischen Internationale, in: LW, Bd. 31, S. 181.

2- Ders., Brief an Sylvia Pankhurst; in: LW, Bd. 29, S. 555.

تمثل بشكلٍ موضوعي الجناح المعتدل للفاشية"[1]. وبهذا لحق الخراب بالنظرية الماركسية المتعلقة بالشروط الاجتماعية الاقتصادية للعمل الثوري نهائيًا.

الريف يُطوِّق المدينة

ظهرت في القرن العشرين نظرياتٌ أخرى بخصوص مكمن العثور على القابلية الثورية. وكانت هذه النظريات في أغلب الأوقات إعادة إحياءٍ لأفكارٍ من القرن التاسع عشر، بخصوص الطبيعة الثورية لطبقة الفلاحين على سبيل المثال. لذلك كان "فرانتس فانون" Frantz Fanon يعتبر أن طبقة الفلاحين في العالم الثالث هي أهم طبقةٍ ثورية. وغالبًا ما يُزعَم أن هذه كانت نظرية "ماو" أيضًا. لكن الوضع أكثر تعقيدًا بعض الشيء.

إضافةً إلى ذلك أعلن "ماو" في عام 1926 أن "البروليتاريا الصناعية هي القوة الأساسية لثورتنا"[2]. إنها إحدى تلك "الكلمات" التي أُضيفَت فيما بعد إلى الكتاب الأحمر الصغير، وصار بالإمكان العودة إليها في أي وقت، حينما كانت تتناسب مع أي موقفٍ سياسي في أي مكانٍ بالعالم. وكتب "ماو" هذا في الوقت الذي أثارت فيه الشيوعية الدولية العديد من الانتفاضات في الصين، لكنْ لم يشارك فيها سوى أقليةٍ من البروليتاريا دائمًا.

1- J. W. Stalin, Zur internationalen Lage, in: J. W. Stalin, Werke, Bd. 6; Dietz Verlag, Berlin 1952, S. 147.

2- Mao Tse Tung, Analyse der Klassen der chinesischen Gesellschaft; in: Worte des Vorsitzenden Mao Tse Tung, a. a. O., S. 17.

وكانت تنتهي في كل مرةٍ على نحوٍ دموي. ثم لاقت الحركة العمالية الصينية الضربة القاضية يوم الثاني عشر من أبريل عام 1927 في "شنغهاي"، عندما تسبب "شيانج كاي شيك" Tschiang Kai Schek، الخصم غير الشيوعي لـ"ماو" والمنتمي لحزب "الكومينتانج"، بالتشاور مع الدول الغربية، في إقامة حمام دماءٍ بين العمال بالمدينة، "وكانت هذه إشارةٌ إلى مطاردةٍ ممنهجةٍ للشيوعيين وأعضاء النقابة العمالية" في كل مكانٍ تصل إليه يد "الكومينتانج"[1].

غيَّر "ماو" استراتيجيته نتيجةً لذلك واعتمد منذ ذلك الحين على طبقة الفلاحين في المقام الأول، حتى وإن لم يكن بمقدور هؤلاء في أيديولوجيته سوى الارتقاء إلى منصب نائب بطل الثورة، أي "المناصر الأقوى للبروليتاريا". لكن الفلاحين وفَّروا في واقع الأمر الهيكل الثوري الرئيسي فعليًا. ولخَّص "لين بياو" **Lin Biao**، التابع العسكري لـ"ماو"، الأمر بعباراتٍ موجزةٍ في مقالٍ أسطوري يعود لعام 1965: "الاعتماد على الفلاحين، وتأسيس قواعد عسكريةٍ في الريف، وتطويق المدن بالقُرى، والاستيلاء على المدن في نهاية الأمر، كان هذا هو الطريق الذي سلكته ثورة "شينهاي" إلى النصر". إلا أن "لين بياو" تابع في مقاله التوجيهي: "إن أمكن على نطاقٍ عالمي تسمية أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية بـ"مدن

1- Konrad Seitz, China. Eine Weltmacht kehrt zurück; Berlin Taschenbuch Verlag, Berlin 2002, S. 114.

العالم"، فيمكن إطلاق مُسمَّى "مناطق العالم الريفية" على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. إذ تأخرت الحركة الثورية البروليتارية بشكلٍ مؤقتٍ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في الدول الرأسمالية بأمريكا الشمالية وأوروبا الغربية لعدة أسباب، بينما تطورت الحركة الثورية لشعوب آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية بقوة. وتختبر الثورة العالمية الراهنة بمعنى ما وضعًا، تُطوِّق فيه المناطقُ الريفية المُدنَ. تتعلق مسألة الثورة العالمية برمتها في المحصلة النهائية بالكفاح الثوري للشعوب الآسيوية، والأفريقية، وشعوب أمريكا اللاتينية، التي تمثل بدورها الغالبية العُظمى من سكان العالم"[1].

هكذا بدا الاتجاه الماوي للثورة العالمية، الذي شاع أيضًا قبل ما يقرب من 50 عامًا بين شباب اليساريين في ألمانيا الغربية؛ يُطوِّق الريفُ المدينة، ويحيط العالمُ الثالث بالعواصم الاستعمارية.

حتى في العواصم الكبرى نفسها؟ أُثيرَت هناك القابلية الثورية، حسبما فهمنا الموضوع المطروح من قِبَل "مدرسة فرانكفورت" حينها. وكتب "هربرت ماركوز" Herbert Marcuse في كتابه الصادر عام 1967 "الإنسان ذو البعد الواحد"، الذي يتضمن كثيرًا من الملاحظات الذكية بخصوص النشاط الثقافي الرأسمالي، أن "هناك نقصًا في داعمي التحول

1- Lin Biao, Es lebe der Sieg im Volkskrieg!; Verlag für fremdsprachige Literatur, Peking 1968, S. 53 f.

الاجتماعي وقواه الدافعة القابلة للإثبات، إذ لا توجد أرضيةٌ مشتركةٌ يتلاقى عليها النظرية والتطبيق، والتفكير والعمل"[1].

كان ذلك حينها بمثابة مُطَالَعةٍ تهوي على القارئ كالصاعقة، خصوصًا بالنسبة لشابٍ يافعٍ مثلي كان يبحث عن نظريات الصحوة. باستثناء الإشارة الضمنية إلى "المُطَارَدين والدَّخلاء" وإلى فكرة "الرفض الكبير" في آخر صفحات كتابه[2]، لم يُقدِّم لي "ماركوز" سوى فرصةٍ يائسةٍ بأن أكون تحت رحمةٍ كُليةٍ لا يُمكن التفوق عليها. لم يتناسب ذلك بشكل جيدٍ مع الصورة الحية المناضلة التي عايشتُها في المظاهرات. وربما ساهم هذا التناقض بين نظرية الجبروت الساحق للكاذب من ناحية وبين تجربة الذات الفاعِلة من ناحيةٍ أخرى، في أن بعضنا آمَن بضرورة وإمكانية تفجير الواقع الاجتماعي حرفيًا، ونسفه.

لم يكن الأمر مقتصرًا على "ماركوز" وحده لحسن الحظ. فقد قرأنا المقالات النضالية لحزب الفهود السود وشاهدنا الفيلم السينمائي "فيفا ماريا!" Viva Maria! للمخرج "لويس مال" Louis- Malle، حيث لعبت كل من "بريجيت باردو" و"جين مورو" أدوار الثائرتين المُحبتَين للحياة. وكما هي الحال، تعثر الإرادة والخيال دائمًا على أغراضهما. فقد أردنا أن نكون ثوريين، وبحثت حماستنا عن "جوهرها الثوري"، كما يُسمَّى في اللغة

1 - Herbert Marcuse, Der eindimensionale Mensch; Luchterhand, Neuwied und Berlin 1967, S. 15.

2- المرجع السابق، ص 267.

العامية. حلَّت طبقة العمال لاحقًا محل "باردو" و"تشي جيفارا" و"مورو" و"ماو". وتخبطت بالفعل كتائبُ كاملةٌ من علماء الاجتماع الماركسيين، كي يتحققوا من أجل الجمهورية الاتحادية أيضًا، عمَّن ينتمي لهم ومَن لا ينتمي. كانت تلك محاولةً بطولية؛ لأن طبقة العمال كانت قد انحلت لتوِّها.

تحدثت قبل سنواتٍ قليلةٍ مرة أخرى مع "آلان باديو" Alain Badiou بخصوص البحث عن الجوهر الثوري، وقد كان فيما مضى ماويًا، يرغب حتى يومنا هذا في التشبث بكلمة "الشيوعية"؛ إلا أنه قال لي أثناء الحوار: "انتهت الحركات الثورية التي ترجع للقرنين التاسع عشر والعشرين، ولن تعود مرةً أخرى. فقد اندثرت البروليتاريا، والحزب، والإستراتيجية، والتكتيك، والتلقائية بأكملها، ويجب إعادة تشكيل التحرُّر من جديد. فحالنا مشابهٌ لحال "ماركس" حين كان شابًا؛ رأس المال يُمسِك بزمام الحكم، ومشاكل المجتمع تتفاقم، لكن لا تلوح في الأفق أي حركةٍ ذات نزعةٍ ثورية. إذًا لا بُد من البحث. إنه أمرٌ مُباغِت. وبعيدٌ عن الدولة[1]".

حسنًا. لكن أين؟

1- "Das Kapital ist an der Macht", Ein Gespräch mit Alain Badiou; in: DIE ZEIT Nr. 29/2009 vom 26. November 2009, S. 60.

عثر مُنظِّرون مثل "نِيجري" Negri على مصطلح "حشود العامة" أثناء سعيهم للبحث عن قوةٍ مجتمعية باعثةٍ على التغيير[1]. ويتسم هذا المصطلح بتاريخه الطويل، إذ يظهر على سبيل المثال بمعنى الحشود الفاعِلة في تحليلات "ميجنه" للثورة، لكنه يُعبِّر هنا عمَّا هو أكثر من ذلك؛ تتكون حشود العامة من أفرادٍ مختلفين إلى أقصى حد، يجتمعون رغم ذلك ليناضلوا من أجل صنع حياةٍ أخرى أفضل. لكن النظرية تدور هكذا في حلقةٍ مفرغة. ألم يكن حريٌّ بها أن تفسِّر بالكاد أن هناك أوضاعًا اجتماعيةً معينةً تتسبب في خلق ميلٍ إلى التغيير وأن توضح كيفية حدوث هذا الأمر؟ أما الآن فالرغبة في التغيير نفسها هي ما يصنع طبيعة الوجود الاجتماعية لحشود العامة.

لكن السؤال المطروح بغض النظر عن ذلك هو هل الأشخاص المختلفون إلى هذا الحد يتواءمون مع بعضهم بحقٍ أم أنهم يسعون فقط إلى الانسجام معًا. علماء بعقودٍ مؤقتة وغير مستقرة، وموظفون بمراكز اتصالاتٍ يتلقون معاملةً سيئة، ومزارعون يعانون من انخفاض أسعار الحليب وخفض الدعم في الاتحاد الأوروبي، ومتحوِّلون جنسيًا يتعرضون للعنصرية، وسكانٌ أصليون يتصارعون مع جماعات المنقبين عن الذهب وفِرق إزالة الغابات في

1- … und ihr gleich ein Buch gewidmet: Michael Hardt, Antonio Negri: Multitude. Krieg und Demokratie im Empire; Campus, Frankfurt/ M 2004.

منطقة الأمازون، وطلابٌ بالمدرسة الثانوية يبحثون عن معنى لحياتهم. هل كل هذه الفئات تتجمع مكونةً الجوهر التاريخي نفسه؟

اتهم يساريون متطرفون آخرون بالفعل "نيجري" و"هاردت" بأن هذا الأمر يمثل تفكيرًا ذا نزعة تملكيةٍ بحق، إذ تظهر حشود العامة في إستراتيجيات الثورتين الخاصة بهما ككيانٍ واحدٍ فاعِل في ترابط[1]. قد لا تناضل الجماعات الثائرة في واقع الأمر بشكلٍ دائمٍ إلا من أجل مصالحها الفئوية المُحدَّدة، مثل مجموعة "زاباتستا" في ولاية "تشياباس" المكسيكية، التي لم يرغب أفرادها بتاتًا في أن يتم تصنيفهم مرةً أخرى ضمن كيانٍ أكبر، كما كان الحال سابقًا في ظل الاستعمار، هذا هو الواقع. فالمستضعفون اجتماعيًا، الذين يتمردون، أبعد ما يكونون عن الدمج لهذا السبب وحده في الجوهر الثوري، فهذا محض وهم سلطوي يساري.

تعاملت أثناء عملي الصحفي أكثر من مرةً مع موظفين بمؤسساتٍ صغيرةٍ وكبيرة، مثل أعضاء النقابة العمالية المناضلين بمصنع الحديد والصلب في مدينة "هاتينجن" أو العاملين لدى "أوبل" في مدينة "بوخوم"، الذين احتشدوا بكثيرٍ من الجَلَد والخيال ضد تخفيض العمالة وإغلاق المصانع. كانوا دائمًا مرحبين بأي تضامنٍ معهم، حتى وإن جاء من أقصى

1- Richard J. F. Day and Nick Montgomery, Letter to a Greek Anarchist. On Multitudes, Peoples, and New Empires; in: Alexandros Kioupkiolis, Giorgos Katsambekis (Ed.), Radical democracy and collective movements today. The Biopolitics of the Multitude versus the Hegemony of the People; Ashgate, Farnham 2014, S. 45 ff.

تيار اليسار، لكنهم لم يكونوا ضمن فئة "الجوهر الثوري" أو "حشود العامة"، وإنما أرادوا فقط النجاة من التدهور الاجتماعي، حتى وإن كان ذلك مقابل تعويضٍ مقبولٍ على الأقل.

تمحور الأمر حول المسألة ذاتها أيضًا أثناء النضال الرائع من قِبل موظفي مصنع الإطارات لشركة "كونتيننتال" في بلدة "كليروي" الواقعة في "بيكاردي". إذ اندفع الناس في نهاية شهر مارس من عام 2009 عبر "كومبيين"، عاصمة الإقليم، المُجاوِرة، بينما يحملون ألعابًا نارية، وراياتٍ حمراء، وينشدون أغانيَ ثوريةً في الوقت ذاته. كان ذلك بمثابة مسرحيةٍ ممتعة، فما زلتُ أشم رائحة المفرقعات المشتعلة حتى الآن. ظهر حينها على الساحة أيضًا قائدٌ مُفوَّه يُدعى "خافيير ماتيو" Xavier Mathieu، ولوحِظ أنه تلقَّى تثقيفًا يتبع منهج "التروتسكية". انضم لهذه الحشود مجموعةٌ من الرعاع يحملون ملصقاتٍ "فلترتعدوا أيها البرجوازيون!"، ارتدى الجميع قبعات فريجية حمراء (أي قبعات الحرية) ورفعوا لافتاتٍ كتبوها بأنفسهم، وجاء في إحداها: "1789 – 2009: الكِفاح ذاته".

هل كان هذا أمرًا جادًا أم مجرد عرض أزياءٍ تاريخي؟ كلاهما في آن واحد؛ فبَحَث الجانب الجاد عن وسيلةٍ مؤثرةٍ للتعبير وكانت الأثواب التاريخية جاهزةً لخدمة هذا الغرض؛ أثناء الثورة الفرنسية أُطلِق على "كومبيين" لفترةٍ من الوقت اسم Marat sur l'Oise أو "مارا على نهر الواز"، تيمنًا باليعقوبي الراديكالي "جان بول مارا".

أغلق مصنع "كونتيننتال" أبوابه. إذ لم تكن التعويضات وفرص العمل الجديدة كافيةً لأغلب العاملين بالشركة - الذين عُرِفوا باسم "كونتي" - بما يسمح لهم بتخفيف التردي الاجتماعي (وكذلك كان الوضع أيضًا لدى شركة "أوبل" في مدينة "بوخوم"). ولم يتبقَ سوى الذكرى. لم يتبقَ سوى شعور الهزيمة المرير. وما تبقى لعدة سنواتٍ أيضًا كان التزيين النضالي للمقهى الصغير Au bon coin أي "الركن الجيد"، الذي كان فيما مضى المقر الرئيسي للحركة، حيث توجد الصور واللافتات التي تُذكِّر بكل مراحل كفاح الـ"كونتي". فشكَّل ذلك المقهى متحفًا صغيرًا حيث كان "جاكي"، مالِك المقهى، يستقبل الزوار بتعليقاتٍ مازحةٍ، وبسخريةٍ، وحنينٍ إلى الماضي.

منذ فترةٍ ليست بالطويلة، أرسلتْ إحدى المجموعات الأساسية الراديكالية اليسارية الجديدة بفرنسا، والتي تكونت من حركةٍ شبابية موجهةٍ ضد ظروف العمل غير المستقرة، خطابًا إلى عنوان هذا المقهى الصغير تطلب فيه إجراء حوارٍ حول "الخبرات المشتركة". عندئذٍ عاود "خافيير ماتيو"، زعيم حزب العمال، الاتصال عبر التليفون: "حسنًا، الكونتي منشغلون حاليًا بمسائل أخرى. فلتتصلوا بفلانٍ وفلان، فذلك هو الشخص المناسب، إن أردتم التحدث بشأن الغنيمة!"، أي بخصوص التعويضات. فجاء تعقيب كاتبي الخطاب كالتالي: "لم نكن نرغب في التحدث بشأن الغنيمة. وإنما أردنا التحدث عنكم. وعمَّا تبقى من

رابطة العمال، بعدما أُغلِق المصنع. وأردنا التحدث عنّا، وعن عالمنا الراهن[1]". لكن "الكونتي" لم يكن لديهم اهتمامٌ بالـ"عوالم" وما على شاكلتها من أمور.

تصرفوا على نحوٍ لا مبالٍ شأنهم في ذلك شأن شباب الضواحي المحيطة بباريس، الذين استقبلوا في ربيع عام 2016 زيارةً من نشطاء حركة "ليلة وقوف" nuit debout. وفقط لأن شبابًا من مناطق "البونليو" (أي الضواحي) يأتون إلى المظاهرات كي يشعلوا النيران في السيارات أو يمطروا رجال الشرطة بوابل من المفرقعات في هذه المناسبة، أصبحت تلك المظاهرات الآن أبعد ما تكون عن كونها قوةً فعّالة تاريخيًا كانت لتتحالف تحت السقف الإستراتيجي ذاته مع أبناء الطبقة الوسطى الذين أصبحوا على قدرٍ من الأهمية. يبدو الواقع في أحياء الأقليات بفرنسا ميؤوسًا منه في نظر قاطني هذه الأحياء، لكن رد فعلهم على هذا الأمر لا يتمثل عادةً في الرغبة في إحداث تغيير، وإنما يأتي في شكل موقفٍ متمرد، غالبًا ما يُنظَر إليه حتمًا - في آخر الأمر - كمحاولة لإثبات رجولتهم المُهانة.

لا ينبغي سرد كل هذا بسخريةٍ هنا. فالفكرة صحيحةٌ بكل تأكيد، إذ لا بد من تبادل خبرات المناظرات الاجتماعية، كي تتعلم الأطراف من بعضها. لكن الأمثلة توضح فقط أن إمكانية حشد كل الأشخاص ذوي المشاكل الاجتماعية في بناء نظري سياسي واحد مثل "حشود العامة"، لا تتعدى كونها محض

1- Collectif Mauvaise Troupe, Constellations- Trajectoires révolutionnaires du jeune 21 siècle, Éditions de l'eclat (ohne Ortsangabe) 2014, S. 455 f.

نظرية. ويبدو للسبب نفسه مصطلح "تقاطع النضال"، الذي تتحيز له "أنجيلا ديفيس" Angela Davis، ذا صبغة أكاديمية؛ إذ ترغب "ديفيس" على سبيل المثال في أن تُسنِد الصلة الدائمة بين حركة "حياة السود مهمة" Black Lives Matter والمنظمات الفلسطينية إلى الحقيقة القائلة بأن شركات الأمن ذاتها التي تمارس العنف ضد السود في الولايات المتحدة الأمريكية تعمل لصالح إسرائيل، لكن أي تأثيرٍ قد يحدثه هذا الأمر أكثر من تبادل الزيارات أو خطب التضامن؟ وذلك بصرف النظر عن أنه من المُرجَّح أن تتواصل معاداة السامية سيئة السمعة من قِبَل أعضاء حركة الحقوق المدنية الأمريكية الأفريقية.

لا، تعاني كل تلك المساعي الرامية إلى استخراج جوهرٍ من قلب الصراعات الاجتماعية في نهاية الأمر من المتلازمة نفسها؛ ينظر الإستراتيجيون إلى المُعدَمِين الذين يقاومون أو يثورون باعتبارهم أداةً، ويستخدمون أهدافهم كوسيلة. يبدو كما لو أن اليساريين لن يتخلوا ببساطةٍ عن موقفهم القائم على أسلوب الرعاية. إذ لا يكفيهم أن المثليين يطالبون بالحق في تبني الأطفال أو أن الفلاحين الذين لا يمتلكون أرضًا يطالبون بحقوق الملكية، وإنما يريدون ويتحتم عليهم التأليف بين أنواع هذا النضال. يُمكِن تفهم هذا الأمر، فهم يرغبون بكل تأكيد في استبعاد ما يعتبرونه السبب المشترك لكل ظلمٍ واقع. لكن ما داموا ينظرون لأنفسهم باعتبارهم طلائعيين، وجماعةً من ثاقبي الفِكر، فهم يحافظون على نصف مسافةٍ غريبة تفصلهم عن هذه الحركات.

ويُعتبر ممثلوهم في أفضل الحالات، مثل حالة "الكونتي" أو موظفي شركة "أوبل"، بمثابة رفاقٍ محاربين صالحين وحقيقيين في الأساس يناضلون من أجل القضية المشتركة، وذلك بشكل مستقلٍ عن الأفكار اليسارية التي يعتنقونها أيضًا. فهم يعيشون حياةً مزدوجةً داخليًا وظاهريًا في الوقت نفسه.

"مواطنون قلقون"

قد يظل الفصل الذي يتناول التحالفات الثورية غير مكتملٍ بالطبع من دون تحذير. وتُشكِّل تصريحات "شانتال موف" Chantal Mouffe، المتخصصة في العلوم السياسية، الدافعَ لهذا الفصل، إذ تتمتع كتبها بشهرةٍ كبيرة تحديدًا داخل حركات انتقاد النظام في أوروبا الجنوبية. فهي تستبدل هياكل الجوهر الثوري القائمة حتى الآن بتصور عن جماعيةٍ جديدة لا تتشكل عن طريق المصالح والأفكار وحسب، وإنما عن طريق المشاعر أيضًا، وعن طريق توجيه الحب إلى الداخل والكراهية إلى الخارج، مثلما كتبت "موف" ما معناه ذلك. تم تصوُّر هذا الأمر بشكل صحيحٍ تمامًا، حتى وإن كان خطِرًا، لكن شيئًا ما يتلألأ بعد ذلك، لم يكن المرء ربما ليتصور وجوده لدى اليساريين؛ فوفقًا لما كتبته "موف"، أغفلت الفردية والعقلانية المشاعر الوطنية للجموع[1]. يشكل هذا نغمةً تتردد حاليًا على المسامع من مكانٍ

---

1 - Chantal Mouffe, Agonistik. Die Welt politisch denken; Suhrkamp, Frankfurt/ M 2014, S. 78 ff.

آخر أيضًا، وتصدر تحديدًا من مُنظِّرين وناشرين من أوروبا الشرقية وغيرها يرغبون في تقديم الصلاحية الفكرية للكتلة الشعبية المُتَشكِّلَة في أوروبا.

المشاعر الوطنية إذًا. حسنًا، لعبت هذه المشاعر في واقع الأمر على سبيل المثال دور التعبئة في حركات التحرير المناهضة للاستعمار. لكنها تتصف مع ذلك بتناقضٍ مُزعِج. إذ كان يوجد أيضًا على سبيل المثال بين ثوار ألمانيا الديمقراطيين بالقرن التاسع عشر اتجاهٌ لإسناد النضال ضد الطغاة الأجانب مثل "نابليون" إلى إعادة تأسيس الهوية الوطنية، بما في ذلك معاداة السامية. تمكَّن النازيون لاحقًا نتيجةً لذلك من الاحتجاج بالتراث الفكري لجنون العظمة ذي النزعة القومية الذي خلَّفه "إرنست موريتز أرندت" Ernst Moritz Arndt أو "يوهان جوتليب فيشته" Johann Gottlieb Fichte، عندما كانا يتحدثان عن ثورتهما الألمانية. اتضح أن الحزب الشيوعي الألماني KPD المنافس لهم تودَّد أثناء فترة جمهورية "فايمار" - بتكليف من "الكومنترن" (الشيوعية الدولية) - إلى القوميين المتطرفين، بل وحتى النازيين، وعُلِّل ذلك بأن الشيوعية الألمانية "ثورية وطنية"؛ لأن برنامجها مُوجَّهٌ أيضًا ضد التزامات التعويض الناتجة عن الحرب العالمية الأولى[1]. بل ويقال إن مسؤولي الحزب الشيوعي الألماني KPD انقادوا حينها حتى للتصريحات الموجهَّة ضد "الرأسماليين اليهود"،

1- Otto-Ernst Schüddekopf, Nationalbolschewismus in Deutschland 1918 – 1933; Ullstein, Frankfurt/ M u. Berlin, 1972, S. 286 f.

عندما كانوا يتوددون إلى النازيين (مع ذلك لا يمكن إنكار كون المصادر المتعلقة بهذه الجزئية غير موثوقةٍ نوعًا ما). وكان لا يزال هناك في الستينيات بقايا من الجماعات المعروفة باسم "الجماعات الشيوعية القومية" مثل "أوتو شتراسر" Otto Strasser، الذي اتفق معه التأرجح القومي للحزب الشيوعي الألماني KPD فيما مضى بشدة، والذي ظل ينشر مزيجه الوطني الشيوعي في "هامبورج"، حتى أثناء فعاليةٍ بالمدرسة الثانوية، التي كنت ملتحقًا بها.

للأسف كنت في ذلك الوقت أصغر من أن أستوعب الفضيحة. هكذا كان حال تلك الأيام. لكن حتى يومنا هذا لم تصبح القومية البلشفية في أدراج النسيان، بينما يظهر من جديد في هذه الأثناء نازيون يستندون إليها. لذلك يجب الانتباه بشكل أدق إلى الوقت الذي يستفيد فيه الأشخاص، الذين يسلكون النهج اليساري أو الثوري، من "الهوية الوطنية". فهم يصبُّون بذلك الزيت على النار.

8

انفجار

في كتابه الكلاسيكي "تشريح الثورة"، لخص "كـرين برينتـون"Crane Brinton شروط قيام الثورة كما يلي: عجز الميزانية، الشكاوى الزائدة عن الحد من الأعباء الضريبية، إيثار الحكومة لمصالحَ اقتصاديةٍ بعينها، فوضى الإدارة، مشكلاتٌ اجتماعية مثل البنية الطبقية المحكمة التي يصعب اختراقها والشعور الشائع بـأن الموهبـة لـن تخلـق مسـيرةً مهنيـةً ناجحة، بالإضافة إلى تداعي الثقة بالنفس لدى الطبقة الحاكمة[1].

قبل اندلاع أسوأ حربٍ أهلية في تاريخ الإنسانية والتي عرفت باسم "تمرد تـايبينج" (1850 - 1864)، كانت الأوضاع مشابهةً للأوضاع سابقة الذكر إلى حد بعيـد. في تلـك الحـرب، كـافح حوالي مليون صيني من أجل مجتمعٍ بـلا ملكيـةٍ خاصـة. فبعـد أن خسرت أسرة "مانشـو" في حرب الأفيون الأولى أمام الإنجليز، شاع في الصين ظنٌ بأن قبائل الـ"مانشـو" الأجنبيـة سـتدبر أمرًا مع المنـتصر. كـان تـاريخ الصين مليئًـا بالعديـد مـن الثـورات، إلا أن هـذه المـرة كانـت

1- Crane Brinton, a. a. O., S.65 und 251 f.

مختلفة؛ فالأمر هنا يتعلق بتمردٍ اجتماعي نابعٍ من أيديولوجية خاصة تحتذي بنموذج مسيحي لمجتمع يؤمن بمذهب المساواة. بعد زحفٍ استمر لسنوات، استولى مليونان من أنصار الحركة على مدينة "نانجينج" عام 1853، واستقروا هناك وأسسوا إمبراطوريتهم الجديدة. ثم تفشى جنون العظمة والانحدار الأخلاقي بين قادتهم، وفي نهاية الأمر سحق جيش الإمبراطور "التايبينج" سحقًا وحشيًا[1].

كان زعيمهم الديني شابًا يدعى "هونج شيوشيان "Hung Hsiu-chuan الذي رسب أكثر من مرةٍ في امتحانات التوظيف واتهم النظام الحاكم بتجاهل مواهبه[2]. لم تكن فرص الترقي المهدرة هي الدافع الأضعف لاعتبار الأوضاع خانقةً للدرجة التي تحتم الثورة عليها. ألم تكن الشكوى الأكثر انتشارًا خلال فترة الربيع العربي هي كثرة أعداد العاطلين من الشباب "حملة الدبلوم"، أي ذوي المؤهلات العليا؟ كان هؤلاء يمثلون بالفعل القاسم الأعظم من النشطاء، وهذه ملاحظةٌ مهمة. فالثورات لا تنشأ في الغالب بسبب اليأس، وإنما بسبب خيبة الآمال.

لو كان الفقر كافيًا بوصفه عاملًا مسببًا للثورات لظل العالم في حالة ثورةٍ على الدوام. إلا أن الوضع في حقيقة الأمر عكس ذلك؛ فالمناطق التي لا تعاني من أي شيءٍ سوى الفقر لا تشهد أية ثورات؛ لأن الفقر يستهلك

1- Seitz, a. a. O., S.90 f.

2- المرجع السابق ص 92.

الوقت، ويسلب القوة، ولا يسمح بتحصيل المعرفة، ويدمر الثقة بالنفس. لذا يتجه التحريض الثوري دائمًا إلى بناء العلم والثقة بالنفس. ويعد هذا بالمناسبة هو الفارق بين التحريض الفاشستي (أو الشعبوي اليميني) والتحريض الثوري: فأحدهما يدفع مستمعيه بقوةٍ أكبر تجاه الوعي بعجزهم كي يعدهم بالخلاص (أو المخلص)، أما الآخر فكأنما يسمح لهم بغناء نشيد الدولة:

"لن ينقذنا كيان أعلى؛

لا إله.. ولا إمبراطور.. ولا قائد لنا.

لن يحررنا من الشقاء

سوى كل فرد منا!"

أو كما صاغها القس "سياس" Sieyès في منشوره الصادر بتاريخ 1789 والذي أصبح أسطوريًا فيما بعد وتحدث فيه عن "الطبقة الثالثة" قائلًا:

"1. ماذا تمثل "الطبقة الثالثة"؟ - كل شيء.

2. ما وضعها حتى الآن وسط النظام السياسي؟ - لا شيء.

3. بم تطالب؟ - أن تصبح شيئًا[1]".

1- Emmanuel Joseph Sieyès, Politische Schriften; Luchterhand, Darmstadt und Neuwied 1975, S.119.

تلك هي الصياغة السياسية للتعارض بين الإمكانية والواقع. وهذا التعارض هو شرط قيام كل ثورةٍ والقوة الدافعة لها. سأطلق عليه فيما بعد اسم التناقض الكبير بغرض الاختصار ولكونه مصطلحًا رئيسًا.

يزيد التناقض الكبير من توتر الموقف. فإن لم يهدئ الإصلاح من حدته ستتصاعد حدة التوتر وصولًا إلى اللحظة التي سينفجر بها التناقض لسبب ما.

في أواخر القرن الثامن عشر، ثار سكان المستعمرات الإنجليزية في أمريكا بسبب تحجيم التجارة والضرائب التي فرضتها عليهم الإمبراطورية. لم يكن السبب الرئيسي لثورتهم هو ارتفاع الضرائب، وإنما إجبار المستوطنين على دفعها مع حرمانهم من المشاركة في صنع القرار في لندن. لذا اشتهر بين صفوفهم شعار **"لا ضرائب دون تمثيل"**. انتشر هذا الشعار على سبيل المثال حينما تم فرض ما يعرف بضريبة الدمغة؛ كل المطبوعات من عقود أو صحف أو إعلانات أو كتالوجات وأيضًا الوثائق المنصوص كافة عليها بموجب القانون أن تختم مقابل رسوم. ثار العديد على تلك الضريبة، ومن بينهم مواطنو "ليكسينجتون" المكان الذي شهد عام 1775 أولى طلقات حرب الاستقلال. وقتئذ لم تمثل ضريبة الدمغة أهميةً اقتصاديةً كبيرة في تلك المدينة الصغيرة الناعسة[1].

1- Arthur B. Tourtellot, Lexington and Concord. The Beginning of the War of the American Revolution; Norton, New York 1963, S.43.

على الرغم من ذلك، سادت هناك - مثلما حدث في سائر الأماكن - أجواء ثورية؛ كانوا يرغبون في معاملةٍ محترمة. بالتالي هدد المستوطنون الأمريكان بمقاطعة البضائع البريطانية. نتيجةً لذلك، تم إلغاء ضريبة الدمغة.

منذ تلك اللحظة، بدأت السلطة الاستعمارية بالطبع في البحث عن إجراءاتٍ جديدة لإجبار المستوطنين الثائرين على الخضوع لسلطتها. فقد أصبحوا يدافعون عن أنفسهم، واتقد مزاجهم على يد محرضٍ بارع وهو الثائر المحترف ومحصل الضرائب السابق "صامويل آدمز"Samuel Adams. حينما أراد البريطانيون منح شركة الهند الشرقية احتكار توريد الشاي، قام بعض مواطني "بوسطن" المتنكرين في الزي الهندي بالتسلل ليلًا على متن ثلاث سفنٍ تجارية بريطانية وإلقاء كميات من الشاي تبلغ قيمتها خمس وسبعون ألف دولار في حوض الميناء. تُعرف تلك الحادثة باسم "حفل شاي بوسطن". استمر الوضع على هذا المنوال إلى أن قرر القائد العسكري البريطاني بمدينة "ماساشوستس" - وهو رجلٌ وسطي في حقيقة الأمر - أن يعلن عن موقفه في أبريل عام 1775، حيث أرسل سبعمائة رجلٍ لحجز الذخيرة المخبأة والقبض على "صامويل آدمز".

حينما وصل الرجال إلى "ليكسينجتون" وقابلوا الستين فردًا التابعين للمقاومة المدنية هناك، لم يفعلوا شيئًا في البداية سوى الوقوف قبالة بعضهم بعضًا. تم إصدار الأوامر من الجانبين بعدم إطلاق النيران. صاح القائد البريطاني: "أيها الثوار تفرقوا على الفور" وهذا ما فعلوه أيضًا. ولكن هناك

رصاصة أُطلقت بعد ذلك، لا يعلـم أحـد مصـدرها حتـى يومنـا هـذا. كانـت تلـك هـي الشرارة التي أشعلت برميل البارود[1] ثم أعقبها الانفجار!

حدث تبادل إطلاق نيران، وأخذت أسـوأ الشـائعات تنـتشر عـلى الجـانبين في الحـال. اتخذ التصعيد منحى انفجاريًا. فجأة قامت حرب، حربٌ ثورية. بتأثير من "توماس بـين" Thomas Paine الراديكالي الديمقراطي التنويري "في البلاد الحرة يجب أن يطبق قانون الملـك فقـط لا غـير"[2]، خضـعت المسـتعمرات أخـيرًا - بعـد أن أزاحـت الإمبراطوريـة - لدستور جمهورية ديمقراطية.

لم يحدث كل هذا بسبب الشاي فقط، ولم يحدث أيضًا بسبب إطلاق النار على أحـد جنود المستعمرة أو على أمريكي مـن المقاومـة المدنيـة. كـما أن الثـورة لم تنـدلع كـذلك بسبب الأعباء الضريبية، وإنما اندلعت لأن لنـدن أخـذت تثقـل كاهـل المسـتعمرة عـلى الدوام بقوانين وضرائـب بـلا مغـزى ولا عقـل ولا مـبررات ولا حـق في الاعـتراض. فـرأى مواطنو العالم الجديد إن لنا قيمةً ولا ينبغي علينا أن نحتمل ما لا نطيق.

1- المرجع السابق ص 131.

2- Thomas Paine, Common sense; in: The Works of Thomas Paine, London 1796, S.2.

ثورة أوكرانيا

كان أهم الأسباب المؤدية لقيام الثورة البرتقالية في أوكرانيا عام 2004 هو عدم استعداد ذوي السلطة السياسية لتطوير الدولة، ونسف حاجز الفساد والبيروقراطية والفوضى الذي كان يحول بين أوكرانيا والتقدم الاقتصادي. بينما لم يفسح النظام الداخلي مجالًا للإصلاح، قام بهذا الدور خليطٌ متقدٌ جمع بين الطبقة المتوسطة والذكاء وشباب غرب أوكرانيا المتأثرين بالعولمة والمتسلحين بخبرات أوروبا الذين رأوا أن فرصهم في حياةٍ كريمة تُسلب منهم. ثم ظهر العامل المسبب في الانتخابات الرئاسية التي عقدت في خريف عام 2004، قام مناصرو الإصلاح بالتصويت لمرشح المعارضة "فيكتور يوشتشينكو"Wiktor Juschtschenko ولكن حينما اتضح لهم أن غريمه المدعوم من روسيا "فيكتور يانوكوفيتش" Wiktor Janukowitch قد اقتنص الفوز بعد تزوير الانتخابات، تظاهروا في شوارع كييف لأسابيع إلى أن تحتم عقد جولة الإعادة مجددًا. حينئذ حصل "يوشتشينكو" على أغلبية الأصوات وتعين رئيسًا. كان هذا هو الفصل الأول.

بعد حوالي عشر سنوات، تحديدًا في الحادي والعشرين من نوفمبر عام 2013، استأنفت الثورة مسارها في مكانٍ ما يعرف باسم احتجاجات "الميدان الأوروبي" Euromaidan. في تلك الأثناء، حدث تغييرٌ وزاري. حيث كان المواطنون في حالة سخطٍ على السلطة السياسية بوجه عام. كان "يانوكوفيتش" حينئذ رئيسًا منتخبًا، وقد قدم من جانبه وعودًا بتطوير أوكرانيا وقيادتها نحو

الاتحاد الأوروبي. إلا أن الفساد والبيروقراطية قد استمرا في نهش البلاد، ولم تلح في الأفق أي مؤشرات للإصلاح. ثم ظهر باعثٌ جديدٌ للثورة؛ رفض "يانوكوفيتش" توقيع اتفاقية الشراكة المزمع عقدها بالفعل مع الاتحاد الأوروبي. وبالتالي تظاهر المواطنون في الشارع مجددًا.

إلا أن الأمور لم تسر تلك المرة على نحو سلمي كما حدث في عام 2004. حيث تصاعدت وتيرة الصراع ولجأ كلا الجانبين إلى التطرف مما أدى إلى أعمال عنفٍ وحالات وفيات. ثم حدث أمرٌ جدير بالذكر تناولته صحيفة "نيويورك تايمز" بالبحث المتمعن[1]؛ في العشرين والحادي والعشرين من فبراير، أكدت قيادات ظباط الأمن أن الوضع خارج عن السيطرة، وأن الدولة في حالة انهيار داخلي، وأعلموا "يانوكوفيتش" أن أمنهم الشخصي أهم لديهم من أمنه هو. وبذلك تداعى النظام، وأدرك "يانوكوفيتش" عزلته السياسية فغادر كييف.

بات موقع السلطة السابقة شاغرًا. واستمر هذا الوضع حتى أكتوبر عام 2014 إلى أن عُقدت انتخاباتٌ برلمانية زودت الدولة مجددًا بقيادةٍ شرعيةٍ سياسية.

إذا ما أغفلنا حقيقة انتشار "ميلانخوليا" ما بعد الثورة مجددًا في تلك الأثناء، ستصبح الصورة غير مكتملةٍ بما لا يدع مجالًا للشك. فالنخبة الفاسدة في أوكرانيا ما زالت تسيطر على المناصب السلطوية.

1- Andrew Higgins, Andrew E. Kramer, Ukraine Leader Was Defeated Even Before He Was Ousted; in: The New York Times vom 3.1.2015.

كان حدثًا كلاسيكيًا تألف من العناصر التالية؛ فئاتٌ اجتماعية طموحة لم تعد تحتمل الفارق بين الإمكانية والواقع، نقص استعداد النخبة لتقبل التغيير، حدثٌ مسبب، وأخيرًا قوات أمنٍ تود أن تهرب وتفسح الطريق أمام تغيير السلطة.

إلا أن مصطلح العامل المسبب يكاد يوهم بتقديم تفسيرٍ أكبر مما يقدمه بالفعل. فإذا كان الحدث سيبعث على حدوث شيء ما أو لا فإن هذا لن يتوقف على المرسِل فقط بل سيتوقف على المستقبِل أيضًا. فالمستقبِل يحول الحدث أولًا إلى إشارة تنبيهيةٍ ويتم تعريفه بصفته عاملًا مسببًا من قبل هؤلاء الذين تسببت تصرفاتهم في نشأته. بصياغة أخرى، لن تندلع ثورةٌ دون استعداد مبدئي لها. فهي تنشأ في المرحلة التي تحتك فيها الإمكانية بالواقع، ثم ينتفض الشعب.

اقتحام سجن "الباستيل"

بعد مرور أربعة عقودٍ على قيام الثورة الفرنسية، لخص "هيجل" وضع فرنسا قبل الثورة كما يلي: "كان الوضع بأكمله في فرنسا آنذاك عبارةً عن مجموعةٍ فوضوية من الامتيازات المسخَّرة ضد كل فكرٍ وعقل من الأساس. وضعٌ عبثي أدى في الوقت ذاته إلى أقصى مراحل فساد الأعراف والفكر. مملكة الظلم التي تحولت إلى مرحلة الظلم الفاحش مع بدء استيقاظ الوعي بظلمها. تمثلت دواعي السخط الأولى في الضغط بالغ القسوة الذي وقع على

عاتق الشعب، وارتباك الحكومة بسبب محاولتها منح الحاشية سبل الترف وفرص مغادرة البلاد. أصبح الفكر الجديد نشطًا وأدى الضغط إلى الرغبة في دراسة الوضع، فتبين أن المبالغ المسلوبة من عرق الشعب لا تستخدم لصالح الدولة، وإنما تهدر بأكثر الطرق عبثية، وبدا نظام الدولة بأكمله نظامًا ظالمًا"[1].

وبذلك أدرك "الفكر الجديد" الوضع الحقيقي، ونظر إلى المملكة باعتبارها "مملكة الظلم". إلا أن هناك نقطةً تفصيليةً تخبرنا بكل شيء عن نظام الحكم الظالم في فرنسا قبل الثورة؛ تلقى الملك "لويس السادس عشر" عام 1780 بلطفٍ بالغٍ إهداء عملٍ بعنوان "مدح التعذيب" وكان هذا العمل قد لاقى استحسان البابا "بيوس السادس". أما الفكر الجديد الذي يمثله "هيجل" فلم يرتضِ بمثل تلك الخلاعة أو غيرها. لم يرتضِ بألا تمنح أقل شهادة تخرج للظباط إلا لمن ترجع أصوله لطبقة النبلاء منذ أربعة أجيالٍ على الأقل. لم يرتضِ أن تعيش فرنسا التي يمكن أن تزدهر اقتصاديًا في رجعية متكلفة.

ظهر هذا الفكر الجديد على الساحة السياسية بشكلٍ أكبر مع بدء انعقاد مجلس طبقات الأمة في قصر "فرساي" عام 1789، وظهور طبقة العامة بثقةٍ بالغة، ولجوء الملك إلى المراوغة. في السابع عشر من يونيو، تم الاعتراف

1- Hegel, Vorlesungen über die Philosophie der Geschichte, a.a.O, S.528.

أخيرًا بمجلس طبقة العامة بوصفه مجلسًا قوميًا. بعد ستة أيامٍ، حضر الملك شخصيًا وطالب النواب بفض المجلس، وكان ردهم: "لن يحدث أبدًا!".

كان هذا فصلًا ثوريًا مهدت له بالطبع خطواتٌ سابقةٌ في الإقليم. ولكن هذه باريس، هنا يُحسم كل شيء.

توترت الأجواء. فبينما كان المجلس القومي يحتج على الملك، حدثت اضطراباتٌ أمام القصر، ولكن الحراس تضامنوا مع طبقة العامة. وبدأت في باريس نفسها ثورات الجياع والعمال وأعمال السلب والنهب.

ثم ازدادت حدَّة الموقف. وصف شاهد عيان على قرابةٍ شديدةٍ من الصحفي الثوري "كامي ديمولان" Camille Desmoulin الوضع كالتالي؛ في العاشر من يوليو، طالب وفدٌ من طبقة العامة الملك بسحب قوات المشاة والمدفعية مجددًا. كان الملك قد حشد تلك القوات في العاصمة منذ بضعة أيامٍ أمام أعين الباريسيين. "لم يقدم الملك سوى رد مبهم واحتفظ بالآلات والمعدات معه، حيث اعتبرها - على حد قوله - ضروريةً من أجل حفظ النظام والحرية. إلا أن هذا قد أعطى انطباعًا بأنه على استعدادٍ لممارسة حكمه فوق الأطلال والجثث بدلًا من الحفاظ على القسم المقدس الذي أقسمه أمام الأمة"[1].

ثم تلا ذلك الدافع؛ حيث رفض "جاك نيكر" Jacques Necker -وزير المالية آنذاك - قرار الملك صراحةً. كان "نيكر" حتى ذلك الحين يتمتع بشعبيةٍ سببها أن الشعب قد علق عليه أملًا (زائفًا) في تحقيق الإصلاح

1- Matton aîné, Correspondance inédite de Camille Desmoulins, Ébrard, Paris 1836, S.8.

الاقتصادي. إلا أنه لم يستحق تلك الشعبية بالفعل إلا بعد أن وجه تلك الإهانة للملك. ولكن "لويس السادس عشر" الذي تعرض للإهانة قد وجه إليه أمرًا بعد عدة أيامٍ بمغادرة البلاد سرًا خلال أربع وعشرين ساعة.

في الثاني عشر من يوليو، انتشر الخبر فجأةً في أحياء المدينة كافة. اجتمع الوطنيون الساخطون بأعدادٍ غفيرة في حديقة القصر الملكي. احتدت الأجواء وعلا صوت التهديدات. وفي منتصف الثالثة، ظهر "كامي ديمولان" الذي اعتلى طاولةً، أو بالأحرى رُفع فوقها. أحاطت به أعدادٌ غفيرة، وخطب بهم: "أيها المواطنون إننا الآن بحاجة إلى كل لحظة. إنني قادمٌ من قصر فرساي؛ تم عزل نيكر، وهذا العزل جرس إنذار ينبئ بتصفية الوطنيين على طريقة مذبحة سان بارتيليمي. ستغادر جميع الكتائب السويسرية والألمانية مساء اليوم حرم مارتيوس الجامعي كي يذبحوننا. لم يتبقَ أمامنا سوى حلٍ واحد؛ أن نرفع السلاح ونرتدي شارات القبعة كي نتعرف إلى بعضنا بعضًا"[1].

تلا خطابه هتافٌ عارم. ثم أخرج "ديمولان" مسدسين من جيبه، وعلق شريطًا أخضر على قبعته، ووزع باقي خرق القماش الخضراء التي سرعان ما نفدت، فبدأ الباقون بقطف أوراق الأشجار. وفي لمح البصر أصبحت أشجار القصر الملكي جرداء، ودوى صوت الهتاف: **"هلموا إلى الأسلحة!"** سرعان ما تحولت الأعداد الغفيرة إلى حشودٍ رهيبة تجتاح باريس. وعثر شخصٌ ما على تمثال نصفي لـ"نيكر"، ثم زودوا التمثال بشريط حدادٍ وحملوه في الشوارع.

1- المرجع السابق ص 9.

وفي الليل، كانت تعقد اجتماعاتٌ شعبية وثوراتٌ شعبية. "بينما قامت جموعٌ ثائرةٌ بتحرير السجناء من سجني "كونسيرجيري" Conciergerie و"لا فورس" La Force، حرق ثوارٌ آخرون مباني مصلحة الجمارك المُشيَّدة حديثًا على أطراف المدينة، والتي رفعت رسوم الاستيراد البغيضة على النبيذ. إضافةً إلى ذلك نهب الثوار كمياتٍ كبيرةٍ من الدقيق والغلة من دير اللعازاريون الذي يقع بالطرف الشمالي لباريس"[1]. في الثالث عشر من يوليو، شكل المواطنون قوات حرسٍ وطني واقتحموا محال الأسلحة. "وفي الرابع عشر من يوليو، قاد كامي ديمولان الموكب وصولًا إلى قصر الأنفاليد ثم إلى الباستيل"[2].

وهنا لم يعد الأمر متعلقًا بالدافع وإنما بالوضع برمته، مثلما كان انتحار بائع الخضروات التونسي حرقًا عاملًا مسببًا لقيام ثورات الربيع العربي. وبعد وفاته، تم استئناف سلسلةٍ من ردود الأفعال: حداد علني، عمليات بوليسية، احتجاجات، المزيد من قوات الشرطة، حالاتٌ أخرى من الانتحارات حرقًا، حرائق عمدٍ تُنفذ في مخافر الشرطة، إطلاق الرصاص على الجموع، قتلى، مسيرات حداد، أعدادٌ أكبر من القتلى، مئات القتلى، ومن هنا قامت ثورة انبعث منها حريقٌ هائلٌ سرى عبر العالم العربي.

هناك سمةٌ مشتركة بين الثورة الفرنسية والعديد من الثورات الأخرى وهي حدوث أزمةٍ اقتصادية سابقةٍ للثورة. قد تحدث تلك الأزمة لأسباب مختلفة،

1- Reichardt, a. a. O., S.122.

2- Matton aîné, a. a. O., S.10

فقد ترجع إلى أعمال العنف التي تمارسها الكليبتوقراطية أو الزبائنية (كما حدث في نيكاراجوا عام 1979) أو الحرب (كما كان الوضع في روسيا 1917، وألمانيا 1919/1918) أو التسليح وتراجع أسعار الصادرات المهمة (مثل النفط) وربما أيضًا أزمةٌ اقتصاديةٌ اجتاحت العالم بأكمله مثل الأزمة الاقتصادية التي أصابت إنجلترا عام 1845 وألحقت الضرر بأوروبا بأكملها وساهمت بذلك في موجةٍ ثوريةٍ عام 1848. أو كما حدث في عام 2009 حينما تلقت الفئات الأضعف من أنصار العلمانية صفعةً بالغة القوة نتيجةً للأزمة الاقتصادية مثلما حدث في تونس، وسرعان ما تلا ذلك موجةٌ من أحداث الشغب العمالية التي كانت بمثابة رعدٍ ساخطٍ ينذر بعاصفة قريبة.

وفي كل واحدة من تلك الحالات، كانت ميزانية الدولة المفككة تحد من إمكانات المراوغة التكتيكية المتوفرة لذوي السلطة السياسية. فإذا رفضوا إجراء إصلاحات في هذا الوضع فإنهم سيحاولون مساومة قوى التغيير إلى أن تنفجر. نعود إلى ما قاله "هيجل" عن الأمر: "تحتم تنفيذ التغيير عنوةً لأن إعادة الهيكلة لم تتم على يد الحكومة. ولم تفعل الحكومة ذلك لأن الحاشية ورجال الدين والنبلاء وأعضاء البرلمان لم يرغبوا في التخلي عمَّا يتمتعون به من امتيازات، لا في سبيل الحاجة ولا إحقاقًا للحق ذاته"[1].

فلم يتبقَ أمام الحكام سوى اللجوء إلى أعمال العنف كي يضيقوا الخناق على الشعب إلى أن ينفجر بوجههم.

1- Hegel, Vorlesungen über die Philosophie der Geschichte, a. a. O., S.528.

9

البناء الدرامي

قبل بداية أي ثورة، يعتبر الوضع الجديد بمثابة الحلم، بينما الوضع القائم هو الواقع، هو المعتاد، هو الوضع الملموس الذي تتبعه الأغلبيـة. إلا أن الأوضـاع تـنعكس تـدريجيًا لتصبح إمكانية التغيير واقعية، أما ما ينافي الواقع فهو تصـور بقـاء الوضـع عـلى مـا هـو عليه. وإذا تمسك الحكام بالوضع القديم، ستتم الإطاحة بهم عاجلًا أم آجلًا.

متى؟ حينما نصل إلى الوضع الثوري. ولكن ما الوضع الثوري؟

تقدم اللينينيـة تعريفًـا نموذجيًـا لـذلك الوضـع: "إن عـدم رغبـة الطبقـات الـدنيا في مواصلة حياتها بالطريقة نفسها لا يكفي عادةً لقيام الثورة. فـالأمر يتطلـب أيضًـا عجـز الطبقات العليا عـن مواصـلة حياتهـا بالطريقـة نفسـها"[1]. كثـيراً مـا يـردد النـاس هـذا التعريف بشكلٍ آلي، حتى أن البنية المنطقية للجملة لم تعد تستوقف أيًا مـنهم تقريبًـا؛ هذا مجرد إطناب. فالثورة تعني وفقًا لهذا التعريف عدم إمكانية استمرار الوضـع عـلى ما هو عليه. ومتى يحدث ذلك؟ حينما لا يمكن أن يستمر الوضع على مـا هـو عليـه. لا

1- W. I. Lenin, Der Zusammenbruch der II. Internationale; in: LW, Bd.21, S.206.

يمكن أن يقدم لنا هذا التعريف الكثير من المعلومات. لذا يمكننا أن نتغاضى عن التعريف اللينيني بأريحيةٍ شديدة.

لا يسعنا إلا أن نقول الثورات لها شروط. أحد تلك الشروط التي لم نتحدث عنها بعد هو تحويل فردٍ ثوري محتملٍ إلى جموعٍ ثوريةٍ حقيقية فاعلة. ولكن كيف تتحول مجموعةٌ من البشر قد يجمعها اهتمام مشترك بالتغيير الجذري إلى حشودٍ فعليةٍ ناقدةٍ تتألف من أفراد ذوي فكر ثوري؟

تعد الثورات السابقة أحد العوامل المساعدة على تحقيق ذلك. فمن خلالها، يتعرف أفراد الشعب المقهورون إلى بعضهم بعضًا، ويتمكنون من التفرقة بين الأصدقاء والأعداء، ويتمكنون من تنظيم أنفسهم. أثناء فترة حكم "كومونة باريس"[1] عام 1871 على سبيل المثال، نجد أن العمال قد لعبوا دورًا مهمًا ودافعًا للأمور. يرجع ذلك إلى مشاركتهم بقوةٍ في ثورة عام 1848 التي لم تقتصر حينئذٍ على مجرد كونهم قوات هجوم أو مشاة في ثورة وطنية كما كان الحال عام 1789، ولكنهم مثلوا جزءًا لا يتجزأ من الحركة، أو بمعنى أصح الجناح اليساري للحركة الذي تمكن لفترة وجيزةٍ من فرض متطلباتٍ معينة خاصةً تأسيس "ورش وطنية" كانت بمثابة أجهزةٍ تنفذ إجراءات توظيفٍ عمومية لمشروعات البنية التحتية. سرعان ما تم فض تلك الورش، وفي النهاية حلت المملكة الثانية محل الجمهورية الثانية التي تأسست على يد الثورة، وبالطبع زاد ذلك من تطرف العمال الذين أخذوا يسلكون نهجًا فكريًا

1- حكومة بلدية ثورية أدارت باريس لفترة قصيرة ابتداءً من منتصف مارس 1871، (المترجمة).

اشتراكيًا أكثر فأكثر، وبـذلك نشـأت "الذاتيـة الثوريـة"[1] كـما سـمتها فيلسـوفة التـاريخ "إيرين فيباريللي" Irene Viparelli.

تعتبر الثورة والمحاولات الثورية بمثابـة مراحـلَ تحضـيريةٍ للانقلابـات الكبـيرة، وهـذا النموذج يكاد يكون عالميًا، وهو الذي يلهم الثوار الصمود في كل مرة. فإن لم ينجح الأمر تعتبر تجربة إذًا. نجح هذا التفكير في تحويل الإيمان بنجاح الثورة إلى أمرٍ قاطع لا جدال فيه مثله مثل شتى أنواع الإيمان. فأنا لم أقابل أي شخصٍ يسمي نفسه ثوريًا إلا وقد كان على قناعة تامةٍ بأنه سيشهد تحقيق حلمه بنفسه. أما عن سبب عدم تحقق هذا الحلم إلى الآن فيرجعه الثوار إلى الثورات المضادة والخيانة. فعلى سبيل المثـال، مـا زال اليسـار الألماني المتطرف حتى يومنا هذا مقتنعًا بأن خيانة أغلبية الحـزب الاشـتراكي الـديمقراطي الألماني SPD هي التي حالت دون قيام ثورة مجالس اشتراكية عام 1919.

1- Irene Viparelli, Crises, révoltes et occasion révolutionnaire chez Marx et Lénine; in: Actuel Marx, Nr. 47/2010 (Heft 1), S.30 und 34.

كان هذا الرأي يحمل بعضًا من الصواب. ففي عام 1917، انشق الاشتراكيون المناهضون للحرب العالمية الأولى عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي - الذي كان قد انحاز عام 1914 إلى المحرضين على الحرب أثناء فترة حكم القيصر "فيلهلم الثاني" - مؤسسين بدورهم الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل USPD. أما عن الأغلبية الاشتراكية الديمقراطية المتبقية في الحزب، فقد أطلقت على نفسها لبعض الوقت اسم أغلبية الحزب الاشتراكي الديمقراطي MSPD ويرمز حرف M هنا إلى كلمة "Mehrheit" التي تعني الأغلبية. بهذه القائمة، شهدت الاشتراكية الديمقراطية شهر سبتمبر من عام 1918 الذي اتضح خلاله أن ألمانيا القيصرية القائدة للحرب قد انتهى أمرها. ظهرت بوادر انشقاقٍ في صفوف الجيش، وازداد حنق الشعب على القوى الحاكمة آنذاك.

في الثالث والعشرين من سبتمبر، اجتمعت قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي لمناقشة ما ينبغي عليهم فعله الآن بوصفهم أكبر حزبٍ عمالي بألمانيا. عبر "فريدريش إيبرت" Friedrich Ebert رئيس الحزب عن رأيه بوضوح: "إذا رفضنا التفاهم مع الأحزاب المدنية والحكومة، فسيتحتم علينا ألا نتدخل في سير الأحداث، ثم نلجأ إلى التكتيك الثوري، تاركين مصير الحزب

في يد الثورة. فمَن عايش الأوضاع في روسيا لا يمكن أن يتمنى تطور الأوضاع لـدينا عـلى نحوٍ مشابه، فهذا ليس في صالح الطبقة العاملة"[1].

أن نترك للثورة أمر تحديد مصير الحزب: كـان هـذا التعبـير البلاغـي مثـيرًا للاهـتمام. حيث يحمل افتراضًـا ضـمنيًا بـأن الثـورة قـد تنهـي مسـتقبل حـزب الأغلبيـة الاشـتراكي الديمقراطي.

كان هذا تفكيرًا منطقيًا من جانب "إبرت" لأن قيام ثورة - أو بالأحرى ثورة مضادة - وسط تلك الظروف كان ليعنـي تـدخلًا مـن الخـارج، وحربًـا أهليـة، ومـن ثَـمَّ تصـعيدٌ، وتطرفٌ كما حدث في روسيا. وبخلاف الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل والشيوعيين، لم يرغب حزب الأغلبية في حدوث أيٍّ من ذلك. رأت قيادة الحزب أن "إبرت" على حـق. كما جاء توجهه متوافقًا مع رغبة أغلبية الألمان بما فيهم طبقـة العـمال. فقـد كـان هـذا متزامنًا مع الحرب الأهلية في روسيا. الأمر الذي أثار الذعر في نفوس مَن شهدوا أحـداث الحرب العالمية الأولى للتو.

في نهاية أكتوبر عام 1918، تم تعديل الدستور بالفعل، وتحولـت الملكيـة من ملكية دستورية إلى ملكية برلمانية، وتولت حكومةٌ تابعةٌ لحزب الأغلبيـة الاشتراكي الديمقراطي مهمة إدارة شئون الـبلاد. غـير أن هـذا التـوازن لم يـدم طويلًا. حيث قررت قيادة الحرب البحرية أن تفرض الحرب مجـددًا مخالفـةً بذلك رغبة القيادة السياسية. حمل هذا القرار في طياته ملامح انقلابية تمامًا

1- Zit. n. Winkler, a. a. O., S.362.

وأدى إلى قيام ثورة البحارة. اقتنصت مجالس الجنود السلطة في العديد من المدن بمشاركة من مجالس العمال في الكثير من الأحيان، وبدأت الثورة. رأى "إبرت" أنهم مهددون بحدوث السيناريو نفسه الذي حذر منه.

حاول حزبه في البداية أن يتربع على عرش الحركة كي يصل من خلال المفاوضات إلى عزل القيصر وتأسيس جمهورية برلمانية. حتى الوحدات العسكرية المخلصة للقيصر قد انشقت والتحقت في النهاية بصفوف مجالس الجنود. حينئذ تنحى "فيلهلم الثاني" بالفعل. وعلى الرغم من محاولات النظام القديم للتوصل إلى حل وسط، طالب "إبرت" الأمير "ماكس فون بادن" Max von Baden رئيس الحكومة بتسليم السلطة، وتسلمها "إبرت" بالفعل.

وبذلك أصبح "إبرت" مستشار "الرايخ" وتمثلت مهمته (إلى جانب العديد من المهام العاجلة الأخرى) في التحضير لجمعية تأسيسية للدستور. ولكن كيف سيبدو الدستور الجديد؟ فحزب الأغلبية الاشتراكي الديمقراطي يرغب في جمهورية برلمانية، أما الشيوعيون والحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل فيرغبون في نظام مجالس. وسرعان ما اتضحت مواقف الأغلبية في حركة العمال. حيث تبين أن المجالس نفسها بأغلبية أصواتها هي التي لم ترغب في تأسيس جمهورية مجالس.

حتى يومنا هذا يختلف المؤرخون على تقييم الفترة الواقعة بين الأسابيع اللاحقة لذلك وبين انعقاد انتخابات الجمعية الوطنية في التاسع عشر من يناير عام 1919. ولكن مما لا خلاف عليه تقريبًا أن حزب الأغلبية

الاشتراكي الديمقراطي قد تعاون مع ممثلي النظام القديم من أجل محاربة اليساريين، وإشغار مناصب جمهورية جوهرية. لم تتزعزع السلطة الاقتصادية والاجتماعية التي تمتع بها كل من أصحاب الأملاك، وبارونات "الرور" ذوي الفكر المناهض للجمهورية، والعسكريين، وقد كان هذا خطأ فادحًا كما ثبت بعد مرور عقد من الزمان مع اقتراب النازيين من السلطة.

أسس الشيوعيون لأنفسهم في الثلاثين من ديسمبر عام 1918 الحزب الشيوعي لألمانيا KPD واستطاعوا أن يعوِّلوا على دعم الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وبعض فئات الطبقة العاملة. تصاعد الخلاف بين الثوار والاشتراكيين الديمقراطيين الذين يتمتعون بالأغلبية. وفي بداية يناير، تجرأ الراديكاليون الملتفون حول "كارل ليبكنيشت"Karl Liebknecht ونفذوا محاولةً ثورية فشلت على يد الحكومة الانتقالية التي أدارها الحزب الاشتراكي الديمقراطي. تمكنت الحكومة من قمع تلك المحاولة بمساعدة قوات الفيلق الحر Freikorps فقط. تلك القوات التي كانت في مرحلة سابقةٍ للفاشية وتخضع لإدارة لواءات جيش يتصفون بالرجعية.

في الخامس عشر من يناير، قام ضباط الفيلق الحر باغتيال "روزا لوكسمبرج" Rosa Luxemberg و"كارل ليبكنيشت". وقيل إن الشيوعيين لم ينسوا تلك الفعلة للاشتراكيين الديمقراطيين أبدًا.

إلا أن الفصل الأخير من هذه المسرحية لم يُعرض بعد. حيث دفع قمع ثورة يناير بتلك المسرحية إلى نقطة الذروة التالية. في التاسع عشر من يناير، أجريت

الانتخابات ولم يتمكن حزب الأغلبية الاشتراكي الديمقراطي من الانفـراد بـالحكم وحـده، بل تحتم عليه تشكيل ائتلافات مع أحزاب مدنيـة. إلا أن الأوضـاع لم تسـتقر عـلى هـذا النحو، حيث بدأت موجةٌ عاتيةٌ من الإضرابات. كتب عنهـا المـؤرخ "هـاينريش أوجسـت فينكلر" Heinrich August Winkler: "أثناء الإضرابات، حـاول القسـم المتطـرف مـن الطبقة العاملة فرض تغييراتٍ اجتماعيةً لم تُفـرض في المرحلـة الأولى مـن الثـورة مـا بـين الإطاحة بالملكية وانتخابات الجمعية الوطنية[1]". تأسست جمهورية مجالس في ميـونيخ وأرسلت الحكومة مجددًا قوات الفيلق الحر التي مارست نوعًـا وحشـيًا مـن "الإرهـاب الأبيض" وقع ضحيته عديدون مـن ضـمنهم الثـوري سـالف الـذكر "جوسـتاف لانـداور" Landauer Gustav.

بعد مرور عام كامل - في الثالث عشر من مارس عام 1920 - طـردت قـوات الفيلـق الحر الانقلابية الحكومة من برلين، فيما عرف باسم "انقـلاب كـاب" Kapp Putsch، إلا أنهم لم يصمدوا سوى بضعة أيامٍ حيث أطاح بهم إضرابٌ عام فتداعى الانقلاب في الثاني والعشرين من مارس.

وفي أنحاء أخرى من ألمانيا، حاول اليسار المتطـرف تحويـل الانقـلاب إلى ثورة. في منطقة "الرور" تحديدًا، انتشر شعار "ديكتاتورية الطبقة العاملة"، حيث استولت ميليشـيات العـمال عـلى السـلطة في عـدة مـدن. ومـا بـين

1- المرجع السابق، ص. 396

الثلاثين من مارس والثالث من إبريل، تلقى "جيش الرور الأحمر" هزيمةً عسكريةً بمشاركة المنظمات التي كانت تدعم انقلاب "كاب".

نقل "سيباستيان هافنر" Sebastian Hafner في مذكراته شهادة أحد رجال الفيلق الحر لاحقًا عن هزيمة جيش "الرور" الأحمر: "كانوا شبابًا شجعانًا نوعًا ما، بخلاف نظائرهم في ميونيخ عام 1919؛ فقد كان هؤلاء حفنةً من الأوغاد واليهود والمتسكعين، ولم تكن لديَّ ذرة تعاطفٍ معهم. أما ثوار منطقة "الرور" عام 1920، فقد كانوا حقًا زهرة شباب العمال. وكنت أشعر بالأسى حيال بعضهم. ولكنهم كانوا على درجةٍ كبيرة من العناد، فلم يتركوا لنا خيارًا آخر وتحتم علينا رميهم بالرصاص. فلو رغبنا في إعطائهم فرصةً واستجوابهم هكذا: حسنًا، لقد تم تضليلكم فقط أليس كذلك؟ لصرخوا لا، ولنعتونا بقاتلي العمال وخونة الشعب. لم يكن هذا ليفيد. لذا اضطررنا لإطلاق الرصاص عليهم بالعشرات".

كانت تلك الأرواح هي دعائم السياسة الاشتراكية الديمقراطية آنذاك. كتب "هاينريش أوجست فينكلر": "لم تقدم أية جهة على الإطلاق حصرًا محددًا بإجمالي قتلى الحرب الأهلية في المنطقة الصناعية. تخطى عدد القتلى ضمن صفوف عمال منطقة روربرج الألف قتيل، ووقع من صفوف الجيش الألماني Reichswehr 208 قتلى و123 مفقودًا، وبلغ عدد قتلى أمن الدولة 41 قتيلًا". ما زلت أتذكر جيدًا الحماس الذي كنا نقرأ به نحن - شباب الشيوعيين في السبعينيات - رواية "منطقة الرور المشتعلة" التي صدرت

عام 1927 للكاتب الشيوعي "كارل جرونبرج" Grünberg Karl الذي أصبح لاحقًا من جنود المعارضة والمعتقلين.

بعد انقضاء عام على انقلاب "كاب" عام 1920، نفذ الحزب الشيوعي لألمانيا KPD محاولةً ثورية أخرى في وسط ألمانيا هذه المرة. باءت تلك المحاولة أيضًا بالفشل. على الأقل أصبح الأمر واضحًا الآن؛ الثورة الألمانية لن تتخطى الوضع الراهن المتمثل في جمهوريةٍ برلمانية استوطنها العسكريون والقضاة وموظفو النظام القديم وسلك فيها أتباع الأساس الاجتماعي لفترة حكم القيصر "فيلهلم الثاني" وأصحاب الأملاك وبارونات الصناعة طريقًا مُمهدًا للوصول إلى السلطة.

"انطلقت الرصاصة الأولى في هامبورج"

وعلى الرغم من هذا الوضع، ظل الثوار مؤمنين بالثورة. لذا تجرؤوا بالفعل على القيام بها مرة أخرى، والمقصود هنا ثورة "هامبورج" التي دبرها الحزب الشيوعي لألمانيا عام 1923 بأمرٍ من موسكو. حينما انضممت إلى الحزب الشيوعي الألماني "DKP"[1]، حدث هذا أيضًا بتأثيرٍ من قصص أعضاء الحزب القدامى الذين كانوا يعرفون بعض المشاركين بالثورة. فاق تأثير هذا الأمر تأثير شعارات الجماعات التي تأسست حديثًا انطلاقًا من حركة الطلاب

1- الحزب الشيوعي الألماني (Deutsche Kommunistische Partei, DKP) تكون عام 1968 في ألمانيا الغربية لتعويض الحزب الشيوعي لألمانيا (Kommunistische Partei Deutschlands, KPD) الذي منع سنة 1956 من طرف المحكمة الدستورية الفيدرالية (المترجمة).

التي عرفت باسم الجماعات الشيوعية K-Gruppen وبدا لنا أنها لا تتمتع بالمصداقية الكافية. كنا نغني مع "فرانتس يوزيف ديجنهاردت" Franz Josef Degenhardt نشيد العمال الاشتراكيين "انطلقت الرصاصة الأولى في هامبورج" والذي قيل فيه:

" ما زالت الحواجز القديمة قائمة

وما زالت الأسلحة معبأةً بالذخيرة!"

كما تأثرنا بالتقرير الأخاذ الذي كتبته الصحفية الشيوعية "لاريسا رايسنر" LarissaReisner بعنوان "هامبورج تحت الحصار"[1] الذي مدحه "كورت توخولسكي" Kurt Tucholsky والذي كان بالطبع العنصر الوحيد لتمجيد هذا الحدث. ولكن ما الذي أدى إلى قيام هذه الثورة؟ منذ عام 1990، تم السماح للباحثين الغرب أيضًا بالاطلاع على سجلات موسكو التابعة للـ"كومنترن"[2] وللحزب الشيوعي السوفيتي KPdSU كذلك. في إطار مشروع تعاونٍ ألماني روسي عام 2003، تم استخراج أكثر من مائة وثيقة بهذا الصدد، وثائق تخطف الأنفاس[3]. شكلت هذه الوثائق الصورة التالية.

في الثالث والعشرين من أغسطس عام 1923، قرر المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي (عرف آنذاك باسم الحزب الشيوعي الروسي

1- Larissa Reissner, Hamburg auf den Barrikaden (Reprint); Haag + Herchen, Hanau 2013.

2- الكومنترن (تعرف أيضا باسم الشيوعية الأممية أو الأممية الثالثة) هي منظمة شيوعية تأسست عام 1919 لتنظيم الثورات عن طريق الأحزاب الشيوعية في كل دولة (المترجمة).

3- Bernhard H. Bayerlein et al. (Hg.), Deutscher Oktober 1923; Aufbau- Verlag, Berlin 2003.

البلشفي (RKP(B) أن الوقت قد حان لشن ثورةٍ مسلحة في ألمانيا. وفي خلال الأربعة أسابيع التي أعقبت ذلك القرار، تم التخطيط للثورة في موسكو بدقةٍ بالغةٍ على الصعيدين التكنيكي والسياسي. سافر أول مستشارين عسكريين تابعين للاتحاد السوفيتي إلى ألمانيا. ولكنهم قرروا أن الأمور يجب أن تبدو وكأن الثورة شأنٌ يخص الشيوعيين الألمان فقط، وليس "الكومنترن" أو الحزب الشيوعي الروسي.

دار جدلٌ حول الإستراتيجية الصحيحة واختيار الشعارات. أصر "ستالين" على إقامة نظام مجالس في ألمانيا اقتداءً بالنموذج الروسي، مجالس سوفيتية. علاوة على ذلك يجب الاستعداد لحربٍ قادمة ستتزعمها فرنسا وبولندا ضد ألمانيا السوفيتية وروسيا السوفيتية. وبذلك نجح "ستالين" في فرض إرادته.

أضاف الرفاق الألمان مستكملين: "إذا تحصنت الثورة المضادة بمنطقة حوض الرور، يجب تدمير المنطقة الصناعية. تم اختيار التاسع من نوفمبر كموعدٍ للانطلاق. هذا ما نصت عليه وثيقة تحمل العنوان الجريء التالي: "قرار المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) بشأن تحديد موعد قيام الثورة والإرشادات الموجهة للوفد المبعوث إلى ألمانيا. موسكو، الخميس، الرابع من أكتوبر عام 1923"[1].

1- المرجع السابق، ص. 195

اهتم الحزب الشيوعي لألمانيا بالتنفيذ. في منتصف أكتوبر، انضم شيوعيون إلى حكومة ولايتي "ساكسونيا" و"تورينجن" الخاضعتين لقيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي. تلقى الوزراء أمرًا من الحزب بتسليح العمال الشيوعيين في موعد الثورة. في العشرين من أكتوبر، قرر مركز الحزب الشيوعي لألمانيا أن يعلن عن شعار الإضراب العام والثورة المسلحة. إلا أن الحزب قد قرر لاحقًا أن يجس نبض العمال قبل الهجوم. حدث ذلك في مؤتمر عُقد بمدينة "كيمنتس" وضم مجالس العمال التابعة لولايتي "ساكسونيا" و"تورينجن". وهناك اتضح أن ممثلي العمال لا يعبؤون بشعارات الثورة. فألغت قيادة الحزب الشيوعي الثورة وأرسلت سعاة بريدٍ يحملون هذا الخبر إلى كل الأماكن التي وقفت بها قواتها المسلحة في انتظار إشارة البدء.

إلا أن شيئًا مغايرًا قد حدث في "هامبورج". في الثالث والعشرين من أكتوبر، شن الشيوعيون هجومًا في ظلام الساعات الأولى من الصباح. وبالطبع كتب القائد العسكري للحزب الشيوعي لألمانيا بعد ذلك بقليل: "كان جليًا أن هذا العمل لم يكن ثورةً بل انقلابًا. فعمال هامبورج - بوجه عام - لم يكن رد فعلهم على الثورة يتمثل في إضراب عام"[1].

تمثلت إستراتيجية القتال التي اتبعها الحزب الشيوعي لألمانيا بـ"هامبورج" في اقتحام العشرات من مخافر الشرطة بعددٍ لا يتجاوز المائة رجل في بادئ الأمر من أجل الحصول على الأسلحة من هناك. كان من

1- المرجع السابق، ص. 248

المفترض أن ينسحب المتمردون بعد ذلك عبر أسقف المباني عائدين إلى المواقع المحمية كي يقاتلوا قوات الشرطة المقبلة. إلا أن "الشرطة كانت سيدة الموقف إلى حدٍّ بعيد منذ مساء أول يوم بالثورة" هذا ما ورد في عمل صدر عام 1983 يعيد تجسيد الثورة بناءً على وثائق[1]. لم تحدث مظاهراتٌ حاشدة، أما إضراب عمال الموانئ وحوض السفن الذي بدأ مستقلًا عن تخطيطات الثورة فلم يسمح للشيوعيين بتخطيطه سياسيًا.

كانت الأصوات الشيوعية التي التفت حول زعيم العمال بـ"هامبورج" "إرنست تيلمان" Ernst Thälmann تنادي بالانسحاب. تسببت تلك الواقعة في خسائر أرواح من الطرفين، وبلغ إجمالي القتلى تسعين قتيلًا، ثم انتقمت سلطة الدولة بوحشية اكتسبتها خلال الحرب العالمية.

ولكن لِمَ لَمْ توقف القيادة في "هامبورج" الثورة مثلما فعلت سائر القيادات؟ ما زالت هناك ثلاث نظرياتٍ متداولة بهذا الشأن. إمَّا أن الأمر يعود إلى فجوةٍ في التواصل أدت إلى عدم تلقي القيادات في "هامبورج" لقرار اللجنة المركزية للحزب في الوقت المناسب. وإمَّا أن السبب كان استبداد "تيلمان" الذي كان ينتمي للمعارضة الحزبية اليسارية المتطرفة. إلا أن التفسير الثالث يظل تفسيرًا منطقيًا كذلك، وهو التفسير الذي أوضحه لي "إريش فولنبرج" Erich Wollenberg أحد المسؤولين القياديين بالجهاز العسكري للحزب

1- Angelika Voß, Der Hamburger Aufstand im Oktober 1923; in: Dies. et. al., Vom Hamburger Aufstand zur politischen Isolierung; Landeszentrale für politische Bildung Hamburg 1983, S.12.

الشيوعي لألمانيا آنذاك. وكان هذا التفسير هو أن قيادة الحزب الشيوعي لألمانيا قد رغبت ببساطة في قياس مدى قابلية ألمانيا لقيام ثورة[1]. ولِم وقع الاختيار على "هامبورج" تحديدًا؟ وفقًا لإحدى النظريات، كانت تلك مجرد صدفة، وأشارت نظرية أخرى إلى أن "هامبورج" قد شهدت في خريف عام 1923 ثوراتٍ واضطراباتٍ عفوية بسبب المجاعات. حيث اقتحمت النساء محال المواد الغذائية، وأطلق العاطلون عن العمل العنان لغضبهم وأحدثوا أعمال شغب. إلا أن الغضب وحده لا يقيم ثورة.

على أية حال، كنا - نحن الشباب الأهوج الخاضع للحكم الشيوعي - نقرأ بتفانٍ مقال "إرنست تيلمان" "الدروس المستفادة من ثورة هامبورج" ومما يدعو للعجب أن جاء فيه: "ذاع الصيت الخالد لمقاتلي أكتوبر في هامبورج بسبب لجوئهم لاستخدام السلاح في موقفٍ ثوري لا يضمنون فرصة نجاحهم فيه بنسبة 99 بالمائة[2]". حوَّل "تيلمان" إخفاقه إلى ميزة، وذلك من خلال اتهام قيادة الحزب بالفشل الأمر الذي ناسب قيادة "الكومنترن" التي كانت تشعر بالحرج كذلك بسبب إفلاس "هامبورج" وكانت تبحث عن كبش فداء. وبذلك نشر الطرفان منطقًا سخر منه الثوري الهندي الأسطوري "مانابندرا نات روي" Manabendra Nath Roy قائلًا: "استولى الحزب

1 -Siehe auch Erich Wollenberg, Der Hamburger Aufstand und die Thälmann- Legende; in: Jens Johler (Hrsg.), Schwarze Protokolle, Nr. 6; Berlin, Oktober 1973, S.9.

2- Ernst Thälmann, Die Lehren des Hamburger Aufstandes; in: Ernst Thälmann, Ausgewählte Reden und Schriften in zwei Bänden, Band 1; Verlag Marxistische Blätter, Frankfurt/ M 1976, S.71.

الشيوعي الروسي على السلطة لأنه يتمتع بقيادة بلشفية. انطلاقًا من هذا الافتراض، نستنتج أن الحزب الألماني قد فشل لأنه لم يحظَ بقيادة بلشفية"[1]. كان "روي" حينئذ ينتمي لتيار شيوعي معارض، بعد أن كان أحد مسؤولي "الكومنترن" المرموقين. فهو ينتمي لطبقة الثوريين المحترفين المتنقلين. حيث كان له دورٌ في الصين وإندونيسيا والهند على وجه التحديد: عام 1917 أسس الحزب الاشتراكي في المكسيك الذي تغير اسمه إلى الحزب الشيوعي عام 1919.

دائمًا ما يُخيل للثوريين أنهم نقطة ارتكاز التاريخ. فهم يفسرون هزائمهم بأنها مراحل نضجٍ هامة واستعداداتٌ من أجل اليوم الكبير، وحينما تقوم الثورة بالفعل، يظن النشطاء أنهم السبب وراء تلك الأحداث في المقام الأول، أو أنهم حتى مَن يسيرونها. تظهر فرصٌ عديدة لخداع النفس ليس فقط قبل ولكن أيضًا أثناء الثورة، ونادرًا ما يضيع الثوريون أيًا من تلك الفرص. فغالبًا ما يتناسون حقيقةً جوهرية عبر عنها مؤرخ الثورات "ميجنت" Mignet على النحو التالي: "خلال الثورة التي تحرك الحشود لا يتمتع الفرد بأهمية كبيرة. فإمَّا أن تجرفه الحركة وإمَّا تخلفه وراءها (...) لا يمكن أن نرى خضوع الناس لإرادة الأحداث بشكل أكثر وضوحًا مما نراه في وقت الثورة[2]".

1- Manabendra Nath Roy, Die Krise in der Kommunistischen Internationale, VI. Die "Bolschewisierung"; in: Gegen den Strom; Organ der KPD (Opposition),Berlin, 14. 12. 1929 (Nr.50), S.8 (Reprint: Junius, Hamburg 1985).

2- Mignet, a. a. O., Pos. 972.

لم يستسلم "إيمري ناجي" Imre Nagy لهذا الخداع، بل على العكس أخذت المفاجآت تتوالى عليه تباعًا. كان "ناجي" شيوعيًا مجريًا لم يعرف ما الذي حدث له حينما اجتاحت جموعٌ معارضةٌ بعد ظهيرة الثالث والعشرين من أكتوبر عام 1956 مدينة بودابست وأخذوا يرددون "إيمري ناجي زعيمًا!"[1]. كيف حدث هذا؟

بعد الحرب العالمية الثانية، اتبعت البلاد النموذج السوفيتي. محا الحزب الشيوعي - تحت قيادة "ماتياس راكوشي" Mátyás Rákosi الذي لا يقل ديكتاتوريةً عن "ستالين" - كل آثار الديمقراطية. بدءًا من عام 1950، فرض "راكوشي" على البلاد بأمر من روسيا كورسًا مكثفًا في التصنيع على حساب الاستهلاك المحلي، مما أدى إلى انتشار الفقر سريعًا بين أفراد الشعب[2]. لم يستغرق الأمر طويلًا للتعبير عن حالة السخط التي بدأت أولًا بين المثقفين ثم العمال. ثم بدأت أولى الإضرابات.

بعد موت "ستالين" في مارس عام 1953، لم ترَ القيادة السوفيتية خسائر النهج الصارم الذي اتبعته في المجر فقط، بل أيضًا في تشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الشرقية. كان آخر ما قد ترغب موسكو في حدوثه هو انتشار الاحتجاجات الحاشدة في وسط أوروبا خلال الحرب

1- János M. Rainer, Imre Nagy; Schöningh, Paderborn 2006, S.113.

2- Bryan Cartledge, The Will to Survive. A History of Hungary; Hurst & Co., London 2011, S.429.

الباردة. لذا تم عزل "راكوشي" في يونيو عام 1953 من منصب رئيس الوزراء (إلا أنه ظل رئيسًا للحزب) وتكليف "إيمري ناجي" باتباع نهجٍ أقل صرامة. تلا ذلك بالطبع صراعاتٌ أخرى على السلطة في موسكو وبودابست. وفي عام 1955، أقيل "ناجي" مجددًا وتم استبعاده لاحقًا من الحزب الشيوعي كذلك.

تبين خطأ هذا القرار. حيث شاع السخط بين الطلاب وخرجوا في مظاهراتٍ علنية ضد النظام في خريف عام 1956 بل إن الأمر قد وصل إلى تأسيس اتحاداتٍ معارضةٍ وفرض شروط سياسية واسعة النطاق. ثم وصلوا في الثالث والعشرين من أكتوبر إلى مدينة بودابست لتنظيم مظاهرةٍ تضامنية مع بولندا. وهناك هدد "نيكيتا خروتشوف"Nikita chruschtschow رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي زملاءه الشيوعيين باتخاذ إجراءاتٍ عسكرية ضدهم ما لم يقوموا باختيار قيادة الحزب طبقًا لتعليمات موسكو.

أخذ طلاب بودابست يغنون أغاني الثورة المجرية التي قامت عام 1848، ويغنون النشيد الوطني الفرنسي كذلك. إلا أن طبيعة مظاهراتهم قد تغيرت في لحظةٍ ما؛ حيث انضم إليهم العمال الذين انتهوا من ورديتهم وبدؤوا ينادون جميعًا بشكلٍ مفاجئ: "اطردوا الروس" و"سلموا ناجي القيادة[1]" شاع هذا المطلب بسرعةٍ جعلت أعضاء قيادة الحزب يتصلون بـ"ناجي"، ويطلبون منه أن يسرع بالحضور إلى مبنى البرلمان كي يتحدث

1- المرجع السابق، ص. 445

إلى المتظاهرين من الشرفة. كتب "ناجي" على عجلٍ خطابًا قصيرًا، إلا أنه قد ذكر فيما بعد: "في اللحظة التي أدركت بها الأجواء في الميدان اتضح لي أنني كان ينبغي عليَّ قول شيءٍ مخالف تمامًا لما تخيلته لأن هذا لم يكن ليرضي الحشود". بدأ خطابه قائلًا: "أيها الرفاق..." ولاقى استهجانًا من الحضور. كانت الأحداث تسبقه بمراحل.

ثم عقدت قيادة الحزب جلسةً أعلنت بها عن قرار الحزب الشيوعي السوفيتي بالتدخل، وعينت "ناجي" رئيسًا للوزراء. وقع "ناجي" قراراتٍ بفرض حالة الطوارئ التي تتضمن فرض الأحكام العرفية كذلك.

وفي اليوم التالي، حدث إضرابٌ عام. أصبح هناك ما يشبه الحكم الثنائي، حيث تنافس على السلطة كلٌ من جهاز الدولة القديم ولجنة الثورة. لجأ كلا الجانبين إلى العنف. وأعدمت الجموع المشتبه بهم من الشيوعيين دون محاكمات. تلت ذلك أيامٌ حافلةٌ بالأحداث، تطرفت حركة الحشود في فرض مطالبها، وقدم "ناجي" تنازلًا تلو الآخر إلى أن أعلن في الإذاعة في التاسع والعشرين من أكتوبر أن الحكومة "ستنهي نظام الحزب الواحد" وبذلك بدأ يلحق بركب الثورة.

وبعد يومين، أعلن "ناجي" وقت الظهيرة أن الحكومة تؤيد "إنهاء اتفاقية وارسو وإعلان الحياد" كما أعلن مساءً أنها قد طلبت "مساعدة القوى العظمى في الحفاظ على حياد الدولة" وبذلك تربع أخيرًا على قمة الثورة، إلا أنها قد فشلت.

تم قمع الثورة المجرية وإعدام "ناجي". لخص مؤلف سيرته الذاتية الموقف على النحو التالي: "لم يكن إيمري ناجي الرجل الذي صنع المجر الثورية عام 1956، ولكنه أصبح شيئًا فشيئًا ومن خلال عمليةٍ بطيئةٍ قريب الشبه به إلى أن أصبح الاثنان في واقع الأمر مرادفين لبعضهما بعضًا"[1].

كان هذا مسارًا نمطيًا للأحداث؛ سخطٌ متزايد. تسبب تواجد "خروتشوف" في بولندا في مظاهراتٍ حاشدة، بحثت الجموع عن قائد، ظهرت ملامح التداعي على السلطة القائمة، ثم جاء القرار. إلا أن الثورة المضادة قد انتصرت في هذه الحالة بسبب الظروف الخارجية غير المواتية؛ حيث تمتعت موسكو بالسلطة المطلقة بخلاف الغرب، كما كان الوضع سابقًا في السابع عشر من يونيو عام 1953 في جمهورية ألمانيا الشرقية، ولاحقًا في الحادي والعشرين من أغسطس عام 1968 في جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية. وازدادت بشكلٍ كبيرٍ خطورة تحوُّل الحرب الباردة إلى حربٍ عالمية، أو نووية حتى.

من المظاهر المميزة للحظة ما قبل اتخاذ القرار مباشرةً ظهور الفارين الذين انشقوا عن النظام القديم. وبالطبع تمتع مناصرو الجهاز القمعي المنحازين إلى الجانب الآخر بأهمية خاصة، ويقصد هنا الجيش والشرطة وقوات الأمن الأخرى - كما حدث في الثورة الفرنسية والإيرانية كذلك - أو هؤلاء ممن يعرضون وساطتهم ويقومون بدور مستقطبي الحكومة الجديدة

1- Rainer, a. a. O., S.163.

أو الجمعية التأسيسية للدستور. يمكن ملاحظة تلك الأوضاع كافةً في عام 2011 من الثورة التونسية حينما سيطر الجيش على الثورة المضادة، وظهر على الساحة مجددًا سياسيون اتخذوا في وقتٍ ما موقفًا محايدًا على الرغم من انتمائهم للنظام القديم. وضعت أغلبية الشعب ثقتها بهم للتفاوض من أجل مستقبلٍ سلمي للثورة.

حينما يصبح مركز السلطة عاجزاً عن التصرف يصبح الوضع محفوفًا بالمخاطر. حيث تنفتح ثغرةٌ لا تتضح نهائيًا إمكانية سدها. ولا يحدث هذا إلا حينما تجهل الحشود المتحركة إلى أين المسير. ولكي نوضح تلك الصورة يجب أن تستدعي الذاكرة مجددًا أحداث شهر مايو عام 1968 في باريس. حينئذٍ تظاهرنا نحن طلاب المدارس والجامعات أمام قنصلية فرنسا العامة الواقعة على ضفاف بحيرة "ألستر" بمدينة "هامبورج"، وأتذكر أحاديث ترددت بها عبارة: **"الثورة تبدأ في باريس"**.

شلت المظاهرات والإضرابات حركة البلاد، حيث انطلق العمال والطلاب في الشـوارع. على الرغم من غموض واختلاف شعاراتهم، فإن أمرًا واحـدًا هـو مـا كـان جليًـا بالنسـبة للجميع؛ يجب أن يرحل الرئيس "شارل ديجول" Charles de Gaulle الذي أراد بـدوره أن يهدئ الوضع مجددًا من خـلال عقـد اسـتفتاء حـول الإصـلاحات، ولكنـه لم يجـد أي مطبعة يبدي موظفوها استعدادًا لطباعة بطاقات الاستفتاء. تداعت السلطة.

خشيت الحكومة تصاعد أعمال العنف. في السابع والعشرين مـن مـايو، كتـب "آلان بيرفيـت" Alain Peyrefitte - وزيـر التعلـيم آنـذاك - معلقًـا عـلى إسـتراتيجية رئـيس الوزراء "چورچ بومبيدو" Georges Pompidou أن تلك الإستراتيجية قائمةٌ على "جعـل الحزب الشيوعي هو العماد الوحيد الذي يمكن للحكومة وللدولة الارتكاز عليـه، وذلـك لأنه يمثل عنصر القوة الوحيد الذي أراد تفادي الثورة بأيٍّ ثمن"[1].

ربما يدعو ذلك للدهشة، إلا أنه كان صحيحًا. فالشيوعيون كـانوا يخشـون الأمر ذاته الذي كان "شارل ديجول" يفكر به وهـو تـدخل الجـيش[2]، الأمـر الـذي كـان ليصـاحبه تغيـيرٌ جـذري في الجمهوريـة. حيـث سـتتقلص فـرص اليساريين التقليديين في المشاركة في الحكم مجددًا يومًا ما بسبلٍ برلمانية. لذا

1- Alain Peyrefitte, C'était de Gaulle; Gallimard, Paris 2002, S.1755.

2- De Gaulles Überlegungen werden wiedergegeben in: ebd., S.1756 f.

وصف رئيس الحزب الشيوعي "فالديك روشيه" Waldeck Rochet فكرة الماويين والتروتسكيين وغيرهم من الجماعات اليسارية المتطرفة بوجوب انتزاع السلطة في الحال بأنها "مغامرة"، بالإضافة إلى أن مثل هذا الموقف هو ما يتطلع إليه "ديجول" بالضبط[1].

كان هذا التحفظ الإستراتيجي مترسخًا في أذهان شيوعيِّ أوروبا قرابة انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ حيث أوضح "ستالين" لرفاقه آنذاك أنهم سيتمتعون بممارسة نفوذهم على بلادهم، ولكن لا ينبغي عليهم بأي حالٍ من الأحوال إثارة الفوضى، لأن هذا قد يزعج الجغرافيا السياسية السوفيتية التي كانت تتجه إلى مفاوضة قوى السلطة في الغرب بناءً على اتفاق مفاده "الاستقرار في الغرب مقابل الاستقرار في الشرق". من ناحية أخرى، كان الاستقرار في الشرق ضروريًا من أجل بناء الاشتراكية. كانت تلك هي الحجة المتداولة في ذلك الوقت.

وبذلك لم يرغب الشيوعيون الفرنسيون في القيام بثورة، وإنما رغبوا في تشكيل حكومةٍ ائتلافيةٍ وإجراء إصلاحاتٍ اجتماعيةٍ وسياسية. وكان هذا يتماشى بالطبع مع أهواء الطبقة العاملة التي كانت تمثل في ذلك الوقت فئةً مجتمعيةً كبيرة واضحة المعالم لم تكن ترغب في قيام الثورة في أيٍّ من أنحاء أوروبا[2]. ولكنهم كانوا يرغبون قطعًا في إجراء إصلاحاتٍ جذرية. وبذلك

1- Waldeck Rochet, Les enseignements de mai-juin 1968; Éditions soicales, Paris 1968, S.29 – 43.

2- Hobsbawm, a. a. O., S.298.

نجح الحزب الشيوعي الفرنسي - حزب جماهيري حقًا آنذاك - في تقييم الموقف بشكلٍ صحيح.

على الرغم من ذلك، رأى الكثير من الفرنسيين في الأيام التالية من شهر مايو أن أيَّ سيناريو لمسار الأحداث واردٌ. ثم ظهر اللغز الكبير في التاسع والعشرين من مايو: "اختفى الرئيس".

في الصباح، كان "ديجول" قد غادر البلاد برفقة زوجته على متن مروحية. لماذا؟ أين كان؟ حتى أفراد الحكومة لم يعرفوا ذلك. إلى أن انتشرت أنباء عودة "ديجول" إلى منزله بمقاطعة "شامبانيا"، إلا أنه وفقًا للأنباء، كان قبل ذلك في "بادن بادن" بألمانيا. لماذا هناك تحديدًا؟

كانت "بادن بادن" هي موقع البعثة العسكرية الفرنسية لألمانيا. وهناك التقى "ديجول" رفيق النضال القديم الجنرال "جاك ماسو" Jacques Massu الذي كان قد انضم عام 1940 إلى المقاومة التي دعى إليها "ديجول"، وحارب المحتلين الألمان عسكريًا، وشارك لاحقًا في الحروب الاستعمارية الفرنسية في شبه الجزيرة الهندية الصينية والجزائر، وأثبت هناك مقدرته على الصمود أمام صور الوحشية كافة. ماذا أراد "ديجول" من المحارب القديم وجنرال التعذيب؟ أن يتأكد من وقوف الجيش في صفه؟ أن يُحضِّر لانقلاب؟

وفقًا لما صرح به "ماسو" فإن "ديجول" قد أخبره فور وصوله: "لقد انتهى كل شيء. لن أصدر أية أوامرٍ بعد الآن. سأتنحى. وقد جئت أبحث عن

مأوى لديك لأنهم هددوني وأسرتي"[1]. إلا أن "ماسو" استطاع لاحقًا - على حد قوله - إقناع الرئيس بعدم التراجع. هل كان "ماسو" هو منقذ فرنسا؟ هكذا صور الأمر على أي حال.

سواء إذا صدقناه أو لم نصدقه، سيظل الواقع هو أن مكان الرئيس قد ظل مجهولًا لبعض الوقت ولم يعلمه أحد، والواقع أيضًا أن "ديجول" أعلن في الإذاعة بعد يومٍ من زيارته لـ"بادن بادن" أنه لن يتنحى، ولكنه سيقوم بحل الجمعية الوطنية وعقد انتخاباتٍ جديدة. وفي حال استمرار الإضرابات سيتم فرض حالة الطوارئ.

حقق هذا الخطاب مفعوله. حيث تدفق على الفور مئات الآلاف من المواطنين عبر شارع "الشانزليزيه"، ونادى الشيوعيون بوقف كافة الإضرابات، وبدا وكأن طوفان الأحداث يتخذ تيارًا معاكسًا. في نهاية شهر يونيو، فاز الديجوليون بالانتخابات. ربما كان "ديجول" هو الوحيد الذي راهن على إمكانية حدوث ذلك. حيث كان يتمتع بحس المجازفة السياسية.

رأى "بيرفيت" أن المحنك القديم "ديجول" كان يمسك دائمًا كل الخيوط في يده، وأن زيارته لـ"ماسو" لم تكن سوى نوعٍ من أنواع الفواصل الدرامية. كان "ديجول" قادرًا على فعل ذلك، إذ كان حاذقًا بتحضير المفاجآت المثيرة. إلا أننا لن نعرف الحقيقة أبدًا. أما إذا اضطررت للتخمين فسأقول "ديجول" أراد أن يتأكد ما إذا كان يستطيع الاعتماد على "ماسو"

1- Général Massu, Baden 68; Plon, Paris 1983, S.79.

وقواته في أسوأ الأحوال، أي في حالة الصراع المسلح على السلطة. فمن المعروف أنه كان يتمتع بمخيلة تشاؤمية بما فيه الكفاية وأنه قد شهد بالفعل نهاية أكثر من دولة.

كيف يمكن حماية السلطة الثورية؟

طالما أن النظام القديم ما زال يتراجع أمام الهجوم الثوري، فإن قضية السلطة لم تحسم بعد. فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو مَن يستطيع سد الثغرة الحالية؟ في كل مرةٍ تكون الثورة المضادة على استعدادٍ للتدخل والقيام بهذا الدور.

هذا ما حدث في الثورة التونسية. في الأيام التالية للرابع عشر من يناير عام 2011، قامت قافلاتٌ من سيارات الدفع الرباعي الرياضية المحمَّلة عن آخرها بمؤيدي الأجهزة الأمنية لـ"بن علي" بنشر الاضطراب في شوارع المدن. شكَّل المواطنون لجان الأحياء. في تلك الأثناء، كنت أجوب طرقات بعض أحياء العاصمة ودهشت من ضعف تسليح دوريات الدفاع المدني؛ ألواح خشبية، عصي المشي، مضارب جولف، فؤوس، ومن حين لآخر بنادق صيد. لم تكن تونس حتى تلك اللحظة بلدًا يسمح بتداول الأسلحة النارية، ولكن الوضع قد تغير الآن.

رأيت حواجز في الشوارع الجانبية، بعضها مشيدٌ بعشوائية تامةٍ والبعض الآخر مشيدٌ باحترافيةٍ مدهشة. فقد استخدموا في بنائها كل المواد

تقريبًا، الأثاث المنجد والمقاعد الخشبية. كما رأيت نساءً يقفن أمام مقاعدَ حماماتٍ وأنبوبِ عادمٍ ويقمن بتحضير القهوة والساندويتشات.

تحتَّم على اللجان في تلك الأيام الاعتناء بكل شيءٍ تقريبًا. فلم تقتصر مهمتهم على الدفاع فقط، وإنما أيضًا إمداد الأحياء بالمواد الغذائية والأدوية، كما أن تلك اللجان قد حلَّت محل الشرطة التي لم يُرَ لها أثرٌ بعد ذلك. وكانوا يتناقشون في اجتماعاتهم حول مسار الأمور في تونس فيما بعد. واختاروا من هنا ومن هناك رؤساء يتواصلون مع اللجان المختلفة، ولم يكن هذا في نهاية المطاف سوى نموذجٍ مصغرٍ لنظام المجالس.

لم يتطور هذا النظام لأن تونس بلدٌ يتبع تقليدًا دستوريًا صارمًا تمتد جذوره إلى عصر الحركة الاستقلالية المعادية للاستعمار. كان التصور السياسي التونسي ينظر إلى تعاقب الأنظمة باعتباره سلسلةً من المعابر المنظمة للانتقال من دستورٍ لآخر. ذلك الانتقال الذي يؤسس في كل مرّةٍ سلطةً مركزيةً لها شرعيتها.

أما عن تصور إعادة بناء الدولة مجددًا بشكلٍ كاملٍ من الألف إلى الياء، فلم يكن مطروحًا من الناحية العملية. وكان هذا أفضل أيضًا؛ لأن مشاركة قسمٍ كبيرٍ من النخبة السياسية القديمة في تغيير النظام أمَّن الطابع السلمي الغالب على الثورة.

كتبت "حنا أرندت" Hannah Arendt عن التنظيم الذاتي الثوري: "منذ عام 1789، تشكلت المجالس عفويًا في كل الثورات دون أن يعرف أيٌّ من المشاركين بالأمر أن تلك المجالس قد كان لها وجود من قبل، ودون أن يخطر على بال بشرٍ أن ما حدث بشكلٍ عفوي سيعلق بالأذهان"[1]. وقد تعرفنا على مثل تلك المجالس أثناء ثورة نوفمبر الألمانية على سبيل المثال.

عادةً ما تدخل تلك البُنى في منافسةٍ مع هيئات الدولة التي تشارك أيضًا - بطريقة أو بأخرى، على مهلٍ أو على عجل - في العملية الثورية كي ينشأ حكمٌ مزدوج. وقد دلل "كرين برينتون" Crane Brinton على هذا الأمر مستشهدًا بالثورة الروسية والثورتين الإنجليزية والفرنسية كذلك. ففي إنجلترا، تنافس البرلمان الوسطي مع جيشه من حينٍ لآخر - نموذج الجيش الجديد لـ"أوليفر كرومويل" Oliver Cromwell - وفي فرنسا تنافست الجمعية الوطنية الوسطية مع أعضاء نادي اليعاقبة لمدةٍ طويلة. من ناحية أخرى، تشكلت في أثناء الثورة الإيرانية بنيةٌ تعرف باسم "الشورى". كانت تمثل أيضًا اجتماعاتٍ تُعقد في المؤسسات والمناطق السكنية لاختيار المجالس الخاصة بهم.

غالبًا ما تجتمع اللجان والمجالس بغرض الدفاع عن الثورة، ولكن هذا الغرض بالطبع قد يؤول على أوجه مختلفة تمامًا. وتعد كوبا ونيكاراجوا

1- Arendt, a. a. O., S.336.

وفنزويلا أمثلةً على احتمالية تحوُّل السيطرة الاجتماعية التي يجب أن ترسخ السلطة الثورية والنظام العام في الأحياء السكنية إلى عمليات تجسسٍ وقمعٍ للمعارضين. قد نتعاطف مع الطابع الديمقراطي لنظام المجالس، إلا أن خطر تحوله إلى ديكتاتورية يظل قائمًا في ظل غياب الضمانات القانونية.

لم يكن "لينين" يطمح إلى شيءٍ آخر سوى ذلك. فقد كان يعتبر نظام المجالس السوفيتي نموذجًا مصغرًا لديكتاتورية الطبقة العاملة التي عرفها في عام 1918 كما يلي: "الديكتاتورية الثورية للطبقة العاملة هي سلطةٌ تم الاستيلاء عليها وسيتم الحفاظ عليها من خلال العنف الذي تمارسه الطبقة العاملة ضد البرجوازية، وهي سلطةٌ لا تنصاع لأية قوانين"[1]. فيما بعد انحط قدر تلك المجالس، وتحولت إلى أجهزةٍ تنفيذية للحزب، وهذا ما يوضحه الاقتباس المباشر على لسان "لينين": "لا يُتخذ قرار في أي شأنٍ سياسي أو تنظيمي هامٍ في أيٍّ من المؤسسات الحكومية بجمهوريتنا إلا بتعليماتٍ من اللجنة المركزية لحزبنا"[2]. وعلى الرغم من فيضان القوانين الاشتراكية التي سرعان ما تم فرضها، فإن السلطة قد تعاملت معها على هواها. بدا الوضع متزنًا، وموافقًا لتوجهات "لينين" "لا ينصاع لقوانين". من هذه الناحية، بدت الثورة الروسية على الصعيد السياسي أقرب إلى الثورة الفرنسية منها إلى الثورتين الأنجلوسكسونيتين.

1- W.I. Lenin, Die proletarische Revolution und der Renegat Kautsky; in: LW, Bd.28, S.229.

2- W. I. Lenin, Der "linke Radikalismus", die Kinderkrankheit im Kommunismus; in: LW, Bd.31, S.32.

نتجت عن الثورات الإنجليزية والأمريكية نظمٌ سياسية تتمتع بتوازنٍ داخلي للسلطة "نظام الضوابط والموازين" Checks and balances. أما عن الثورتين الفرنسية والروسية فقد نتج عنهما ما كانتا تفران منه: المركزية والأوتوقراطية. ففي نهاية الأمر، تقلد الحكم "نابليون" و"ستالين". وفي الحالات الأربعة طورت البنية السلطوية الجديدة من الأمم، بينما حققت إنجلترا وأمريكا هذا التطوير بطرقٍ برلمانية، حققته فرنسا وروسيا بطرقٍ ديكتاتورية.

تقويض جهاز الدولة القديم

حتى البلاشفة الذين قرروا هدم جهاز الدولة القديم عن آخره بدلًا من تولي إدارته قد وجدوا أنفسهم أمام السؤال التالي: كيف ينبغي عليهم الآن أن يحكموا ويديروا دون الاستعانة بأشخاصٍ من ذوي الخبرة بالحكم والإدارة؟ هذا سؤالٌ عملي للغاية، وقد أجاب عنه البلاشفة إجابةً عملية أيضًا. حيث كانوا يرحبون على سبيل المثال بالمهندسين والموظفين الذين عملوا لصالح السلطة السوفيتية، بالطبع كانوا يكلفون عادةً محققين سياسيين ورقباء بترصدهم، شريطة عدم ارتكابهم أية جرائم قتل. وقد كان التحقق من هذا الأمر صعبًا بالطبع، واتسع المجال للتنازلات والفساد الأخلاقي منه أيضًا. ولا يسعنا هنا إلا أن نتذكر إعادة بناء الدولتين الألمانيتين بعد عام 1945، والذي لم يكن ليتحقق في الغرب أو الشرق دون مشاركة نازيين سابقين. فقد كان هناك

العديد من النازيين الألمان. وما زال السؤال الآن هو كيف تم هذا الأمر "سابقًا"؟ بالطبع تم التعامل مع الأمر في الغرب بسلاسة أكبر من الشرق. منذ بضع سنوات، وقفت تونس أيضًا أمام ذلك السؤال في فترة ما بعد الثورة، التي يصور فيها كل خبيرٍ تقريبًا نفسه وكأنه من ضحايا الديكتاتور "بن علي" أو المعارضين له سرًا.

لا يمكن استمرار الأوضاع دون الاستعانة بالقضاة ورجال الشرطة والجنود السابقين. تلك هي حجة الخبراء التي كانت بمثابة سِتار آمن لمنع تحريضات الثورة المضادة. تحتم على جمهورية "فايمار" المرور بتلك التجربة. فمن ضمن المشكلات الأساسية في تلك الفترة - كما أوضحنا سابقًا - استمرار الجهاز الإمبراطوري السابق المعادي للجمهورية بشدة.

إن تصور زعزعة جهاز الدولة الحالي من قِبل الثورة، أو تغييره، أو هدمه يثير بطبيعة الحال الرعب في قلوب الفئات التي لديها ما تخسره. في عام 1848، ألف "يوهان نيستروي" Johann Nestroy الحوار التالي في مسرحيته بعنوان "حرية في المدينة الصغيرة".

"إيميرينتسيا (متضرعة): يا إلهي! ما هذا بحق السماء؟

كلاوس: ثورة، ثورة خالصة!

إيميرينتسيا: فليكن الرب في العون!

سيسيليا: أتمنى فقط ألا يصيب الموظفين سوء!"

إن استمرار وجود الأجهزة والموظفين هو شأنٌ من شئون سياسة التحالف؛ سيتفوق في هذا الوضع مَن يتمكن من تقديم وعد معقول للمترفين بأنهم في غنى عن الخوف من الفوضى على الرغم من حالة الثورة. فاستمرارية الدولة واستمرارية الملكيات الخاصة يتعلقان ببعضهما بعضًا. لخص "ماكس شتيرنر" Max Stirner أحد رواد اللاسلطوية الفردية لب هذا الموضوع كالتالي: "إنني أحصل على كل شيءٍ من الدولة. هل حصلت على شيءٍ دون موافقتها؟ ما حصلت عليه بلا موافقتها ستنتزعه مني حالما تكتشف "السند القانوني" المفقود ... إن المواطن هو ما هو عليه بحماية الدولة وبرحمة الدولة. ويجب أن يخشى خسارة كل شيء إذا ما انهارت سلطة الدولة"[1].

ليست سياسة التحالف المتعلقة بالثورات بالأمر الهين. فمعدومي الأملاك يريدون مَن يرضيهم وأصحاب الأملاك يريدون مَن يطمئنهم. وكلا الأمرين لا يمكن تحقيقه إلا في حدود بسبب تعارض المصالح أولًا، وثانيًا لأن الثورات تكلف كثيرًا؛ إذ يعقبها في الغالب كسادٌ اقتصادي طويل المدى. ينطبق هذا الوضع تحديدًا على الفترة التي تتعرض فيها الثورة للهجوم ويتحتم الدفاع عنها، وقد يستمر هذا الوضع لفترةٍ طويلةٍ جدًا.

1- Stirner, a. a. O., S.158.

غالبًا ما تمثل مراحل الدفاع عن الثورة - خاصةً ضد الأعداء من الخارج - مراحل تطرفها. هكذا آلت الأمور في فرنسا في أكتوبر عام 1791 إلى قيام انتفاضةٍ جماهيرية ثانية يمكن أن نطلق عليها أيضًا "ثورة ثانية"[1]. ونتج عنها القضاء على الملكية الدستورية، مما يعني الإطاحة بالملكية. إلا أن الخطوة التالية لذلك لم تشهد تطورًا برلمانيًا سلميًا. تعد الصراعات الداخلية على السلطة وتشكيل التيارات اليمينية واليسارية لعبةً سياسيةً معهودة، ولكن الضغط الخارجي قد جعل تهمة الخيانة تلوح في الأفق، والتي قد تؤدي بدورها إلى عواقب مميتة.

بدت فرنسا وكأنها وقعت تحت تهديد رد الفعل الأوروبي، وتطرفت السلطة الثورية في باريس، وتصاعدت وصولًا إلى مرحلة سفك الدماء الإرهابية. لخص الثوري الفرنسي الوسطي "بيير فيرنيو"Pierre Vergniaud - الذي مات تحت المقصلة شأنه شأن الكثيرين - تلك المرحلة في الكلمات الشهيرة التالية: "أيها المواطنون إننا نخشى أن تفعل الثورة كما فعل إله الإغريق ساتورن فتبدأ بالتهام صغارها شيئًا فشيئًا وتجلب الاستبداد في نهاية الأمر"[2].

1- Reichardt, a. a. O., S.137 f.

2- Zit. n. Mignet, a. a. O., Pos. 3719.

لا يمكن قراءة التقارير التي كُتبت عن المحاكم الصورية في باريس وفي موسكو بعد 140 عامًا إلا وسط حالةٍ من الذعر والذهول. فالذين شاركوا في الثورة باذلين أرواحهم في سبيلها تم نعتهم فجأةً بالثوار المضادين والجواسيس وتمت تصفيتهم. في صيف عام 1794 في باريس، فقد 1376 مواطنًا حياتهم تحت المقصلة[1]. وما بين عامي 1934 و1939، ألقى أتباع "ستالين" القبض على أربعة إلى خمسة مليون من أعضاء الحزب لأسبابٍ سياسية، وأطلقوا الرصاص على ما بين أربعمائة إلى خمسمائة ألف منهم دون محاكمات[2]. وفي تصريح مباشرٍ على لسان "ستالين" عام 1837، تحدث عن المعارضة داخل الحزب قائلًا: "يجب أن نوضح أن الصراع ضد التروتسكية الحالية لا يحتاج الآن إلى الطرق القديمة، ولا سبل التحاور، وإنما طرق جديدة، طرق الإبادة والسحق"[3].

تنقلب الثورة على الثوار، وهذا ما حدث أيضًا في كوبا في عهد الرئيس "فيدل كاسترو" Fidel Castro حيث لم تستطع كوبا تحت وطأة الحرب الباردة أن تجد حلًا لمواجهة تدخل الولايات المتحدة الأمريكية سوى اللجوء إلى الاتحاد السوفيتي، واتخذت الثورة ذات التوجهات التحررية القومية والديمقراطية الخالصة نهجًا اشتراكيًا. أما عن رفاق "كاسترو" في الكفاح ممن امتنعوا عن المشاركة، فقد زُجَّ بهم في السجون بوصفهم خونةً (علمًا

1- Reichardt, a. a. O., S.165.

2- Hobsbawm, a. a. O., S.391.

3- J. W. Stalin, Werke, Bd.14; Verlag Neuer Weg, Dortmund 1976, S.70.

بأن القمع في عهد "كاسترو" لم يصل أبدًا للدرجة القاتلة التي وصل إليها نظيره في عهد "ستالين"). وقد اتخذت الثورة الجزائرية مسارًا مشابهًا لدوافع مشابهةٍ لتلك.

حينما تتطرف الثورات، يستمر الوضع من تلقاء نفسه إلى ما لا نهاية، خاصةً إذا عوَّلت سلطة القادة الثوريين على الجموع الهائجة التي يجب إمدادها ليس فقط بالدعم المادي، بل أيضًا بالدعمين الفكري والعاطفي المتجددين (خاصة في حالة عدم توافر الدعم المادي).

فقد كان "روبسبير" Robespierre على سبيل المثال يدفع الأموال بشكلٍ منتظمٍ للجان الثورة والنوادي التي يجتمع بها شعب باريس، ويؤكد عليهم أن نقاشاتهم وقراراتهم أهم من كل ما ينصه الدستور. وبذلك أقحم نفسه فيما يشبه جمهورية المجالس التي لم تعد تنصاع لأية قواعدَ تابعةٍ لسيادة القانون.

بدأت تلك الأصوات ترتفع وتطالب بالعدالة الاجتماعية والرقابة على الأسعار وإعادة التوزيع والسياسة الاجتماعية، مما أثقل كاهل الطبقة الوسطى بالعديد من الأعباء. تم التخلص من الأرستقراطيين وأفراد البلاط الملكي وأمراء الكنيسة وبالتالي كان من المفترض أن تنتهي الفوضى ويصبح مسار التجارة الآمن ممكنًا مرةً أخرى. وهذا ما صاغه "ألكسيس دو توكفيل" Alexis de Tocqueville كالتالي: "ليس هناك ما يعترض طريق الطقوس

الثورية أكثر من الطقوس التجارية"[1] هددت الثورة بفرض وضعٍ لا يمكن التنبؤ به. فكان ينبغي أن توضع لها نهايةٌ من منظور الطبقة المتوسطة.

"ترميدور"

هكذا تسير الأمور عادة؛ تواصل الثورة دفع نفسها إلى الأمام حتى تصل إلى النقطة التي تواصل بها زعزعة استقرارها. وهنا يجب التوصل إلى حل تنظيمي مطمئن. وهناك ثلاث إمكانياتٍ لهذا الحل.

الإمكانية الأولى: تُجرى الإصلاحات على يد تلك القوى التي شاركت في الثورة مع غيرها، ولكنها تود أن تستفيد الآن من نتائجها عن طريق العيش في هدوء وأمان دون وصول المتطرفين إلى السلطة. هكذا كان الوضع في يوليو عام 1794 حينما تمت الإطاحة بالحكم الإرهابي لـ"روبسبير". كان هذا الشهر يسمى آنذاك "ترميدور"، ومنذ ذلك الحين يتحدث الناس عن "ترميدور" الثورة حينما تتوقف ويتم القضاء عليها شيئًا فشيئًا عن طريق العنف.

كانت باريس هي المتنفس آنذاك في البداية. رحل "روبسبير" ولكن الحرية لم تعد. حيث قمعت الحكومة الجديدة اليسار الشعبوي، وقامت انتفاضات عنيفة امتدت لشهور آخرها انتفاضة من العشرين إلى الثالث والعشرين من مايو عام 1795. تم قمع تلك الانتفاضات، إلا أن المتطرفين لم يستسلموا

1- Alexis de Tocqueville, Des Révolutions dans les sociétés nouvelles; in: Revue des deux mondes, April 1840, S.325.

وبدؤوا منذ تلك اللحظة بتدبير المؤامرات. ظلَّ وضع الحكومة متزعزعًا إلى أن استولى على السلطة في النهاية الجنرال "نابليون بونابرت".

حتى الثورة الإيرانية شهدت "ترميدور" خاصًا بها؛ مهد اقتحام السفارة الأمريكية في طهران على يد طلبةٍ متطرفين للاستيلاء على السلطة من قبل المُلالي الذين كانوا يمثلون مصالح السوق. تلك الطبقة البرجوازية الصغرى والوسطى التي أرادت أن تباشر أعمالها ولم تعد تحتمل فترة الفوضى التي تم خلالها التعامل مع الصراعات الاجتماعية بشكلٍ علني قاسٍ. منذ تلك اللحظة، تم اعتبار أية معارضة يمينية كانت أو يسارية وأي إضراباتٍ على وجه التحديد بأنها مؤامرات من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ضد إيران وتمت معاقبة أصحابها بقسوة.

البديل الثاني: تمسك القيادة الثورية بزمام الأمور وتجري الإصلاحات بنفسها. بعد أن تحولت إنجلترا عام 1649 إلى جمهورية بلا ملكٍ ولا مجلسٍ أعلى، أوقف زعيمها السياسي "أوليفر كرومويل" أي محاولاتٍ تالية للتطرف وقام في العشرين من إبريل عام 1653 بحلِّ "البرلمان الأبتر" لكي يتمكن من ردع حركة "ليفلر" التي أرادت أن تمكن كل أصحاب الأملاك من المشاركة السياسية على نحوٍ مماثل. لو تحقق ذلك الأمر لكان وضعًا مبالغًا فيه. وماذا عن الثورة؟ كانت إنجلترا حينئذٍ ديكتاتوريةً عسكرية[1]. بعد وفاة

1- Hans Fenske, Der moderne Verfassungsstaat. Eine vergleichende Geschichte von der Entstehung bis zum 20.Jahrhundert; Schöningh, Paderborn 2001, S.65.

"كروميل" عام 1658، قامت انقلاباتٌ وصراعاتٌ على السلطة إلى أن تشكل مجددًا عام 1660 برلمانٌ ملكي وقرر استدعاء "كارل الثاني" من المنفى وتنصيبه ملكًا. على الرغم من ذلك، ساد وضعٌ مختلفٌ تمامًا عن وضع ما قبل الثورة؛ فالملك لم يعد بفضل سلطته الشخصية وإنما عاد بقرار برلماني[1].

وتلك هي المعادلة التي كانت الثورة تطمح إليها على مدار العقود؛ التوصل إلى تسوية - إذا أردنا أن نطلق عليها هذا الوصف - بين الطبقة الوسطى والنبلاء من الملاك والطبقة الأرستقراطية على أن يتمتع المواطنون بالقسم الأكبر من السلطة. كانت الأحداث التي شهدها شهر "ترميدور" في عهد "كروميل" هي التي مهدت الطريق لتلك التسوية في نهاية المطاف.

مثالٌ آخر على ذلك ما حدث في عام 1921 حينما أعاد "لينين" الاقتصاد الخاضع لإدارةٍ وسطية في ظل أوضاع الحرب إلى اللامركزية مجددًا، بل والتحرر الجزئي كذلك. كما خفف من حدة السيطرة المفروضة على الرأي العام قليلًا "السياسة الاقتصادية الجديدة" NÖP. في العام ذاته، ذبح "ليو تروتسكي" Leo trotski المشاركين في ثورة البحارة بمدينة "كرونشتادت" بأمرٍ من "لينين". وقيل إن "لينين" علق على ذلك قائلًا: "إننا نشهد الآن الترميدور. ولكننا لن نسمح بفقدان رؤوسنا تحت المقاصل. سنصنع الترميدور بأنفسنا"[2].

1- Das hebt Fenske hervor, ebd., S. 67.

2- Victor Serge, a. a. O., S.608.

يرى "كرين برينتون" أن ما يميز "الترميدور" هو ظهور حديثي الثراء الانتهازيين. هذا ما حدث في فرنسا حينما لفتت الأنظار فئة "الرائعون والرائعات" Incroyables et Merveilleuses الذين كانوا يرتدون ملابس مترفةً بشكلٍ مبالغٍ فيه. وهذا ما حدث في روسيا أيضًا مع تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة حينما احتفل رجال الأعمال "المبتذلون، الفظون، الصاخبون" بترقيهم الطبقي وعُرفوا باسم "رجال السياسة الاقتصادية الجديدة" NÖPmen[1].

الحل الثالث: أن تستغل الثورة المضادة فرصها وتقفز إلى مرحلة الهجوم كما حدث ضد الرئيس "محمد مرسي" في يوليو عام 2013. خسر "مرسي" تعاطف الحشود بسبب سياسته الاستبدادية التعسفية ولم يعد مسيطرًا على الفوضى المحيطة به. وكانت نهاية الربيع العربي.

عادةً ما تستأنف أعمال القمع ضد كل فئات المعارضة في حال انتهاء الثورة سواء كانت نهايتها على يد الثوار أنفسهم، أو شقٍ منهم، أو على يد الثورة المضادة. إلا أن القمع الذي أحكم في البداية قبضته على كل المواطنين حتى غير المشاركين بالثورة يبدأ تدريجيًا في إرخاء قبضته. حيث يرحل المتطرفون (يموتون، يسجنون، يفرون إلى الخارج) وتستمر الحياة. ويعود الأثرياء سواء القدامى أو الجُدد إلى الاستفادة من الأوضاع مرةً أخرى، أما الفقراء فغالبًا ما يجدون أنفسهم أمام تسويةٍ مريرة، لأن الشعب هو أكثر مَن يدفع ثمن

1- Crane Brinton, a.a.O., S.221.

الثورات. إلا أنه لا يعود للثورة في الوقت الحالي. كتب "كرين برينتون": "تغيب الفئات الأكثر عرضة للمعاناة في أثناء الترميدور عن المشاركة في الثورات الجادة، ويعد هذا تحديًا حقيقيًا بالنسبة لمن يعتقدون أن معاناة وحرمان الحشود سببٌ رئيسيٌ لقيام الثورات"[1].

لا يمثل "الترميدور" سوى فاصل قصير ما دامت مسببات الثورة ما زالت قائمة. فبعد الثورة الفرنسية وفترة حكم "نابليون" التالية لها، وصل الملك البوربوني "كارل العاشر" إلى السلطة مجددًا. وحدث ما وجب حدوثه. في يوليو عام 1830، أطاح عمال وطلاب باريس بحكم "كارل العاشر" الرجعي للغاية. تلا ذلك نظامٌ مدنيٌ وحتى هذا النظام كان ملكيًا. تحتم على الثورة أن تكشر عن أنيابها مجددًا لمراتٍ عديدة.

استثناء آخر: الثورة الألمانية عام 1989

كانت نهاية جمهورية ألمانيا الشرقية - التي أسفرت عن انضمام ألمانيا الشرقية إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية - حالةً استثنائية. أظهر بناؤها الدرامي عوامل نمطيةً مشتركةً بينها وبين الثورات الأخرى، إلا أنها تمتعت بخصائص مميزة.

أما عن السياق الدولي الذي جرت فيه الأحداث، فقد تمثل في حل نظام الحكم الاشتراكي في العديد من البلدان. انتشر هذا الأمر على نطاقٍ واسعٍ خلال

1- المرجع السابق، ص. 213

الثمانية شهور الأولى من عام 1989 في المجر وبولندا حيث وافق الحكام على تقسيم السلطة مع المعارضة. تحقق ذلك لأن الاتحاد السوفيتي - الذي كان في حالة ثورة - لم يعد يحكم قبضته على تلك البلاد.

أما عن قيادة حزب الوحدة الاشتراكي الألماني SED، فقد قيمتْ المناخ السائد وسط الشعب تقييمًا خاطئًا تمامًا، ورأت أنه من المنطقي تحصين الدولة ضد أي تغيير. ويعد هذا التصرف من كلاسيكيات تاريخ الثورات. دفع عناد المكتب السياسي للحزب بالمواطنين إلى الشوارع. وتضخمت مظاهرات يوم الإثنين في مدينة "لايبزيج". في الثاني من أكتوبر، تجرأ عشرون ألفًا على الخروج للمشاركة حاملين شعارات مثل **"سنظل هنا"** و**"جوربي، جوربي"** و**"لا للعنف"**. كانوا يغنون نشيد الأممية: **"... اقتنصوا حقوق الانسان"**. في الأسبوع التالي، وصل عددهم إلى سبعين ألفًا ودوى الشعار الذي ينم عن ثقةٍ بالنفس: **"نحن الشعب"**. لم تتدخل الشرطة. فرضت العناصر التي رغبت في تجنب "الحل الصيني" إرادتها داخل إدارة حزب الوحدة الاشتراكي الألماني بـ"لايبزيج". حيث أرادوا أن يتجنبوا وقوع مجزرةٍ بين صفوف المتظاهرين كما حدث في بكين في العام نفسه.

ظهر تصرف ذوي السلطة لحماية مصالحهم الشخصية جليًا خلال أحداث رومانيا في شهر ديسمبر. حيث صمد الديكتاتور الروماني حتى النهاية ولم يتزحزح ملليمترًا واحدًا. اقتحمت الحشود مقر الحزب والحكومة وانشق الجيش ليقف في صفهم، وحدثت اشتباكات بالشوارع بين الجنود

وجهاز الأمن إلى أن قام الضباط في النهاية بإلقاء القبض على "الزعيم" وزوجته. أصدرت محاكمةٌ عسكريةٌ حكم الإعدام على الزوجين وتم على الفور قتلهما رميًا بالرصاص. حتى "تشاوشيسكو" Ceauşescu قد غنى في النهاية "نشيد الأممية".

تجنبت جمهورية ألمانيا الشرقية تصعيد العنف. لم يكن هذا أمرًا بديهيًا؛ لأن يوم التاسع من أكتوبر عام 1989 أسفر عن التساؤل التالي: هل ستنتقم سلطة الدولة؟ حيث كانت قد انسحبت في "لايبزيج" مما أدى إلى المواجهة العلنية بين فئتين: الفئة المتطرفة التي تجمعت حول "إريش هونيكر" Erich Honecker والفئة الأكثر مرونةً التي تجمعت حول "إيجون كرنتس" Egon Krenz وأرادت تجنب العنف المسلح[1]. في الأسبوع التالي في السادس عشر من أكتوبر، اجتاح مائةٌ وعشرون ألف مواطنٍ مدينة "لايبزيج"، وآلافٌ آخرون مدنًا كبيرةً أخرى. في تلك الأثناء نظم أنصار "كرينتس" انقلابًا، وبعد يومين، أقيل "هونيكر" وحل "كرينتس" محله. ما أثار دهشتي هو أنني كنت أعرفه عن طريق منظمة الشبيبة العمالية الألمانية الاشتراكية SADJ. حينئذ لفت نظرنا أن "كرينتس"، رئيس منظمة الشباب الألماني الحر FDJ آنذاك، كان خطيبًا مفوهًا ومروجًا لجمهورية ألمانيا الشرقية. (وقد أعجبنا بذلك بالطبع، ولكنني كنت أراه متفاخرًا بعض الشيء ومرحًا لدرجةٍ مزعجة) على أية حال، تعتبر التغييرات التي تطرأ على المناصب القيادية في اللحظات الأخيرة مشهدًا

1- Winkler, a. a. O., S.503.

اعتياديًا من سيناريو الثورة. ومن المعتاد أيضًا ألا يؤثر ذلك على جموع الشعب. فقد اشتدت قوة المظاهرات في جمهورية ألمانيا الشرقية، حتى أن البعض من نخبة حزب الوحدة الاشتراكي الألماني قد انحاز لصفهم.

عُقدت اللجنة المركزية للحزب في بداية نوفمبر، وقدمت القيادة الجديدة مسك الدفاتر علنًا لأول مرة. عاشت جمهورية ألمانيا الشرقية منذ السبعينيات حياةً تفوق إمكاناتها، حيث راكمت سلطة الدولة ديونًا ضخمةً كي تهدئ الشعب بارتفاعٍ طفيفٍ في مستوى المعيشة. وازدادت الحركة الجماهيرية أكثر فأكثر. أتذكر ردة فعلي على هذا الأمر. كانت عبارةً عن مزيج عجيب من السعادة والخزي. حيث تعاطفت مع الحركة ولكنني كنت مدركًا أنها تود الإطاحة بنظامٍ كنت قد دافعت عنه قبل فترةٍ قصيرة. وقلت لنفسي: "من الأفضل أن تغلق فمك الآن ولا تتحدث عن السياسة لمدة عامٍ على الأقل، وتحاول أن تفهم هذا الانقلاب الكبير".

ولكن هذا الأمر كان شاقًّا عليَّ لأنه كان يطرح تساؤلاتٍ عن إعادة توحيد ألمانيا. في نهاية عام 1989، رفضت معظم صفوف المعارضة بجمهورية ألمانيا الشرقية إعادة التوحيد، وكذلك حزب الخضر في الغرب أيضًا، وقد أعجبني ذلك. ألم تكن "إعادة التوحيد" فيما مضى شعارًا لهؤلاء الذين اعتبرتهم انتقاميين ينتمون للتيار السياسي اليميني (وقد كانوا كذلك بالفعل في أغلب الأحيان)؟ هكذا تعلمت الدرس، وكان من الصعب أن أتعلمه مجددًا.

لم يمكث "كرينتس" في السلطة سوى سبعة أسابيع تقريبًا. ثم نشأ نوعٌ من أنواع الحكم المزدوج المكون من القيادة الجديدة لحزب الوحدة الألماني الاشتراكي ونشطاء الحقوق المدنية. تم الاتفاق على عقد انتخاباتٍ ديمقراطية، وقد شمل هذا اتفاقًا ضمنيًا على أن تظل جمهورية ألمانيا الشرقية دولةً ديمقراطيةً اشتراكية مستقلة. إلا أن هذا لم يتحقق كما هو معروف. حتى أننا نعرف هذا الأمر من الثورات الأخرى. نادرًا ما تتطابق النتائج مع أهداف الثوار.

كانت النتائج هذه المرة الديمقراطية، دولة القانون التي تحققت من خلال الانضمام إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية، بالإضافة إلى السيطرة على نظامها الاجتماعي الذي كان في حقيقة الأمر سمةً من سمات تلك الثورة. وكانت السمة الثانية هي سلميتها. كانت "ثورة حديثة كبحت جماحها بنفسها رافعة شعار **"لا للعنف"** وأخيرًا وليس آخرًا حققت هدفها بسبب ذلك"[1]. كانت ضربة حظ.

1- المرجع السابق، ص.513.

10

الثورة المضادة

ليس هناك فعلٌ دون رد فعل، وبالمثل ليست هناك ثورةٌ دون ثورةٍ مضادةٍ لها. ولكن ما الذي يعنيه ذلك المصطلح، "الثورة المضادة"؟

ليس المقصود هنا الفكر المعادي للثورة فقط بل ولا السياسة المتحفظة أو الرجعية، وإنما المقصود هنا هو تصرفٌ محددٌ للغاية في فترةٍ زمنيةٍ بعينها، لا سيما الهجوم على الثورة بغرض إبطالها.

وينبغي أن تستمر الثورة في الوجود على أرض الواقع بوصفها ثورةً من هذا النوع في تلك اللحظة، فهي لم تنهِ عملها بعد. فالثورة المضادة ليست مجرد رد فعلٍ من حيث المضمون على ثورةٍ ما، وإنما هي أيضًا رد فعلٍ على إستراتيجيات الثورة وأساليبها، فهي تسعى لزعزعة أسس قوة الثورة وغرس مخالب الفتنة بين أطرافها المتحالفة. كما تحاول استغلال التدهور الاقتصادي الذي لا مفر منه في البداية في تلك الفترة وحشد وتجنيد الحانقين ومَن خاب أملهم في الثورة وهي فئاتٌ لا مفر من وجودها في البداية أيضًا، ومن ثم تترصد ثمة خطأ قد يقع فيه الثوار سواءٌ أكان ذلك بسبب التردد أم بعدم الحرص وتستغله لصالحها.

كما نرى، الثورة المضادة هي انعكاسٌ للثورة، وهو الأمر الذي ينطبق على ما فيها من حدَّة مواجهاتٍ وانعدام للضميرٍ وخداع. إذ تشكل الثورة مع الثورة المضادة سياقًا تصعيديًا.

يتمثل صُلب الثورة المضادة في غالب الأمر - إن لم يكن دومًا - في الحاشية والمنتفعين منها الذين فقدوا مكانتهم المميزة. فالجيش الأول الذي انتفض مناهضًا للثورة الفرنسية على سبيل المثال كان يسمى بجيش الأمراء. وكان يضم كذلك نبلاء ورجال دين رفيعي المستوى فضلًا عن مواطنين أثرياء من الذين كانوا على صلةٍ بالنظام القديم.

كما كان غزو خليج الخنازير بكوبا مثالًا من نماذج الثورة المضادة في عصرنا الحديث؛ حيث خطط أقارب الديكتاتور "فولجينسيو باتيستا" Fulgencio Batista - الذي تم نفيه في الأول من يناير 1959 خارج كوبا بعد الثورة - وكبار الأعيان السابقين في عهده بالتعاون مع جهاز المخابرات الأمريكية CIA وقوات البحرية الأمريكية (المارينز) لشن هجومٍ على كوبا في 1961، والذي كان من المفترض أن يكون بمثابة إشارة البدء لثورةٍ مضادة. إلا أن ذلك الغزو فشل بفضل الجيش الكوبي وبفضل الشعب الذي عقد في ذلك الوقت آمالًا على "فيدل كاسترو" Fidel Castro ورجاله.

والويل إذا ما انتصرت ثورةٌ مضادة. عندئذٍ تدق ساعة الانتقام. وخاصةً إذا كان الثوار أنفسهم قد بادروا باستخدام العنف. كان ذلك ما حدث عندما حل «الإرهاب الأبيض» في أغسطس من عام 1919 محل «الإرهاب الأحمر»

الذي مارسته الجمهورية المجرية بقيادة "بيلا كون" Béla Kun لفترةٍ لم تدم طويلًا وفاقه بكثير. حيث سقط وفقًا لتقديرات إحصائية مختلفة ما بين 2000 لـ6000 ضحيةٍ إثر المذابح المعادية للسامية وعمليات الإعدام الجماعي التي قام بها الإرهاب الأبيض في المجر في تلك الفترة[1].

على الرغم من أنه هناك ثوراتٌ تتسم في الغالب بالسلمية، فإن ذلك لا ينطبق على الثورات المضادة، فهي تريد اجتثاث الفيروس الثوري من جذوره، هكذا يفعل النظام الحاكم. ومع ذلك، يمكن تقييم سياسة "سلفادور أليندي" Salvador Allende، الرئيس الاشتراكي المنتخب في تشيلي، بعد الانقلاب الفاشي عليه الذي قاده الجنرال "أوجستينو بينوشيه" Pinochet Augusto في سبتمبر 1973، بأنها مجزرةٌ حقيقيةٌ ارتُكبت بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية.

عندما شاع خبر الانقلاب، كنت حينها أشارك في مناورةٍ عسكريةٍ يقوم بها الجيش الألماني. ما زلت أحتفظ بخطاب التضامن الذي وقع عليه زملائي حينها والذي كنت قد كتبته على ورقةٍ مبللة، وقد وقَّع عليه أيضًا ضباط الصف وخريجو الكلية الحربية. وتشكلت في التو جبهة تضامنٍ في شتى مدن ألمانيا. لم يكن لكلمات المديح التي قالها "فرانس جوزيف شتراوس" Franz Josef Strauß رئيس الحزب الاجتماعي المسيحي حينها، في حق الديكتاتور

1- Cartledge,- a a O., S314.

أيَّ وقعٍ في نفسي سوى أنها أكدت قناعتي بأن العالم منقسمٌ بشكلٍ قاطعٍ إلى خير وشر. لقد رسخت الثورة المضادة صورة العالم المانوية عن الثوار.

كتب "كارل ماركس" عن فرنسا في الفترة بين عام 1848 و1852، والتي أخذت بدايتها طابعًا ثوريًا وانتهت بنهاية الإمبراطورية الثانية، ما يلي: "لم تنجح مسيرة التقدم الثورية في تحقيق مكتسباتها التراجيدية الهزلية، وإنما تمكنت على العكس من خلق ثورةٍ مضادةٍ قوية ومحكمة وعدوٍ لها استطاع من خلال كفاحه تحويل النظام الحاكم الذي أطاحت به الثورة إلى طرفٍ ثوري حقيقي"[1]. ويبدو أن الثورة تحتاج إلى حدٍّ ما إلى ثورةٍ مضادةٍ حتى تتعلم منها. فهي تثبت أقدامها مع وجود الثورة المضادة التي تعلمها كل ما يتوجب اتباعه حتى تتشبث بالسلطة.

في ظل احتمالية كافة العواقب الممكنة، يمكن أن تتناحر الثورة والثورة المضادة وتدفعان ببعضهما بعضًا إلى هاوية أخلاقية. فالمذابح والأعمال الوحشية التي طغت على صراع الثورة والثورة المضادة في القرن العشرين فاقت وحدها تلك المجازر التي حدثت في العصور القديمة بأكملها. إلا أن احتساب الأرقام المخيفة على كلا الجانبين هو أمرٌ لا طائل منه. فالأعداد في تصاعدٍ متبادلٍ من كلا الطرفين، كما أنه من غير المناسب أيضًا الاستفسار عمَّن بادر باستخدام

1- Karl Marx, Die Klassen-kämp-fe- in Frankreich- 1848–1852; in: MEW, Bd. 7, S. 11.

العنف أولًا. فالصراعات التصعيدية تتسبب في أن تصح التجاوزات الأصلية لقاعدةٍ لا قيمة لها بالقياس بمجمل الخسائر المترتبة عليها.

إلا أنه هناك قاعدةٌ ثابتةٌ في النهاية؛ تقوم الثورات في الغالب لأن هناك وضعًا لم يعد من الممكن تحمله، ولأنه لم يكن هناك أية وسيلةٍ أفضل لتدارك الوضع. وبهذا فمَن تسبب في اندلاع الثورة هو على الأقل المسؤول عن إحداث العنف، خاصةً إذا ما تفاقمت حالة العنف بعد قيام الثورة. وبناء على ذلك، فإن "لويس السادس عشر" أو"نيقولا الثاني" أو الشاه "رضا بهلوي" أو"القذافي" أو "مبارك" قد تسببوا جميعًا في جلب الخراب على شعوبهم.

إبادة جماعية ثورية؟

يصبح الأمر مربكًا إلى حدٍّ ما عندما تتبادل الثورة والثورة المضادة العلامات والإرهاصات. عندما تتحول إساءات الثورة وفروضها في عين الشعب إلى أمرٍ لا يمكن احتماله ولا يُرى حينها أي مخرج آخر من هذا الوضع سوى الثورة المضادة.

تمثل حرب "فونديه" Vendée، ذلك الإقليم الذي يقع في غرب فرنسا، واحدةً من هذه الحالات. ولا يزال المؤرخون الفرنسيون حتى عهدنا الحالي مختلفين حول تفسير هذه الحرب وحول الانقسام القديم إلى أنصار الشرعية (الأبيض) والثوريين (الأزرق). وبالرغم من ذلك فهناك توافقٌ كبيرٌ إلى حد ما

على أن شعب إقليم "فونديه" الفقير كان قد عقد آمالًا عريضةً في البداية على ثورة 1789. ومع استمرار بؤسهم وفقرهم، كانت خيبة الأمل أكبر من الأمل المعقود على الثورة.

فالأمر الذي كان أكثر أهميةً لدى الثوار من القضاء على الفقر هو زعزعة ولاء القساوسة في باريس لروما، مما أسفر عن تزايد أعداد الخونة كما أطلقوا عليهم، والمقصود بهم خُدام الكنيسة الذين رفضوا أن يقسموا على الولاء للجمهورية. وقد كان أهل إقليم "فونديه" متدينين ويبجلون قساوستهم. وبذلك تلاقت كافة العناصر معًا: العوز، وخيبة الأمل وإجراءٌ غير مفهوم يُتخذ ضد المتدينين. وسرعان ما تحولت الاحتجاجات السلمية إلى ثورة فلاحين، تضمنت أعمال نهبٍ وسلب، أُطلق عليها في التاريخ الفرنسي قديمًا ثورة "الجاكيه"، إلا أن فرنسا ظلت على موقفها العنيد ولم تقدم شيئًا من أجل احتواء تلك الحالة من الغضب والاستياء.

ثم حدث ما أشعل فتيل الحرب، حيث قرر الثوار طلب 300,000 مجند في عام 1793، بينما كان الوضع في القرى يستلزم كل يد. فبدأ وقت العصيان المفتوح؛ ضد البرجوازيين الأثرياء في المدن، ضد الجيش وضد باريس التي كانت تسعى لفرض سياساتها على الأقاليم. اتسم التمرد بطابع الحشود، فقد لقي تأييدًا شعبيًا وبدت عليه دلالات الانتفاضة الشعبية المنادية بالتحرر، حتى وإن كان قادها النبلاء ومن ثم فازوا بمحبة المواطنين.

تطور الأمر في مرحلةٍ تاليةٍ ليتحول إلى حربٍ أهليةٍ وإبادةٍ جماعية ممنهجة وصفها المؤرخون من ذوي المصداقية أمثال "هانس فينسكه" Hans Fenske بأنها جريمة قتل شعب[1]. وقد كانت الوثائق التي استندوا إليها في حكمهم واضحةً لا جدال فيها. لقد سعت باريس إلى اجتثاث شعب إقليم "فونديه" الثائر من على وجه الأرض. كما عامل الثوار ضحاياهم كما الحيوانات، فذبحوا الرجال والنساء والأطفال، الذين تخطت أعدادهم مئات الآلاف، واختاطوا لأنفسهم سراويل من جلود ضحاياهم وسبحوا فوق جثثهم، كما ذكر فيما بعد[2].

1- هانس فينسكه Fenske، المرجع المذكور سابقًا، ص. 175؛ تحدث فيه عما يقرب من 120000 ضحية للإرهاب الثوري سقطت في إقليم "فونديه".

2- بشأن موضوع إبادة الشعوب والقمع راجع:

Reynald Secher,Vendée.. Du génocide au mémoricide; cerf, Paris- 2012

11

الثورة العالمية

"انظر هنا!" هكذا صاح الرجل القصير وهو يرفع هاتفه الجوال أمام أنفي كي يرينـي قائمة أسماء ظاهرة على شاشته، ثم قال: "جميعهم أصدقاء لي من شتى الدول المحيطـة: الجزائر، المغرب، ليبيا، وأيضًا من مصر وسوريا. سيبدؤون هم أيضًا بثورة غدًا"، ها نحـن في تونس مرةً أخرى في اليوم الذي اشتعلت فيه الثورة هنـاك، في الرابـع عشر مـن ينـاير 2011. كان ذلك الرجل يدعى "رضا بن عيسى" وكان من المفـترض أن يصبـح صـديقًا لنـا قريبًا، إلا أنه فارق الحياة في عام 2015. كان "رضا" صيدليًا وبطـل كونـغ فـو، كـما كـان مؤسس مشروعاتٍ منفتحًا وحالمًا، أما السياسة فلم يكن منشغلًا بها، إلا أنه لم يظل على هذا الحال بكل تأكيدٍ عندما وصل الوضع في تونس لنقطةٍ معينة. كانت الثورة التونسية هي الشعلة التي ينبغي أن تتأجج لتنتشر متجاوزة المغرب العربي فتشمل العـالم العـربي بأسره.

يمثل اجتياز الثورة لحدود البلاد احتياجًا مُتأصلًا لدى الكثير ممن يشاركوا في قيامها، وربما يكون لذلك بكل تأكيدٍ أيضًـا علاقـةٌ برغبـة الثـوار أنفسـهم في أن يعلـو شـأنهم كـرد فعـلٍ دفـاعي يسـتخدمونه في مقابـل التهمـيش

الذي كان يتعامل به معهم مَن هم في دائرة السلطة. فالثوار الذين يلهثـون وراء صـورة المدينة الفاضلة يرغبون في أن يكونوا رموزًا عالمية. وقد تناول كتاب "اليوتوبيـا والثـورة" لـ"ميلفين لاسكي" Melvin Lasky هذه الفئة من الثوريين على وجه الخصوص في قولـه: "نادرًا ما يتحلى الثوار بالقناعة عندما يتعلق الأمر بطموحهم الجغرافي، فأن تكون الجنة في روضةٍ واحدةٍ أو دولةٍ واحدة لهو تصورٌ يفتقر إلى بُعد النظر، أو أنه حتـى قـد يصـل إلى درجة الخيانة لذلك التكليف الـدولي". وقـد بـرهن "لاسـكي" عـلى صـحة رأيـه هـذا مستندًا إلى موقف الثوار الإنجليز الموثق بدقة في القرن السابع عشر[1].

فكل مَن كان على مقربةٍ من تلـك الحركـات التـي تصـنف نفسـها عـلى أنهـا ثوريـةٌ سيكون على دراية بنغمة التعاطف الإنساني التي يتشدق بها قادة هذه الحركات، فذلك هو ما يمنحهم القوة حتى وإن كـانوا أقليـة، لأنـه دائمًـا مـا يكـون هنـاك تضـامنٌ دولي. ويساورني حقًا الشـك أن الأشـخاص، وخاصـةً أولئـك الـذين لـديهم مشـاكل مـع البقـاء وحدهم، هم مَن تجتذبهم هذه الوعود بأن يكونوا جزءًا من جماعةٍ تشملهم. وعلى كل حال، فمن يحب البشر متجاوزًا حدود الأمـم أو لـون الـبشرة ويميـز أنـه يقـف بجانـب الخير، فهو بكل تأكيدٍ يحب ذاته أيضًا. إن الدافع هنا حقًا وبلا أي نقاشٍ هـو النرجسـية رغم كل ذلك.

1- Melvin J. Lasky, Utopie und Revolution; Rowohlt, Reinbek b. Ham- burg 1989, S 324

من الملاحظ أن "لاسكي"، وهو يساري مناهض للشيوعية، قد سمح لجهاز المخابرات الأمريكية بالمشاركة بشكل سري وغير معلن في تمويل بعض المجلات التي يصدرها، إلا أن ذلك لم يؤثر بأية حال على جودة كتابه.

باريس ولندن وروما وبرلين

حثت أحداث مايو 1968 في فرنسا، التي لم تكن في واقع الأمر ثـورةً - إلا أنهـا كانـت تصنف نفسها حينها كذلك - جريدة "القزم الأسـود الثوريـة" The Black Dwarf التـي تصدر في بريطانيا على وضع مانشيت أسطوري لها، مفاده كالتالي: "سنحارب وسننتصر.. باريس، لندن، روما، برلين". وقد جاءت صياغة ذلك الشعار باستخدام ضمير نحن وكأنـه لسان حالٍ جماعي في العالم.

تُعد كل ثورةٍ سواءٌ في عالم الخيال أم كذلك في الواقع حـدثًا عـابرًا للحـدود القوميـة. فالثورة الأمريكية كان لهـا صـداها المـدوي في فرنسـا، كـما كـان للثـورة الفرنسـية أيضًـا الصدى ذاته ليس في أوروبـا وحـدها وإنمـا كـذلك في المكسـيك وبـيرو والأرجنتـين. كـما شجعت ثورة يوليو 1830 في فرنسا الشعب البلجيكي على الانتفاض ضد الهولنديين وتـلا ذلك انتفاضة البولنديين ضد الروس. لقد اشتعلت جذوة الثورة عـام 1848 لأول مـرة في فرنسا مع قيام ثورة فبراير هناك (كانت الأحـداث دومًـا تتخـذ بـداياتها في فرنسـا)، ثـم انتشرت شرارتها في النمسا وألمانيا وإيطاليا والمجر حتى وصلت إلى البرازيل.

وقد اعتبر البلاشفة ثورة أكتوبر التي قاموا بها في روسيا منـذ بدايـة الأمـر مجرد إشارة بدءٍ تمهد بشكلٍ مباشرٍ لقيام ثورةٍ عالمية. فقد كان مـن الواضـح لهم أن روسيا لم تكن ناضجةً بالشكل الكافي للاشتراكية التي كان يجـب عـلى

البروليتاريين الكفاح من أجلها والدفاع عنها وفقًا لتفاسير "ماركس". إلا أن الأزمة ظهـرت في عام 1917، حين سقط حكم القيصر ولم يكن هناك مَن لديه القدرة كي يحل بديلًا له، فالبرجوازيون والاشتراكيون الأحرار كانوا لا يزالون ضـعافًا للغايـة عـلى تـولي مثـل هـذه المهمة، فلم يكن لهم أية قاعدةٍ شعبية أو حتى عدد كافٍ من المؤيـديين. رأى البلاشـفة أنه يجب اقتناص السلطة انطلاقًا من القناعة بأن الثـورة سـتنتشر بسرعـة في ظـل أزمـة حربٍ لتصل إلى ألمانيا على وجه الخصوص. حينئذٍ، وهذا وفق حسـاباتهم للسـلطة، ربمـا يكون تشكيل تكتلٍ ثوري قوي عالمي هو السبيل لمواجهة أية ثورةٍ مضادة عالمية. ولهـذا السبب شكلوا تكتل الاشـتراكية الدوليـة الـذي اعتـبر نفسـه حزبًـا عالميًـا، وكانـت لغتـه الرسمية هي الألمانية.

لقد أثارت ثورة أكتوبر في الواقع الكثير من المقلدين لها، فقـد تشـكلت العديـد مـن المنظمات الثورية وفي الغالب أيضًا مجالس عماليةٌ في دول مثـل ألمانيـا والمجـر وإسـبانيا والصـين والأرجنتـين، بـل وحتـى في كوبـا. إلا أنـه في عـام 1920 أصـبح مـن الجـلي للمستبصرين أن الثورة العالمية لن تكمـل مـا بدأتـه، خاصـةً الثـورة الألمانيـة التـي تنبـأ "لينين" بها وكان على يقين من قيامها. ولم يرَ البلاشـفة تقـدمًا سـوى في الصـين، دون أي مكانٍ آخر.

لم يتغير الموقف سوى بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، فلـم يرغـب أحـدٌ في أن يسمي تحول الدول التي احتلهـا الجـيش الأحمـر إلى دول اشـتراكية بأنـه ثـورة، حتى وإن تمكـن الشـيوعيون في البدايـة مـن التعويـل عـلى الشـعوب في بعـض

الدول مثلما حدث في يوغوسلافيا. على أية حالٍ فإن الكتلة الاشتراكية التي تكونت بهذه الكيفية ما هي في نهاية الأمر سوى أحد التوابع المتأخرة لثورة أكتوبر. وعلاوة على ذلك فقد انتشرت في تلك الفترة حكومات الاستقلال الداعية إلى إنهاء الاستعمار، كان بعضها مدعومًا من الحشود والبعض منها افتقد ذلك التأييد وخاصةً الحكومات التي كانت لها تبعيةٌ بصورة ما بالتوجه الاشتراكي، وقبلت برضا يد العون التي قدمتها لها موسكو، مثل كوبا والجزائر وإثيوبيا ومالي وغينيا في عهد "أحمد سيكو توري"، مما منح ولفترةٍ طويلة "نظرية العوالم الثلاثة" التي كانت مرجعًا للكثيرين قبولًا واسعًا، وكان يُقصد بالعالم الأول العالم الرأسمالي، أما الثالث فهو العالم المستَعمر، وكانت الاشتراكية هي العالم الثاني وقد كانت توصف في ذاك الوقت بأنها "نظام عالمي".

يرجع الانتشار الدولي للثورات في الغالب وبغض النظر عن أوهام ودوافع وأفكار الثوار أنفسهم إلى أسبابٍ موضوعية عدة.

أولًا، أن الثورات يمكن أن تكون الإجابة عن الأزمات التي يغلب عليها الطابع العالمي مثل الحروب والأزمات الاقتصادية. ثانيًا، ينشر أعداء الثورة أفكارها دون أن يرغبوا في ذلك من خلال اضطهادهم للثوار وإجبارهم على النزوح خارج البلاد - ومثال على ذلك "باكونين"، "ماركس"، "إنجيلس"، "لينين" وغيرهم الكثير. ثالثًا، تساهم وسائل الإعلام كالصحافة المطبوعة يليها الإذاعة ومن ثم التليفزيون والآن في عصرنا الحالي الإنترنت في نشر الحالة

والأفكار الثورية. رابعًا، تمثل دول الجوار مسرح الأحداث الحقيقي والمكان الخفي للثوار، سواء كان هذا من باب التعاطف مع الثوار أم من أجل استغلال الأمر بشكل إستراتيجي خاص. كما تمد دول أخرى أيضًا يد الدعم والمساعدة للثوار سواءٌ أكان ذلك الدعم ماديًا أم عسكريًا. وقد أدار حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان يعمل سرًا في جنوب أفريقيا على سبيل المثال مكاتب ومعسكرات للتدريب في دولٍ كالمغرب وزامبيا وفي العاصمة التنزانية دار السلام وفيما بعد في مدينة "مورجورو"، التي تقع هي أيضًا في دولة تنزانيا حيث يوجد مقر حزب المؤتمر الأساسي. أما المدربون العسكريون فقد كانوا ينتمون لدول مثل الصين وكوبا وبلغاريا والاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت وألمانيا الشرقية. خامسًا وليس أخيرًا، إن الصبغة الدولية التي تصطبغ بها الثورات ما هي إلا نتاج الطابع الدولي للثورات المضادة.

واجهت الثورة الفرنسية جبهةً ثوريةً مضادة تحاربها، تلك التي كانت تدعمها دول أخرى مثل النمسا وإنجلترا وروسيا حتى عام 1801. وبعد هزيمة الإمبراطورية الأولى تحت حكم "نابليون"، تكاتفت القوى المضادة للثورة في أوروبا ومنها روسيا والنمسا وبروسيا مكونين مرةً أخرى ما يُعرف باسم "التحالف المقدس" من أجل تقويض أية محاولة لإشعال الثورة. وقد تدخل ذلك التحالف بالفعل عدة مرات بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشر في عدة دول في أوروبا مثل إيطاليا واليونان وإسبانيا. وقد فطن "كارل ماركس" و"فريدريش إنجلز"، اللذان توقعا قيام ثورة في فرنسا مرةً أخرى

على خلفية الموجة الثورية التي حدثت في عام 1848، إلى أن قيام ثورة في فرنسا قد يجلب معه حربًا تشنها فرنسا على دول ذلك التحالف المقدس[1].

وقد تم قمع ثورة "التايبينج" في الصين التي تم ذكرها آنفًا بمساعدة قوى الاستعمار في الغرب، ومرةً أخرى تكرر الأمر في عام 1900 عندما ظهر ما يُسمى بانتفاضة الملاكمين ومثل تهديدًا يسعى لإسقاط نظام الاستنزاف والقمع الاستعماري، فاتحدت حينها القوى الإمبريالية لتكون جبهةً دولية لمحاربتها[2]. وقد كان القائد الأعلى لهذا التحالف هو الدوق الألماني "ألفريد فون فالدرزي" Alfred von Waldersee، الذي لفتت مطالباته بتشديد حدة القمع على الحزب الديمقراطي الاجتماعي في ألمانيا في وقتٍ سابقٍ الأنظار إليه. وقد أرسى بخططه لشن حربٍ استباقيةٍ على روسيا من شأنها أن تحول دون تحالف روسيا مع فرنسا، التي ما فتئت تزداد قوة، أرسى الأساس الذي مهد لخطة "شليفن" Schlieffen المشبوهة (والتي كانت تنص على شن حربٍ على جبهتين في الوقت نفسه، من خلال شن هجومٍ على فرنسا ومن ثم إعلان الحرب ضد روسيا بعد نجاح الهجوم سالف الذكر). وقد استندت الحملة التأديبية التي انطلقت إلى الصين بقيادة "فالدرزي" إلى ما ورد في خطبة الهون التي ألقاها القيصر الألماني "فيلهلم الثاني" حينها من تعليمات: "لا تأخذكم رحمةٌ أو شفقةٌ بأحد! ولا تتخذوا منهم أسرى! مَن يقع في قبضتكم فهو هالك! ومثلما علا

1- Vgl.. Karl Marx.. Die Klassen-kämp-fe- in Frankreich- 1848–1850; in: MEW, Bd. 7.., S. 33; und Friedrich- Engels- (Notiz),- ebd.., S.468 196. Seitz, a a O., S 104.

2- Seitz في المرجع السابق، ص 104.

اسم الهون منذ آلاف السنين تحت إمرة مليكهم إيتزل Etzel ولا يزال يتم تناقل وتـواتر ذكره حتى الآن في الأساطير والحكايات المتوارثـة، فلتعلـو رايـة الألمـان في الصـين لآلاف السنوات القادمة بالطريقة نفسها. وتأكدوا أنه لن يجرؤ أيٌّ صيني على النظر لأي ألمـاني بعين الشك والريبة!"[1].

وعـلى غـرار التحـالف المقـدس في القـرن التاسـع عشر، أصـبحت الولايـات المتحـدة الأمريكية هي مركز الثورة المضادة في النصف الثاني من القرن العشريـن، ولـذا تـدخلت بشـكلٍ مبـاشرٍ أو غـير مبـاشر في دول مثـل كوبـا، لاوس، فيتنـام، بوليفيـا، جمهوريـة الدومينيكان، تشيلي، أنجولا، السلفادور، نيكاراجوا وجرينـادا حتـى تـدحر أي تطلعـاتٍ ثورية أو تسقط أية حكوماتٍ أو أنظمةٍ ثورية بها.

"وينيتو" مسيحي

إلا أنه جديرٌ بالذكر أن تدويل الثورات أيضًـا لـه جانبـه المظلـم. فقـد أودى خـروج أفكـار كالعالمية والاعتراف الدولي بحقوق الإنسان فضلًا عن مبدأ الديمقراطية من رحم الثورات التـي قامت في أوروبا بذلك الزخم الفكري ليكون هو الذريعة الأيديولوجية للاستعمار. وتُعد فرنسـا مرةً أخرى هي الحالة الأكثر قسوةً في هذا الصدد، فقـد انتقـل الليبراليـون والاشـتراكيون ومَـن

1- لقد أثار التأكد من صحة هذا الاقتباس الكثير من الخلافات لفترة طويلة، إلا أن الاختلافات حول صحته قد انتهت وتم حسمها.

شارك في ثورة فرنسا الرابعة عام 1871 إلى الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر من أجل إعلاء قيم الإنسانية والحضارة. وما شابهها من شعاراتٍ هناك... حقًا؟ لقد كانوا مستعمرين في نهاية الأمر، حتى وإن تعامل أفراد منهم، كما هو المعتاد، بشكلٍ ربما يكون ينطوي على احترام، فقد كانوا جزءًا من نظام سلب الشعب الجزائري كرامته.

حتى أننا يمكننا التمادي والقول بأن الثورات الأوروبية هي التي مهدت الطريق لاستعباد الشعوب الأخرى عن طريق الاستعمار. وعلى الرغم من وجود مستعمراتٍ بالفعل قبلها، فإن تلك لم تكن سوى قواعدَ عسكريةٍ يديرها الجيش ورجال الأعمال أو أنها كانت تعتبر على أقصى تقدير مجرد مستوطنات. حتى وإن كان سكان تلك البلاد يقعون فريسة الاستغلال في كلتا الحالتين، ويتم قمعهم في حال مقاومتهم، لم تكن تلك مقارنةً بين الاستعمار والإمبريالية، التي تكونت أو بالأحرى استفحلت في الدول كافةً في أواسط القرن التاسع عشر بشكلٍ كاملٍ لتستنفد موارد شعوبٍ بأكملها. وترجع نشأة الإمبريالية إلى ذلك الازدهار الشديد الذي شهدته الصناعة والتجارة في أوروبا تحديدًا بسبب النظام الاجتماعي البرجوازي الذي تمكن من مد جذوره وترسيخه في المجتمعات الأوروبية بسبب قيام الثورات فيها.

يوضح هذا الكتاب أيضًا أن الثورات بالنسبة لنا نحن الأوروبيين أكثر قربًا عن غيرنا في أي قارةٍ أخرى وذلك بسبب طبيعة قارة أوروبا. إلا أن ثورة هايتي في عام 1791 أو حتى تلك الثورة التي اندلعت في مصر عام 1919

كانتا تبعدان عنّا إلى حد ما. وهو ما لا ينطبق على أفكار الثورتين. حيث يكاد يكون الفكر السائد في كل مكان تقريبًا ثارت فيه الشعوب وانتفضت في القرون الثلاثة الماضية متأثرًا بشكل أو بآخر ومنبثقًا من حركة التنوير الأوروبية. لا يجب علينا أن نفرط في التباهي والخيلاء ونلعب دور شخصية "شاترهاند" العجوز الذي قال في رواية "وينتاو3" لـ"كارل ماي": "لقد أصبح مسيحيًا من داخله بسبب تعامله معي". لم يكن قيام متمردي "التايبينج" بإرساء لاهوت تحرير مسيحي خاص بهم بكل تأكيد ثمرة الاستعمار المسيحي الشامل. ولن يجعلنا لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية نسقط من ذاكرتنا ما فعله "بيثارو" Pizarro وغيره من السفاحين في أمريكا. لا تُطرح هنا الأفكار الغربية في مجملها موضع تساؤل، وإنما فقط تلك التي أصبحت - مع مرور الوقت - فكرةً مميزةً دافعةً للتحرر.

وبالمناسبة لكل قاعدةٍ شواذ. فقد عرفت حركة "الماو ماو" الكينية كما عرف "غاندي" في الهند أفكار التحرر دون أن يستخلصاها من تصنيفات الفكر الأوروبي. وكان اكتشاف تلك الحركات في أوروبا حدثًا بارزًا، إلا أن الفضل فيها لا يرجع إلى الأوروبيين. إذ يرجع حصر كتابة التاريخ في منظورٍ أوروبي خالصٍ إلى قصورٍ في تأريخ الثورات والفكر الثوري.

تناقضات السياسة الخارجية الثورية

كان التحكم في مسار الثورات في العالم أحد التوجهات الخاصة بنظام "لينين" الماركسي المهووس بالسلطوية. على الرغم من أن "ستالين" قد حلَّ منظمة الشيوعية الدولية في عام 1943، وذلك لأن وجود منظمةٍ تحرض على التمرد والثورة في أنحاء العالم لم يعد يُلائم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي، الذي أصبح يسعى للتنسيق مع الغرب. إلا أن الحزب الشيوعي السوفيتي لم يكف في الوقت ذاته عن مطالبته بإحكام قبضته على خيوط الحركة الشيوعية في العالم. حتى تشكلت في النهاية وسائل أخرى لتحقيق ذلك منها على سبيل المثال فقط الوسائل المادية. ورغم ذلك لم يخلُ الأمر دومًا من نزاع حادٍ لم يتخطَ في البداية كونه خلافًا لفظيًا، ليتحول في النهاية إلى جرائمَ قتلٍ وضربٍ متعمدٍ يفضي إلى الموت. وهو ما ظهر في البداية في بلجراد "الشيوعية التيتوية" ومن ثم في بكين. كانت المعركة في كل مرةٍ تدور حول السلطة، إلا أنها كانت تتخفى دائمًا تحت غطاء الصراعات الأيديولوجية.

اليوم يشكو البعض من إجبارهم على "الانضباط السياسي". ولا يسعني سوى القول بأن ما أراه من خلاف حول التوجه نحو انضباطٍ سياسي كان في الماضي خلافًا من نوعٍ آخر.

فقد اعتقدت بشكل قصير الأمد أنني وجدت عام 1968 التوجه الصائب في الكتاب الأحمر لـ"ماو" أو كما يطلق عليه كتاب "ماو المقدس". ولم أكن الوحيد الذي ارتأى ذلك، حيث ألهم هذا الكتيب المغلف ببلاستيك قابلٍ للغسل

في نهاية الأمر رفاقًا من كلا الجنسين من كل أنحاء العالم خاصةً في فرنسا وتنزانيا والهند وبيرو ونيبال وكمبوديا وألبانيا والفلبين وتركيا وغيرها من الدول. ولكن سرعان ما تمثل لي خط التوجه العالمي المنضبط في ما يتم كتابته في موسكو وبرلين الشرقية ولم أتمكن إطلاقًا من استيعاب كيف يرغب شخصٌ ما برؤية الأشياء بشكل مختلفٍ كليًا هكذا. لم يخرج الوضع كما عاصرته بعيدًا عن إطار التضامن الدولي، إلا أن زياراتي لمقر المنظمة العالمية ذات التوجه الشيوعي في بودابست (اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي) هي التي أيقظتني، حيث التقيت هناك بأفراد ساخرين من أعضاء المنظمة الفاعلين الذين كانوا يتهكمون على الصبغة القومية لهذا الشعب أو ذاك. كما تعرفت هناك إلى رفاق ينتمون لاتحاداتٍ شبابيةٍ سوريةٍ متنافسة، وكانوا يتمنون الموت لبعضهم بعضًا. بينما اعتبرت نفسي في المقابل شخصًا مؤمنًا بالدولية لا تشوبه شائبة، حتى عندما هاجمت أعضاءً من اتحاد الشباب لأنهم قد تناولوا كتابات "الشيوعيين الأوروبيين" الذين حادوا عن الخط الشيوعي للاتحاد السوفيتي أمثال "إنريكو برلينجوير" Enrico Berlinguer أو "سانتياجو كاريللو" Santiago Carrillo.

كم كنت أفضل حينها أن أتدبر جانبًا إشكاليًا آخر لمنظور الأممية أو الدولية، لا سيما العلاقة الأشبه بالآلية مع حركات التحرر القومية. فقد كانت محمودةً إذا ارتبطت بموسكو ومذمومةً عندما تتعاون مع بكين. إذا كنتم تنتمون لمعسكرنا كنا سنتغاضى عن كل شيء لا يتلاءم مع الصورة الإيجابية.

وكم بذلنا من الجهد الحثيث حتى ندبر أمورنا ونحن وسط ذلك الدغل من الجبهات والمجموعات والتجمعات مختلفة التوجه. كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على علاقة صداقةٍ بنا، أما الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين فلم تربطها بنا علاقة، أم كان العكس صحيحًا؟ خلَّد أعضاء فرقة "مونتي بايثون" Monty Python تلك الحالة من عدم الوضوح الأيديولوجي في فيلم "حياة برايان". والجدير بالذكر أن تبرير معاداة الصهيونية لدى كلتا الجماعتين الفلسطينيتين تبريرًا فولكشيًا، أي قوميًا إثنيًا، كان بالنسبة لنا مشكلةً أهون من غيرها، هذا إذا ما كان يمثل مشكلةً بالأساس. إذ كانت أمميتنا تتضامن بشكلٍ انتقائي فقط. فعندما كانت شعوب أوروبا الشرقية تتذمر من هيمنة روسيا، كان ذلك يُعد بالنسبة لنا وطنيةً قومية، وعندما تُبدي شعوب أمريكا اللاتينية الاستياء من ذات الهيمنة ولكن من قِبل الولايات المتحدة الأمريكي، فكنا نكاد ننفجر من فرط التضامن.

كأننا نقف في نطاق مغناطيسي قطباه هما القوتان العظمتان: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي. وقد كانت الحرب الباردة الدائرة بينهما على وشك أن تؤدي بالعالم بأسره إلى شفا حرب نووية كما أنهما كانتا على رأس المتسببين في اشتعال العديد من الحروب بالوكالة أودت بحياة ما يتراوح بين عشرةٍ وعشرين مليون شخص. كانت بعض هذه الحروب حروب استقلالٍ وطنية، مثل التي في فيتنام والحرب الأهلية في أنجولا حيث تناحرت جماعات التحرير المختلفة بعد أن حصلت بلادهم على الاستقلال.

وقد قاتل بشكلٍ متقطعٍ في السبعينيات ما يصل إلى خمسين ألف مقاتلٍ من أصلٍ كـوبي في أنجولا لصالح الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ذات التوجه الـروسي. دونهـم لما أمكـن ردع التدخل الخارجي لدولة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. كنا حينها نشعر بالفخر تجاه رفاقنا من كوبا. إلا أننا لم نعلم أن الاتحاد السوفيتي الذي كنا نعتبره الأكثر مناصرةً للثورة في كل مكانٍ لم يدعم باقتناعٍ تامٍ تلك المساهمة الكوبيـة آنـذاك؛ إذ كـان الاتحـاد السـوفيتي لا يريـد التـورط في صراعٍ يتصـاعد بشـدة[1]. وفي النهايـة، لم تعـد القيـادة السوفيتية ترغب في مزيدٍ من الثورات العالميـة، ولكنهـا أرادت فقـط أن تجمـع خيـوط اللعبة بين أصابعها.

1- من أجل تصور شامل مدعم بكثير من الاستدلالات راجع:

Edward George, The Cuban Intervention in Angola, 1965–1991; Frank Cass, New York 2005.

12

"قابيل" و"هابيل"

امتلأ قلب "قابيل" بالحقد على أخيه "هابيل" الذي تقبَّل الرب قربانه؛ إذ قدم "هابيل" كبشًا، أمَّا "قابيل" فلم يقدم سوى ثمار الأرض، وحينئذ قتل "قابيلُ" "هابيلَ". لم تكن تلك أول جريمة قتلٍ في التاريخ كما ورد في الكتاب المقدس فقط، وإنما كانت أيضًا أول جريمةٍ يسفك فيها أخٌ دم أخيه. عاقب الرب القاتل، فقد لعنه هو ونسله بأن صاروا مرتزقةً في شتاتٍ بلا وطن. ومنذ ذاك الوقت، أصبح هناك قومٌ من نسل "هابيل" وهم الأخيار ميسورو الحال، وقوم نسل "قابيل" الملعونون في الأرض. وقد أعاد "تشارلز بودلير" Chareles Baudelaire صياغة تلك القصة في ديوانه الشعري الذي صدر عام 1857 تحت عنوان "أزهار الشر" فذكر فيه أن قوم "قابيل" سيسعون إلى الثأر بعنفٍ من قوم "هابيل". بعد حوالي خمسين عامًا من ظهور ذلك الديوان الشعري، أصدر "إريش موهزام" Erich Mühsam مجلةً أدبيةً أسماها "قابيل.. مجلة للإنسانية". وقد تصدرت صفحات العدد الأول لها قصيدةٌ كتبها "موهزام" تحت عنوان "قابيل"، ورد فيها ما يلي:

«تقربوا إليه وحده بالقرابين، رب العدل والخير،

الذي يملأ أكواخكم بما تشتهون من ثمار طيبة،

ويكسو أجسادكم بالفراء الذي يقي من البرد،

فلتذبحوا القرابين من الأغنام اليافعة تقربًا إليه!

ولتشكروا رب الأغنياء أن أغناكم!

ولتوصدوا أبواب حظائركم في وجه جوع الفقراء!

فمَن يبغضه الرب فلتعتبروه من الخاسئين!

إن ما استزرعه الرب في حقولكم هو لكم!

ولن يفيدكم سوى أن تكونوا خلفاء الرب في الأرض!

وعليَّ فلينصب غضب المنصفين!

هلموا إليَّ! فلم أعد أخاف بعد الآن! ها أنا هنا على أهبة الاستعداد للقتال!»

الثورات هي ما يكسر تلك اللعنة التي أصابت قوم "قابيل"، وهو الأمر البديهي بالنسبة لهم. ليُسقط قومُ "قابيل" قومَ "هابيل"، حتى وإن استلزم الأمر اللجوء لاستخدام العنف. "فالثورة ليست مأدبة طعامٍ أو كتابة مقالٍ أو رسم لوحةٍ فنية أو حتى التطريز اليدوي للأغطية، فليس من الممكن أن تكون الثورة بهذه النعومة والرقة واللطف أو على هذا القدر من العطاء والاعتدال والتحضر، أو

أن تتم بهذا النمط من الحيطة والأدب والكرم، إن الثورة هي انتفاضة، هي عملٌ يصطبغ بالعنف تطيح فيه طبقةٌ بطبقةٍ أخرى حاكمة"[1]. كانت تلك هي كلمات الرئيس "ماو" التي طالما أحببت الاستشهاد بها، حيث إنها لا تصف الأمر فقط بدقة الأمر، وإنما تسرد في الوقت ذاته إرشادات سلوك ومبررات استخدام العنف "ليس من الممكن... أن تتم"، وهذا ما دفعني إلى الاستشهاد بها دومًا لفترةٍ طويلة، فهذه الكلمات تبدو أفضل من تلك الجملة الباردة عن الغاية تبرر الوسيلة، أو أنه لا مفر من تناثر الشظايا عند نشر الخشب إلا أنهما تحملان المعنى نفسه؛ فالشظايا التي تتناثر عند قيام الثورات هم البشر.

لقد ظلت خيالاتنا اليسارية المتطرفة عن استخدام العنف أمرًا مجردًا وذلك لأننا غضضنا البصر عن المعاناة الحقيقية التي يشعر بها الضحايا. كنا نصيح دومًا باسم "هو هو تشي منه" معتقدين بذلك أننا نستفز المواطنين ونحفز أنفسنا. قابلنا في تلك الفترة ممثلين عن الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة باسم "فيتوكونج"، وقد كانوا رفاقًا لطفاء وعلى قدرٍ كبيرٍ من الود. رأينا صورًا لجثثٍ متفحمةٍ جراء القصف الجوي الأمريكي بقنابل "النابالم". صورةٌ منها تظهر فيها نساءٌ يعملن في حقل الأرز ويحملن البنادق على ظهورهن، وأخرى تظهر فيها الجثث التي خلفتها مذبحة "ماي لاي" وراءها، والتي كانت واحدةً من جرائم الحرب العديدة التي ارتكبها الجيش الأمريكي.

1- Mao Tse Tung, Untersuchungsbericht über die Bauernbewegung in Hunan- (März 1927); zitiert- nach: Worte- des Vorsit-zen-den- Mao Tse Tung, a. a. O.., S. 14

صورةٌ تُظهر الخير والأخرى تُظهر الشر. لم نكن نعرف شيئًا عن الحياة الحقيقية لمحارب الشوارع المناهض للاستعمار "هو تشي منه" Ho Chi Minh الذي كان قادرًا على الظهور بشخصياتٍ مختلفةٍ وفقًا لكل حالةٍ تكتيكية هو فيها، فتارةً يظهر كدبلوماسي ماكر وتارةً أخرى يظهر كزعيم انتفاضةٍ شعبية تشن حربًا ضد الوحشية والسادية التي تتعامل بها القوى الاستعمارية مثل فرنسا وأمريكا كوسيلةٍ تعتمد عليها أثناء الحرب. ولم يكن لدينا وجود لأية جرائم حربٍ قامت بها جيوش التحرير.

انتهى الأمر عام 1975 بأن تجرع الأمريكيون كأس الهزيمة. كنت أشعر حينها أنني أقف في صف المنتصر. ولم أكتم بداخلي ذاك الشعور الذي عصف بي وبآرائي في الأعوام التالية تزامنًا مع حرب الصين ضد فيتنام أو المذابح التي ارتكبتها فيتنام في كمبوديا، إلا لأنني كنت في ذاك الوقت من أنصار حركة موسكو المناهضة للشيوعية الماوية. وارتأيت حينها أن المشكلة لم تكن مشكلتي وإنما مشكلة أنصار الحركة الماوية. كنا نتعاطف مع الشعوب التي كانت حروبها المشروعة تتقارب من توجهنا الحزبي. كنا نبكي ضحاياهم، وأي شعورٍ بالأسى حيال أي شيءٍ آخر لم يكن سوى أثرٍ جانبي عابر. كان هذا الشعور باللامبالاة والشعور بالتعاطف بشكلٍ انتقائي واحدًا من أخلاقيات الثورة. ولم يكن ذلك أمرًا أدنى من كونه اضطرابًا نفسيًا.

تعثرت ذات يوم في جملةٍ وردت في مقال للكاتب "فيساريون جريجوريفيتش بلينسكي" (1811 - 1848) Wissarion Grigorjewitsch

Belinski، الذي كان "لينين" يجله ويقدره: "يقال إن التنافر شرطٌ للتناغم؛ وربما كان ذلك أمرًا نافعًا ومريحًا لأولئك المهووسين بالموسيقى، ولكن ليس لأولئك الذين تمت إدانتهم لأنهم عبروا بمصيرهم عن اللا تناغم"[1]. تمهلت أثناء القراءة وظللت تلك الجملة. كان هناك شخصٌ ما ذو روح متمردةٍ متمرسةٍ يتتبع أحداث التاريخ ولكن ليس كما تتبعه "هيجل" - كان ذلك الاستشهاد موجهًا ضده - أي أنه لم يتتبعه من الأعلى وإنما من منظورٍ فردي. تصفحت الجريدة إلا أن تلك الجملة قد خطرت كثيرًا بذهني فيما بعد مرةً أخرى، وذلك عندما أسقطت أخيرًا عني تلك الفضيلة الثورية.

فيتنام واحدة لا تكفي.. فلتجعلوها اثنين، ثلاثة، أربعة!

منذ خمسين عامًا، وتحديدًا في عام 1967، أصدر "تشي جيفارا"Che Guevara مقاله[2]، الذي ترجمه "رودي دوتشكه" Rudi Dutschke و"جاستون سلفاتور" Gaston Salvatore إلى الألمانية والذي جاء فيه ما يلي: "كم كان المستقبل سيبدو قريبًا ومشرقًا إذا ما كان هناك المزيد من الدول على غرار فيتنام على سطح الكرة الأرضية، بكل ذلك العدد من الضحايا الذين سقطوا فداءً لها وهذا الكم الهائل من المآسي التي كانت هي

1- W. G.. Belinski,- Brief an W. P.. Botkin,- 1841; in: Ders.., Ausge-wähl-te-philosophische Schriften; Verlag für fremdsprachige Literatur, Moskau- 1950, S. 170.

2- http://www.infopartisan.net/archive/1967/266738.html

مسرحها وتلك البطولات اليومية والضربات القاصمة المتكررة ضد الإمبريالية وإجبارها لرموز تلك القوى على تفتيت قواهم متأثرةً بذلك الفيض من الكراهية المتنامية التي تكنها شعوب العالم لها".

كم رأيت ذلك رائعًا. أنا، مَن كنت قبل عامين لا أزال من أنصار ودعاة السلام أصبحت الآن لا أرى اختلافًا بين الثورة والحرب، بل إنني كنت أؤمن منذ وقت ليس بالقصير أن ما يُسمى بحروب التحرر ما هو إلا شكلٌ أساسي من أشكال الثورات. وقد عكفت على دراسة الكتاب الأحمر لـ"ماو" والذي جاء فيه: "لا يفل السلاح إلا السلاح"[1]. إلا أنني لم ألتفت لأن المجندين الشباب في الجيش الألماني كانوا يتبنون فكرًا مشابهًا لفكر "ماو" في جلسات الاستقطاب والتوظيف التي يعقدونها.

كانت النظرية المتداولة حينها تدور حول كون حرب الشوارع التي ظهرت أثناء الثورة الصينية أو عند اندلاع المقاومة في فيتنام يجب أن تمثل درسًا للفئة العريضة منا. ولكن ما ذلك الدرس؟

"إننا نحارب في الظلام، أما الشيوعيون فيرون كل شيءٍ في وضح النهار"، لخصت تلك الكلمات شكوى قائد القوات النظامية من هول حرب الشوارع المشتعلة[2]. كسب محاربو "ماو" الفلاحين إلى صفهم، مما منحهم قدرةً أفضل على الاستطلاع بالإضافة إلى أن توافر الإمدادات الغذائية منحهم ميزةً

1- Mao Tse Tung المرجع المذكور سابقًا، ص. 76.

2- Seitz المرجع المذكور سابقًا، ص. 117.

إضافية. كانوا يتحركون كالسمك في الماء بناءً على شفرةٍ اتفقوا عليها فيما بينهم. كانوا يديرون الحرب فقط في المناطق التي لهم فيها الغلبة، كانت تلك قاعدةً أخرى اتضحت لي. وتبين لي مرةً أخرى أن الوعي الثوري ما هو إلا وعيٌ انتقائي بحت. فمثلما كانت إستراتيجية حرب الشوارع أساسية للثورة الصينية فقد كان القرار بالحرب بين القوات الشيوعية والقوات الحكومية أساسيًا أيضًا، مما أدى إلى وقوع مذبحتين نظاميتين في شتاء 1948/1949.

عندما اصطدمت فيما بعد بالشيوعيين القدامى، غيرت رأيي بشأن ضرورة الحرب الأهلية، إلا أنني لم أغير رأيي لأسبابٍ أخلاقيةٍ وإنما لأسبابٍ تتعلق بمدى جدواها.

إلا أنه لم يكن عليَّ أنا وأصدقائي التخلي عن تعاطفنا مع العنف الثوري، فقد كنا نتغنى أثناء تجمعاتنا في المنظمات الشبابية التي ننتمي لها بأغانٍ حماسيةٍ تمجد الحروب مثل:

"إذا وجهوا الأسلحة

تجاه الاتحاد السوفيتي

فلتتسلح الجيوش الحمراء

للحرب... للثورة!"

البندقية، أداة القتل، هي رمز الثورة الأكثر انتشارًا، حتى أن جماعة الجيش الأحمر المسلحة استخدمتها كرمزٍ لحركتها. فهي تعبر عن ذلك المبدأ القائل بأن الثائر لا يدير خده الأيسر لمن صفعه على الأيمن أي لا يجنح إلى السلم.

غالبًا ما كانت ترد أثناء النقاش حول العنف الثوري اشتراطاتٌ غير محددةٍ له. ومن المجدي على وجه الخصوص التساؤل بشأن معايير التبرير: هل هي أخلاقيةٌ أم قانونيةٌ أم سياسية؟ فإذا كان الأمر يتعلق بالمعيارين الأول والثاني فسرعان ما كان سيتم القضاء على الثوار. إن ما يخدم الثورة هو الجانب الأخلاقي سواءٌ أكان ذلك يتوافق مع نظامها القانوني الحاكم أم لا، يتوقف الأمر على المعيار الثوري. إلا أن استخدام العنف الذي يهدد الاتحاد الخاص ويسبب فقدان التعاطف هو الأمر السيئ. تمت المهمة.

كما أن العنف بخلاف ذلك مصطلحٌ من الصعب تعريفه، فقد حاولت أجيالٌ متعاقبةٌ من رجال القانون وضع تعريفٍ اصطلاحي للعنف ولم يصلوا أبدًا سوى لبعض التوصيفات النفعية له، وقد اقتصر تعريفه فقط على أنه مسببٌ للألم الجسدي، إلا أننا بذلك نستثني العنف النفسي، وإذا ما قبلنا بذلك التعريف فماذا عن الإذلال سواءٌ من خلال ظروف العمل أو ظروف المعيشة غير الكريمة؟ أو مع التمييز؟ فذلك هو "عنف هيكلي" استخلص منه بعض الأفراد حق الدفاع عن النفس، ليخلقوا بذلك مبررًا ليس لذلك العنف الهيكلي، بل العنف الذي يسبب أذى نفسي.

نجحت عام 1967 في فض جمعٍ من الحضور في إحدى الحفلات المدرسية بعد أن وزعت منشورًا باسم مجهول داخل المدرسة، حيث ورد فيه أن قنبلةً ستنفجر. فعلت ذلك حينها لربما نشعر بما يشعر به شعب فيتنام لمرّةٍ واحدة. كان عملًا وحشيًا وغير إنساني بالمرة حاولت من خلاله إصابة زملائي بالذعر والهلع حتى أصل لأغراض سياسية.

كان لمثل هذه الأفعال نموذجٌ رائدٌ. فعندما اشتعلت النيران بمتجرٍ في بروكسل عام 1967، علقت بلدية برلين 1 على الحادث بمنشوراتٍ ساخرةٍ جاء فيها: "متجرٌ محترقٌ به أجساد أناسٍ متفحمةٌ يثير للمرة الأولى في مدينة أوروبية كبيرة ذاك الشعور بحفيف النيران كما يشعر به الناس في فيتنام - فلنكن معهم ونحترق معهم – ولا نزال نفتقد الشعور بذلك في برلين حتى الآن"[1]. أطلقنا العنان للتهكم. والأسوأ من ذلك أنني لم أدرك مدى السوء في ذلك، فقد طغى شعوري بالاستياء تجاه قصف فيتنام بـ"النابالم" على أي إحساسٍ آخر بداخلي. نعتقد بأريحيةٍ أن الاستياء ما هو إلا انفعالٌ نبيل، إلا أنه قد يتوحش.

توقف جزءٌ من اليساريين في ذاك العام عن تبرير استخدام العنف ضد الممتلكات، بغرض مجاراة المدنيين من المواطنين، إلا أنهم لم يتوقفوا عن تبرير استخدام العنف ضد البشر. وإذا ما نظرنا للأمر من كثبٍ نجد أن

1- "لم تحترق أيها المستهلك؟" منشور البلدية 1 رقم 7، في 24 مايو 1967. متاح منه نسخة إلكترونية في أرشيف "معارضة من خارج البرلمان والحركات المجتمعية" داخل أرشيف جامعة برلين الحرة.

http://www.1000dokumente.de/index.html?c=dokument_de&dokument=0085_kom&object=facsimile&l=de

الفارق بينهما ليس بالفرق. أولًا، لا يمكن السيطرة على أعمال الشغب إلا بصعوبةٍ خاصةً إذا ما قام الأفراد بحماية المنشآت والممتلكات. ولم أعاصر شخصيًا حتى الآن أية مظاهرةٍ عنيفةٍ تمكنت من الالتزام بهذا الحد الفاصل في استخدام العنف ضد البشر والممتلكات بشكلٍ محكم. وثانيًا، إن الممتلكات في نهاية الأمر ممتلكاتٌ لأشخاص، أي أن مَن يقوم بتخريب منازل أو سيارات غيره من الناس عليه أن يغلق فمه ولا يتحدث عن العنف الهيكلي.

للعنف صورتان، إما ممارسة العنف أو التهديد بممارسته. وهو الأساس الذي يقوم عليه جزءٌ كبيرٌ من العلاقات الدولية بين الدول وحتى العلاقات بين الأفراد أيضًا. فممارسة العنف هو مال السياسة. وفي حال عدم التوصل لحلٍ سياسي يتوجب الدفع نقدًا. كما يمارس الثوار وأنصار الثورة المضادة العنف بدورهم كي يهددوا بالمزيد من أعمال العنف ويضفوا على هذا التهديد مصداقية. وهذا هو أحد أسلحة حرب العصابات وهو بلا شكٍ يدٌ من أيادي الإرهاب، المنوط بها إرغام العدو على الخضوع ذليلًا على ركبتيه.

وعندما يبطش كلا الجانبين ببعضهما بعضًا، مثلما حدث أثناء الثورة الفرنسية أو الحروب الاستعمارية، التي اشتعلت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يأخذ العنف منحًا تصعيديًا متبادلًا من كلا الطرفين، ويتنامى على إثره ميل البشر للسادية. ويعني إطلاق العنان للعنف دومًا أنه بدأ يخرج عن نطاق التطلع لتحقيق غايةٍ معينةٍ ليتحول إلى الشر المطلق. وحينها لا يحرك الإنسان سوى التهكم مثلما حدث مع أحد المحلفين الثوريين في مدينة

"أراس" الفرنسية، الذي غرس يده عام 1794 داخل جسد سيدتين مقطوعتي الرأس حتى اصطبغت بدمائهما المسالة، وصاح عندئذ: "يا للروعة!""[1].

إن العنف الذي يمارسه الثوريون وأنصار الثورة المضادة يستلزم أن يتطابق كلا الجانبين في مضمونه حتى يتكاملا مشكلين كيان عنفٍ متكامل، يتحول بداخله الخصم إلى عدو، والمقصود به هنا أناسٌ ينكر عليهم الطرف الآخر في النزاع الحق في الوجود، سواءٌ أكان الوجود على الساحة السياسية أم المجتمعية أم الوجود على قيد الحياة في غالب الأمر. إن كل طرفٍ يسعى لإزاحة الآخر والتخلص منه، ويظل التفكير العملي هو المعرقل لاستخدام العنف، على أفضل تقدير.

بالنار، بالسم، أو بطعنة خنجر

لطالما كان استخدام العنف عمليةً روحانيةً، كما أن تخطي الحاجز الحضاري يستهلك طاقةً نفسية. إلى جانب الرغبة في استخدام العنف تأتي الكراهية أيضًا كدافعٍ محركٍ لاستخدام العنف، سواءٌ كانت تلك كراهيةً ثوريةً يكنها أشخاصٌ وقعوا تحت ظلمٍ أم كراهيةً يكنها أعداء الثورة لمن سلبهم امتيازاتهم. تستطيع خيالات العنف في أوقات ما قبل الثورة الإبقاء على جذوة الكراهية المكنونة في قلوب الخاضعين لفترةٍ طويلةٍ ثم تتحول في يومٍ من الأيام

1- Pierre Gaxotte, Essai sur la révolution française (III); in: La revue des deux mondes,- Juli 1950, S. 342.

إلى سعيرٍ ثوري. وعندما يتعرض مَن سلبت امتيازاتهم للإذلال دون أن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، فهم يظلون حينها في انتظار يوم أخذ ثأرهم من المجتمع. وقد أجاد الكاتب "جون فرانسوا دولا هارب" Jean-François de La Harpe (1739 - 1803) تصوير الأمر في قصيدة له قال فيها: "كلما ازدادت وضاعة الظالم، أصبح المظلوم أكثر بشاعة"[1]. وقد كان "هارب" صديقًا لـ"فولتير" ومؤيدًا للثورة، حتى ألقي به في السجن.

وكلما ازدادت تعاسة المقهور، أضحت خيالاته عن يوم تحرره أكثر عنفًا. وقد تجلى ذلك في روايةٍ ذات توجهٍ ثوري اجتماعي كتبها "إميل زولا" بعنوان "الجرثومة"، وفيها التقى الميكانيكي "إيتيني لانتيير" بزميله "سوفارين" المناصر للفوضوية الذي كان يستند لأراء "باكونين": "قبل أن تنقضي ثلاثة أعوام، ستسحق الدُولية العالم القديم تحت إمرته وتجعله أنقاضًا".

رفع "إيتيني" أذنيه بانتباه. كان يحترق في داخله من فرط فضوله كي يفهم السبيل للانقلاب على هذا الحال الذي لم يذكر الميكانيكي عنه سوى بضع كلماتٍ غير واضحة، وكأنه يرغب في الإبقاء على أسراره لنفسه.

- ولكن فلتشرح لي ما الذي تسعون إليه؟

- تدمير كل شيء... ولأن نقضي على الأمم كافة والحكومات كافة، نسعى لألا يكون هناك ملكيةٌ أو إلهٌ أو عقيدة.

- حسنًا. ولكن إلامَ ستؤول الأمور في النهاية؟

1- Jean-François- de La Harpe,- Œuvres,- Bd. III; Verdière, Paris 1820, S. 16.

- إلى مجتمعٍ بدائي بلا ملامح، إلى عالمٍ جديدٍ وبداية جديدة لكل شيء.

- وما السبيل لتحقيق ذلك؟ كيف ترغبون في تسيير الأمر؟

- بالنار أو السم أو بطعنة خنجر. كان اللص هو البطل الحقيقـي والمنـتقم للشـعب، هو الثـائر دون الاستشـهاد بعبـاراتٍ مـن الكتـب. يجـب أن تكـون هنـاك سلسـلةٌ مـن العمليات الوحشية التي تصيب أصحاب السلطة بالرعب وتوقظ الشعوب[1].

خيالات العنف. مثلما حدث أثناء التظاهرات الغاضبة لعمال شركة «كونتينينتال» لإطارات السيارات المهـددين بـالتسريح مـن العمـل في مدينـة "كـومبيين" الفرنسـية والذين كنت أقف حينها بينهم ممسكًا بدميةٍ ضخمة كانوا قد شنقوها لتوِّهم. وهـا هي الآن مسجاةٌ فوق أحد الإطارات. كانت تلك الدمية تمثل "لويس فورتسي" مـدير المصنع. لطالما كانت الدمية رمزًا له أصولٌ تاريخية، ففـي عـام 1789 الـذي اشـتعلت فيه الثورة في فرنسا، قام عمال باريس الجياع بإشـعال النـيران في دميـةٍ لخيـال مآتـة تمثل أحد أصـحاب المصـانع المكـروهين، إلا أن اسـتخدام الـدمى لـيس شـأنًا فرنسـيًا خالصًا، فالتنكيل بالدمى معروفٌ منذ أمدٍ بعيد عـلى أنـه وسـيلة تنفـيس الجماهـير الغاضـبة سـواء كانـت في طهـران أو كـابول أو إسـطنبول أو في قطـاع غـزة أو في

1- Emile Zola, Germinal;- Insel,- Frankfurt/M- 1983, S. 270.

دول أمريكا الجنوبية أو حتى في أوروبا. لكن هل هي بمثابة التنفيس أم إنذار؟ الأمر غير إنساني على أية حال.

كان عمال مصنع "كونتيننتال" ألقوا البيض على رأس السيد "فروتسي" شخصيًا وليس الدمية وهم يصيحون في غضبٍ وذلك قبل أيام من نقل المصنع إلى مدينة "كامبيين". لا بد وأنه شاهد بنفسه هذا الحادث على التليفزيون فور إذاعته ورأى كيف تم ربط هذا المشهد بباقي اللقطات المشابهة له التي تصور إلقاء الحذاء على "چورچ دبليو بوش". "يا له من أمرٍ مؤلم!"، قالها لي وهو ينظر إليّ وقد بدت على وجهه المهانة: "إنسانٌ ملموسٌ وليس دمية مجردةً تحمل اسم «مدير المصنع». الشخص الذي أحب بحكم عمله مهندس تشييد المصانع وليس أن يتلقى التكليف بإغلاقها. أعلم جيدًا، كل الكيانات دمرت من جراء ذلك، إلا أن "فروتسي" في النهاية هو إنسانٌ بالرغم من كل شيء".

اهتم علم السياسة بدراسة الفرضية القائلة بأنه إذا لم يتمتع الثوار بقدرٍ أعلى من الذكاء فهل كانوا سيتخلون بشكلٍ كامل عن العنف، وليس المقصود هنا التخلي عنه لأسبابٍ أخلاقية وإنما لأسبابٍ نفعيةٍ بحتة. صدرت منذ بضعة أعوام دراسةٌ تطبيقية تقترب من وجهة النظر تلك تحت عنوان "لماذا تفلح المقاومة المدنية - إستراتيجية منطق الصراع السلمي"[1]. استندت

1- Maria- J.. Stephan, Erica Chenow-eth,- Why Civil- Resistance- Works –The Strategic Logic of Nonviolent Conflict; in: International Secu- rity, Bd. 33, Nr.. 1, Cambridge,- Mass.. Sommer- 2008, S. 7–44.

الدراسة إلى قاعدة بياناتٍ تشمل 323 من أكبر حركات المقاومة سواء تلك التي لجأت إلى استخدام العنف أم غيرها من الحركات السلمية التي نشطت ما بين عام 1900 وحتى عام 2006. وكانت نتيجة تلك الدراسة مثيرةً للإعجاب، حيث حققت 53 بالمائة من حركات المقاومة التي تخلت عن استخدام العنف نجاحًا بالفعل في حين لم يصل إلى تحقيق النجاح نفسه سوى 26 بالمائة من الحركات التي اعتمدت على العنف للوصول إلى مبتغاها. إذ يتسم عدم اللجوء للعنف بكل المزايا التالية؛ من السهل أن تكتسب الحركة من خلاله التعاطف. ثانيًا، يؤدي قمع مثل تلك التظاهرات السلمية إلى اكتسابها للمزيد من الأنصار الداعمين. ثالثًا، من السهل مع وجود معارضةٍ سلمية أن تغير القوى داخل النظام المتظاهر الجانب الذي تدعمه. رابعًا، تتفاوض الأنظمة الحاكمة بصورةٍ أكثر أريحية مع المعارضة السلمية حتى يسهل لها الوصول لحلولٍ وسط وانتقالٍ سلمي للسلطة.

كانت النتيجة في البداية مثيرةً للدهشة، إلا أن السبب الذي دفعنا إلى تعريف الثورة من خلال علاقتها الوثيقة بالعنف هو أن الانتقال السلمي للسلطة ليس بالدراماتيكية نفسها التي عليها انتقال السلطة باستخدام العنف، فنحن نتذكر المتاريس بشكلٍ أسهل من تذكرنا لطاولات المفاوضات المستديرة. والنهاية غير الدموية للديكتاتور التشيلي أو للتمييز العنصري في جنوب أفريقيا أو للاشتراكية في ألمانيا الغربية وفي تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا وأيضًا تغيير النظام في بورما لا تقترن في عقولنا مع مصطلح الثورة، رغم أنها

في النهاية ما هي إلا نتاجٌ للثورة. كما يتوجب هنا إضافة الحقيقة التي مفادها أن تلك الحالات السالفة الذكر لم تنتهِ كلها نهايةً سلمية خالصة لا يشوبها بعض العنف. فنهاية التمييز العنصري في جنوب أفريقيا لم تكن لتحل لو لم تتمكن المقاومة المسلحة التي خاضها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي من توطيد العلاقة مع أهل جنوب أفريقيا من ذوي البشرة السوداء وكسب ثقتهم على مدار أعوامٍ طويلة.

أيًا كانت أسباب اللا عنف المقنعة فلا يمكن أن نغفل ما يلي؛ يريد الاندفاع الثوري أن يصل إلى هدفٍ آخر، لا سيما أن يحطم كافة القيود وأن يطيح بكل الأنظمة. فالثورة تعني العاطفة وليس الحسابات.

الإنسان الجديد المتعطش للدماء

يمكن للعنف أن يكون له تأثيرٌ متزايدٌ من وجهة نظر شخصٍ تمكن منه الشعور بالقهر. وهو ما صاغه "فرانتس فانون" Frantz Fanon كالتالي: "يشبه العنف في تأثيره على المستوى الفردي تأثير ترياق السم، حيث يحرر مَن يتم استعمار أرضه من عقدة الشعور بالدونية ويخلصه من الشعور بالسلبية واليأس ويجعل منه شخصًا لا يهاب بأسًا فيرى نفسه يتعافى مما أصابه ويتماثل بذلك للشفاء"[1]. وتعكس القوة الضاربة في أسلوب

1- Fanon في المرجع المذكور سابقًا، ص. 48.

"مالكولم إكس" Malcolm X البلاغي، في خطبه التي وجهها لكل شخصٍ يمكن أن يضع نفسه في المكان نفسه للأفروأمريكيين، تلك الرؤية ولا يزال ذلك يعطينا حتى يومنا هذا درسًا مثيراً.

إلا أن العنف الثوري له جانبٌ آخر قادرٌ على تدمير صاحبه أدبيًا. فعادةً ما يلجأ الثوار في صراعاتهم الداخلية لأساليب الصراع نفسها التي اعتادوا على استخدامها قبل ذلك، فيلقون ببعضهم بعضًا تحت نصل المقصلة أو يصدرون أوامر بالرمي بالرصاص ضد بعضهم أو حتى يرسلون بعضهم لحبل المشنقة. افتتح "لينين" في مارس 1922 المؤتمر الحزبي السادس للحزب البلشفي بخطبةٍ تنديدية موجهة لمنتقدي سياساته الاقتصادية الجديدة، الذين زعموا أنها تمثل ارتدادًا للرأسمالية، فقال في خطبته: "إنهم يتعجبون عندما نعلن أننا سنطلق النار على كل مَن يقول ذلك. إنهم مندهشون على الرغم من أن الأمر واضح، عندما ينسحب أي جيشٍ يتطلب ذلك إعدادًا منظمًا أكثر مائة مرةٍ مما يتطلبه الإعداد لشن هجوم"[1]. ثم واصل حديثه متهكمًا: "إذًا مسموح لنا أن نقتلكم رميًا بالرصاص، فلتتفضلوا بالتوقف عن الإفصاح عن آرائكم. وفي حال رغبتم في طرح آرائكم السياسية في ظل الوضع الحالي الذي نحن فيه من الظروف الصعبة المتشعبة، وذلك بخلاف هجوم الجيش الأبيض، فسنقوم - ونحن معذورون بالتأكيد - بالتصرف معكم على غرار ما نفعل مع

1- W. I.. Lenin.. Rede zur Eröffnung- des XI. Parteitags der KPR (B); in: LW, Bd. 33, S. 269.

أسوأ عناصر الجيش الأبيض وأكثرهم خطورة"[1]. ورد ذلك نصًا في إصدار منقح لخطب "فلاديمير لينين" تم نشره في الاتحاد السوفيتي آنذاك.

وإذا ما وصل الثوار للسلطة باستخدام العنف فسوف يحتفظون بهذه الحالة عند التعاطي مع أي صراعٍ فيما بعد. كتب "فيكتور سيرجيه" في مذكراته عن مقابلة له مع "مكسيم جوركي" الذي كان قد انتقد الحركة البلشفية اللاهثة وراء السلطة، ووصفها بأنها قد وضعت أساسًا لبلشفةٍ جديدةٍ متعطشة للدماء، وذلك لأنهم وكأنهم عرفوا أنفسهم في الفوضى وحدها[2]. وقد واصل "سيرجيه" في موضع آخر نقده قائلًا: "إن جماعة اليعاقبة البروليتارية بما هي عليه من إيثارٍ وتنظيمٍ في طريقة الفكر والتعامل قد روجوا لأنفسهم من خلال سيكولوجية معينة لكوادر الحزب، والتي تكونت في الحرب ضد البلشفية... لقد حرر انتصار الثورة الجماهير التي طالما كانت منهزمةً قبل ذلك من إحساسها المركب بالدونية وأيقظ بداخلهم روح الانتقام المجتمعي التي قامت بدورها بوضع حجر الأساس لكياناتٍ استبدادية جديدة"[3]. ربما كانت شهادة "سيرجيه" الذي كان شيوعيًا واشترك في تأسيس الاتحاد السوفيتي مقنعةً لأولئك القراء الذين تقبلوا الدراسات التي تناولت الشيوعية في الغرب بتوجسٍ وارتياب. فكتب:

1- المرجع السابق نفسه.

2- Serge، المرجع المذكور سابقًا، ص. 560.

3- المرجع السابق نفسه، ص. 610.

"أعرف حجم هؤلاء الناس، لكن فيما يتعلق بتلك النقطة فقد ظلوا على الرغم من انتمائهم للمستقبل أسرى للماضي"[1].

مولد ديكتاتور جديد، هكذا انتهى الأمر في الاتحاد السوفيتي ولا يزال هو الحال حتى اليوم في الصين وفي كوبا أيضًا للأسف. فخروج العنف عن نطاق السيطرة في أي مكان لطالما تزامن مع ظهور سلطةٍ مطلقة، تلك التي تؤدي في النهاية إلى خيانة أهداف الثورة.

"جان بول مارا"

جنون العظمة والمنفعة

لا يستلزم العنف الثوري وجود قوى مسلحةٍ بل يكفي توافر الرغبة في استخدام العنف وحينها ستتحقق تلك الرغبة مجتمعيًا بمجهودٍ جماعي في صورة سفك دماء مجموعات كبيرة، وغالبًا ما يكون هناك شخص ما، هو مَن يُحرض تلك المجموعات، مثل "جان بول مارا"Jean Paul Marat الذي كان واحدًا من المؤثرات الفاعلة الأكثر راديكالية أثناء الثورة الفرنسية.

ولد "جون مارا" عام 1743 وظل لفترة يعمل كطبيب وكاتب سياسي في لندن. كانت كتاباته تدور في المقام الأول حول تآمر البلاط. وبعدما انتقل إلى باريس عام 1777، عمل بشكلٍ متقطعٍ كطبيب لدى الحارس الشخصي

1- المرجع السابق نفسه، ص. 584.

للملك "كارل الخامس". وكان "مارا" في ذاك الوقت يجري تجارب باستخدام النار والكهرباء والضوء حيث أراد أن يصنع لنفسه اسمًا كباحثٍ في علوم الطبيعة.

حاول المؤرخ "إيبوليت تين" Hippolyte Taine الذي كان من أنصار الفلسفة الوضعية، ولم يكن في الحقيقة من أنصار الثورة، طرح تصورٍ عن "مارا" في مقال ملفت للنظر كتبه عام 1884[1]، وقد لام عليه البعض لاحقًا أنه حاول توصيف جماعة اليعاقبة كمرض، وبالرغم من أنهم كانوا على حقٍ في لومهم، فإن أعداء "تايين" شهدوا له بأنه لا لوم عليه في ذاك العمل التوثيقي. ولذا يمكن استنباط بعض ملامح شخصية "مارا" الموثقة بشكلٍ جيدٍ في ذلك المقال، فعلى سبيل المثال كان "مارا" قبل أن يدرك مهمته الحقيقية أثناء الثورة على يقينٍ من أن كافة العلماء السابقين الذين عكفوا على البحث في مجالات علم البصريات وعلم الفلسفة وعلم النفس قد برعوا جميعًا في مجاله، حتى أولئك الأكثر شهرة منهم الآن مثل "نيوتن" و"ديكارت" و"هيوم" أو حتى "فولتير"، فبناءً على ما كتبه هو عن نفسه فقد كان يرى أن كافة محاولات دمج الروح البشرية من خلال الأخلاق والفلسفة والسياسة لهي أمرٌ مرهق، إلا أن المؤسسة العلمية قد قمعته في هذه الأثناء. وانطبق ذلك الحال أيضًا على آرائه وأحكامه السياسية، فكل ما تنبأ

1- Hipployte- Taine, Psychologie- des chefs jacobins;- in: Revue- des deux mondes,- Septem-ber- 1884, S. 326 ff..

به تقريبًا قد تحقق كما يزعم. وكانت كل الأدلة التي استند إليها "تـين" في مقالـه تشـير إلى ثقة "مارا" بنفسه لدرجـةٍ مبـالغ فيهـا والتـي بإمكاننـا بكـل هـدوء وصـفها بجنـون العظمة.

يعاصر هذا الرجـل الثـورة ويريـد أن يتزعمهـا، فيؤسـس جريـدةً راديكاليـة التوجـه سماها Amidu peuple "صديق الناس"، والتي سرعان ما حظيت بشعبية. وقـد كتـب بها في الواقع مقالاتٍ تتميز ببعد النظر مثل ذلك الذي تنبأ فيه بتحريـر العبيـد وظهـور حركات الاستقلال كخطوةٍ تالية يتوقـع حـدوثها بعـد الثـورة، وهـو مـا حـدث بالفعـل. وتطلعت تلك الصحيفة لمطلبٍ عصري للغاية، وهو أن تكون قوة السلطة الرابعـة التـي عليها أن تكشف المؤامرات وتفضح الخونة وتدافع عن حقوق الشعب وأن ترصد أعمال المؤتمر الوطني الفرنسي (برلمـان ثـورة 1792) وتتتبـع خطواتـه وأعضـاءه في حـال ضـلوا الطريق وحادوا عنه فتذكرهم بمبادئه. كان ذلـك هـو موضـوع تلـك الصـحيفة ومحـور اهتماماتها [1].

حظيت كتابات "مارا" بشعبيةٍ كبيرة. وقد قامت صحيفته بدعوة شعب بـاريس بالمشـاركة السياسية وحذرهم من مغبة الانخداع. ربما تجد مثل تلـك الـدعوات في أي جريـدةٍ تصـدر في وقتنا الحاضر. حينها كان على حق في تحذيره. كانت دعواته التحريضية سلبيةً بشكل غريـب؛ فكان دومًا يرسم المستقبل بريشةٍ من ألوانٍ داكنـةٍ مظلمـة، ويـتهم قـراءه ومسـتمعيه دومًـا

1- Journal- de la Républi-que- française,- Nr.. 1 vom 25. 9. 1792, S. 8.

بالسلبية كي يبث فيهم روحًا ثوريةً تُقْدِم على اتخاذ خطواتٍ ثورية. وقد نشر "مارا" في صحيفته أسماء أولئك الذين اعتبرهم أعداء الشعب وهو مدركٌ بشكل كامل أنه هكذا يُلقي بهم أمام غضب الشعب، وعندما طلب "مارا" من قرائه في سبتمبر 1793 أن يرى 40000 رأس تتدحرج - وكأنه في رهانٍ مع نفسه - جاءت النتيجة في صورة مذبحة أسفرت عن 70000 رأس قتيلٍ بعد ستة أسابيع فقط.

أيد "مارا" الاستبداد الثوري، حيث نادى في أبريل 1793: "الحرية لا تُنال إلا بالعنف، وقد آن الأوان لإحكام السيطرة المؤقتة للحرية والقضاء على سطوة الملك"[1]. كانت تلك هي الجمل التي ظللتها أثناء قراءاتي عندما مررت عليها في أواسط السبعينيات. حينها انتابتني الانطباعات نفسها التي قد يبديها أي من أنصار نظام "لينين"، ذلك بكل تأكيدٍ ما يمكن فعله من أجل تنصيب ديكتاتور للبروليتارية. وهل تلك الثورة التي قامت في 1793 لم تتعرض لأية تهديداتٍ من الأعداء في الخارج أو الداخل؟ جاء الجيروندیون الذين كانوا يعدون من الثوار معتدلي الفكر على رأس قائمة الأعداء التي وضعها "مارا". لم تكن لديَّ أدنى مشكلةٍ مع الأمر كقارئ شاب، إلا أنني لم أفهم قط كيف

1- Jean Paul Marat,- Der Despo-tis-mus- der Freiheit;- in: Peter- Fi-scher (Hrsg.), Reden der Französischen Revolution; dtv, München 1974, S. 296.

كان "مارا" يطالب دون كللٍ أو مللٍ بوجود فردٍ كديكتاتور حتى أنه رشح نفسه مرةً على الأقل ليكون هو ذلك الحاكم الديكتاتور[1].

في 13 من يوليو عام 1793، قامت فتاةٌ شابة من الجيروندين تدعى "شارلوت كورديه" بطعنه، حيث اعتبرت "مارا" واحدًا من أسوأ المحرضين في تلك الفترة التاريخية حيث جعل من الثورة حلبةً لسفك الدماء. كان "مارا" يجلس مستلقيًا في حوض استحمام لحظة وقوع تلك الحادثة، والذي كان مضطرًا حينها للجلوس فيه طيلة اليوم أحيانًا لأنه كان يعاني من مرضٍ جلدي شديد يسبب له الحكة والألم. وربما تفسر تلك المعاناة من ألمٍ ومرضٍ مجافاة "مارا" المتطرفة للنوم وصخبه الزائد. وقد اعتبرت ذلك منذ فترة بعيدة أمرًا شجاعًا للغاية. وتمنحنا أقواله التي تم إسنادها يقينًا إليه بشكل كافٍ تصورًا عن ذلك الرجل.

كان "مارا" محارب الكلمة الجامح. ولكن هل كانت الثورة في حاجة لشخصٍ على شاكلته؟ لقد دفع بكلماته الشعبَ ليؤيد إرهاب اليعاقبة ونجح في مسعاه. لربما كانت الثورة المضادة ستتمكن من سحق تلك الثورة لولا وجود ذلك الإرهاب. ليس ذلك مبررًا للعنف وإنما هو مجرد إجراءٍ لا يتماشى مع الزمن. فقد كان يتم تقييم أفعال الثوار في القرون اللاحقة وفقًا لنموذج تقييمٍ من ثلاث خانات: إمَّا جيدة وإمَّا معتدلة وإمَّا شريرة. ويكفي فقط

1- L'ami du peuple, Nr. 490, 1791, S. 7; http://artfl-pro-ject.uchicago-.edu/content/lami-du-peuple.

إيقاظ الذكريات المروعة للأعمال الوحشية مثل المذابح التي شهدها إقليم "فونديـه" أو تلك المحاكمات الثورية التي كانت أشبة بماكينةٍ للقتل في المدن.

قد نرغب في التحمس للثورة، إلا أنها ذات وجهين: الجمال والفزع في الوقت ذاته.

والأفضل لو كان قيامها ليس بالضرورري.

وفي نهاية ذلك الفصل المعتم نعطى كلمة النهاية لأكثر ما قيـل قتامـة عـن الثـورات: "جوزيف ستالين". فكما ذكر "شارل ديجـول" أن "سـتالين" صرح بصـوتٍ مـنخفضٍ بعـد حوارٍ له مع زعيم الانتفاضة الفرنسية في ذلك الوقت : "يكسب الموت دومًا في النهاية".

13

هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟

الهجوم ومن ثَمَّ الدفاع؛ هما أكثر المراحل دمويةً في أي ثورة، ويليهما في النهاية رد فعل "ترميدور"، أي الانقلاب على الثورة. يحاول البعض حينئذٍ أن يلخص تلك المعاناة كالتالي؛ مَن مِنا لم تُحبس أنفاسه من فرط الذهول في أية ثورة؟ كم كانت أنهار الدماء المراقة كبيرة؟ كم كان الصراخ عاليًا؟ وإلى أى مدى سُمعت تأوهاتُ وأنفاس الألم الأخيرة وصياح كل الجرحى والمعذبين والقتلى في الوقت ذاته؟

اختلف المؤرخون فيما بينهم حول حصر أعداد الملايين الذين سقطوا قتلى وضحايا لثورات القرن العشرين، خاصةً الثورات الشيوعية والروسية والصينية. وكتب المؤرخ الحذِر "إريك هوبسباوم" Eric Hobsbawm عن أعداد ضحايا الستالينية الذين لقوا مصرعهم في الثورة بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، قائلًا: "لا بد أن تُسجل أعداد القتلى في تلك الثورات برقم ثُماني الخانات بدلًا من سبعة"[1]. ولا جدال أن حوالي 20 مليون شخص قد لقوا مصرعهم خلال ثورة "التايبينج" الصينية؛ تلك الحرب الأهلية الثورية

1- Hobsbawm, a. a. O., S. 393.

الاجتماعية. واستمر التاريخ الدموي للثورات في القرن الواحد والعشرين في مصر وليبيا وسوريا، ولا ننسى أيضًا الحرب الأهلية الناتجة عن الثورة المضادة التي قادتها روسيا في شرق أوكرانيا؛ تلك الحرب التي كانت بمثابة نتيجةٍ لاحقةٍ للثورة البرتقالية.

هل استحق الأمر كل هذا الألم؟

هناك دائمًا مَن يتعين عليه أن يدفع فاتورة الآخرين، فلقد مات ملايين الفرنسيين جوعًا جراء نظام الحكم القديم في فرنسا، فمَن لا يُسقِط حكم الديكتاتوريين يسمح بالتبعية للعنف أن يستمر في معتقلات التعذيب، التي كانت تمثل لكل ضحاياها الألم الدائم بلا نهاية.

إلا أن الأمر لا يسير دائمًا على هذا النحو، فذلك التساؤل يقوم على افتراضٍ خاطئ، ألا وهو أن مَن يقوم بتلك الثورات يُقدِّر - بالنظر إلى الأحداث التاريخية السابقة - مخاطر تلك الخطوة قبل القيام بها، أو أنه يقارن بدمٍ باردٍ أعداد الضحايا، ومن ثم يتخذ القرار المنطقي بعد حساباتٍ دقيقة كثيرة. فالثورات ما هي إلا أحداثٌ يشارك بها الأفراد بسلوكياتٍ ما؛ وهذا هو كل شيء. وقد اتضح لنا ما يلي: ربما يود الثوار أن يصدقوا أنهم هم مَن يمسكون بطرف الخيط، وأن بيدهم مقاليد الأمور، إلا أنهم في أفضل الأحوال يركبون موجةً عاليةً حتى يجرفهم فيض المياه ليدفنهم تحته.

دعونا نطرح سؤالًا أفضل: ما نتيجة أي ثورة؟

الإجابة كالتالي: لا تتمثل النتيجة في حالةٍ أو وضعٍ ما بل عملية أفعال، حيث تدفع الثورة الباب لينفتح بقوة، ذلك الباب الذي يطوي وراءه طريقًا جديدًا. فيُترك المسار القديم ويُمهَّد لمسار جديد. وبهذا لا يكون هناك حينئذٍ تقييمٌ لأي شيء بعد، ولا يستطيع أحدٌ أن يتطرق إلى قضية التقدم وما شابه من الموضوعات.

لا بد وأن نتخذ من الثورة الإنجليزية - التي أشرنا إليها سابقًا - مثالًا على ذلك. حيث سارت الثورة البريطانية دربًا طويلًا، بل ومهدت أيضًا دربًا جديدًا طويلًا. إذ سارت على درب الحرب الأهلية في القرن الثالث عشر والتي صدر عنها الميثاق الأعظم Magna Charta عام 1215، تلك الوثيقة التي أقرت أولًا حق طبقة النبلاء العليا مقابل سلطات الملك، وأقرت ثانيًا الحقوق السياسية الأساسية للمواطنين، وكان أهم بنودها البند رقم 39 الذي نص على ما يلي: "لن يتم إلقاء القبض على أي شخصٍ حر والزج به في السجن ولن تُسلب حياة أي شخص أو يُنفى خارج البلاد أو يُعاقب بأي شكلٍ كان، فلن نُلقي القبض على أي حر أو نسمح لسلطة ما بذلك إلا وفقًا لقوانين الدولة أو على أساس حكمٍ قانوني تم إصداره على حالاتٍ مشابهةٍ من أقرانه"[1]. وكان الميثاق الأعظم البداية لطريق دولة الدستور ودولة القانون الإنجليزية. ثم ازداد النزاع في السنوات التالية حول تقسيم السلطة بين الأرستقراطيين وطبقة النبلاء الأقل درجة المسيطرين على أراضى الدولة

1- Zit .n .Fenske, a. a. O., S. 55.

والبلاط الملكي، مما أسفر عن تأسيس البرلمان الذى تطور تدريجيًا وبدأ يخرج من عباءة القصر الحاكم ليتحول إلى مؤسسةٍ مستقلة.

ثم اعتلى "ستيورات الأول" (جاكوب الأول) العرش عام 1603، الرجل الذي أراد الانسحاب الكامل من كل ما تم تحقيقه. كان البرلمان بالنسبة له يمثل مجرد مجلسٍ للمملكة ليس أكثر[1]. وقوبل هذا الأمر بمعارضةٍ شديدة من الطبقة الراقية الواثقة من نفسها، وهم النبلاء من الطبقة الأدنى أي الطبقة البرجوازية وذوى المهن الحرة. واحتدم الصراع تدريجيًا لمدة ثلاثين عامًا، حتى ظهر سببٌ ديني سياسي أشعل فتيل الأزمة. وتسارعت الأحداث وتسلح الملك ضد البرلمان وأنشأ جيشًا خاصًا به، ومن ثم بدأت حقبةٌ جديدة مليئةٌ بالتطورات وانتهت بانقلاب الجيش الثوري على الملك وإلقاء القبض عليه واتهامه بالخيانة العظمى إلى أن تم تنفيذ حكم الإعدام عليه في الثلاثين من يناير عام 1649.

وتراجعت الأمور خطوةً إلى الوراء بعد مرور أحد عشر عامًا، كما شرحنا آنفًا؛ حيث ساد انقلابٌ رجعي عام 1660، وجاء ملكٌ مرةً أخرى وتشكّل مجلس اللوردات البريطاني، إلا أن العالم كان قد تغير. ليس لأن الملك قد فرض سلطته على البرلمان ولكن لأن السياسة لم تعد تلك الفزاعة الخفية، بل شأنٌ عام. وفي خضم الصراع على السلطة بين الملكية والنبلاء والطبقة الوسطى، أي البرجوازية، نشأت قواعدُ قانونيةٌ جديدة للعبة أصبح للبرلمان

1- المرجع السابق ص 59.

فيها دورٌ أساسي. وهذا ما أقرته وثيقة حقوق عام 1689، كما نصت على أن سلطة الملك تابعةٌ للسلطات المخولة للبرلمان. إلا أن إنجلترا لم تكن قد تنعمت بعد بأي حالٍ من الأحوال بالمعنى الحقيقي للديمقراطية بمفهومها المعاصر. وتوصل مؤرخ الدستور "هانز فينسكه" Hans Fenske إلى أن إنجلترا ظلت حتى عام 1910 دولةً عليها بصمة النبلاء[1]. وكان حق الانتخاب مكفولًا لنسبة 15.9 بالمائة فقط من إجمالي عدد السكان. واختلف الأمر في عام 1911 بظهور قانون البرلمان إلا أنه رغم هذا القانون، بقي حق الانتخاب غير مكفولٍ لجميع مواطني الدولة. إذ لم تحظَ النساء بالأحقية في الانتخاب سوى بدءًا من عام 1928.

ما تأثير الثورة البريطانية إذًا؟ لم تعقبها حالةٌ راهنة أو وضعٌ ما بل عمليةٌ من الأحداث والأفعال.

اختلفت الثورة الأمريكية اختلافًا جوهريًا عن الثورة البريطانية. إذ كانت بالتأكيد توثيقًا لتطورٍ ظهر وتشكّل حتى استقلال أمريكا وكان مؤشرًا لنشأة مجتمعٍ شاملٍ مليء بالفرص الجديدة (لذوي البشرة البيضاء). وكانت دولة الدستور التي أسفرت عنها الثورة أحد أهم نتائج الثورة الأمريكية، وذلك لأن الثورة وضعت للسلطة السياسية تعريفًا جديدًا: أولًا، تكتسب تلك السلطة شرعيتها من أسفل وليس من أعلى. ثانيًا، إنها ترتبط بالقوانين التي تستند إلى معيار حقوق الإنسان العامة. ثالثًا، تقسيم السلطة على المؤسسات التي تراقب

1- المرجع السابق ص 252.

بعضها بعضًا. كما حمل الدستور الأمريكي عام 1787 ملامح الثقافة الأمريكية المميزة لها دون غيرها، وبذلك أصبحت الحكومة الأمريكية من أوائل الحكومات التي حققت هذا الأمر، فقد سمحت الثورة بتطورٍ تاريخي فريدٍ من نوعه كان يشتمل على الديمقراطية الرأسمالية بكل مميزاتها وعيوبها.

امتدت الثورة الأمريكية المقاومة للاستعمار وأشرقت شمسها على البلاد؛ حيث بدأت الثورة تخطو خطواتها الأولى اقتداءً بفرنسا. وجدير بالذكر أن المفكريين والثوريين الفرنسين والأمريكيين كانوا يعرفون بعضهم بعضًا جيدًا، إذ كانوا يلتقون في مقهى "بروكوب" Procope، ذلك المقهى الفرنسى الكائن في الميدان السادس، ولا يزال هذا المقهى قائمًا في الميدان ذاته حتى الآن. كان هذا هو المكان المفضل لـ"بينيامين فرانكلين"Benjamin Franklin كي يتناول فيه الطعام، وفيه وضع أيضًا مسودة الدستور الأمريكي. كما عاد إليه "توماس جيفرستون" Thomas Jefferson، خليفة "فرانكلين" وسفيره في فرنسا، والتقى هناك صديقه القائد الثوري "لا فايت" La Fayette ، الذي عُرف بمشاركته في ثورة استقلال أمريكا. كما شهد هذا المقهى والمطعم ميلاد قانون الحريات حيث عكفا فيه معًا أثناء الثورة الفرنسية عام 1789 ليضعاه. واليوم بات هذا المقهى مليئًا بالكثير من الرموز والشواهد على زمن الثورة، وكانت دورات المياه فيه تميز بين الجنسين بوضع لافتاتٍ مكتوبٌ عليها "للمواطنين" و"للمواطنات".

كان ما أسفرت عنه الثورة الأمريكية من وضع الدستور السياسي أمرًا هيِّنًا مقارنةً بالثورة الفرنسية. فقد استغرق الأمر حوالى 100 عام منذ عام 1789 حتى ترسخت ديمقراطيةٌ مستقرة في فرنسا. كما جاء الإقرار بحق النساء في التصويت بدءًا من عام 1945. وفيما يخص ألمانيا فقد استغرق الأمر حوالى 70 عامًا من ثورة مارس عام 1848 وحتى ظهور بوادر الديمقراطية الأولى، واستمرت جمهورية "فايمر" حوالى عقدٍ ونصف حتى ألقى الألمان أنفسهم في أحضان النازية. ومن ثم بدأت هيكلة الدولة الديمقراطية في ألمانيا الغربية بوصفها ثورة الطبقة العليا، واستنفد هذا الأمر طاقةً كبيرة من النزاع والصراع حتى أصبح الدستور حقيقة. إذ استغرق الأمر حوالى 141 عامًا منذ عام 1848 وحتى مطلع عام 1989 حتى تحقق هدف الثوار؛ ألا وهو الديمقراطية.

الأمر الذي يجعلنا ندرك مدى الغطرسة التي يُمكن أن نُتهم بها حين نلوم العرب بأن ثورتهم التي قاموا بها عام 2011 قد باءت بالفشل.

وماذا عن عواقب الثورات المقاومة للاستعمار في أمريكا اللاتينية؟ الأمر مختلط. فقد بات الواقع في كثير من البلاد أكثر مرارة. والشيء المشترك في ثورات أمريكا اللاتينية أنها أودت بشعوبها إلى طريق لا يتحكم فيه الاستعمار.

لطالما كانت مهمة أية ثورة هي تغيير مجرى التاريخ. وهذا ما حدث في الثورة الإيرانية عام 1979. إلا أن نتائجها جاءت مختلفةً ومميزة، ألا وهي دولة دينية ذات قاعدة شعبية تحاول الموازنة بين الامتيازات والإصلاح

الاجتماعي وقمع المقاومة العلمانية من الطبقات الوسطى بوحشية شديدة. كان هناك تطورٌ جديد من نوعه؛ حدث نوع من الاتفاق بين إيران والولايات المتحدة، وشنَّت الدولتان تلك الحرب المخيفة ضد العراق في فترة حكم "صدام حسين". تنافست إيران كذلك مع المملكة العربية السعودية لترسيخ دولة دينية مختلفة عنها؛ ذلك الهدف الذى حاد بها عن طريق الصواب بدعم قوى الإرهاب المعادية لإسرائيل وحتى تم التعاون المسلح مع الديكتاتور "بشار الأسد". فقد ساندت الجمهورية الثورية في إيران الثورة المضادة في سوريا، وهذه هي سخرية القدر.

يُحتمل أن يكون عام 1979 البداية فحسب. حيث التقيت أثناء وجودي في إيران شبابًا وخاصةً من النساء اللاتي يسعين بإصرارٍ غريب كي تنفتح البلاد بل وتتحرر وتصبح أكثر ديمقراطية. فهُنَّ لا يُرِدن العودة إلى ديكتاتورية شاه إيران، كما يرغبن في الوقت نفسه البُعد عن عالم المُلَّا. لم تُسطر بعد نهاية قصة الثورة الإيرانية.

وهل هناك تحرك إلى الأمام؟

بالنظر إلى ما تم رصده، يمكننا أن نستنتج أن مقولة "كارل ماركس" "قاطرة التاريخ"[1]، التي تم تداولها كثيراً، لا تتلاءم مع الثورات. فالقاطرات هي تلك العربات التي تسحب القطارات إلى الأمام. وإذا أردنا أن نتشبث بهذا التشبيه فلا بد أن نقوم إذًا بتحديد مسار قطار الثورات ونقاط الانحناء من ثم الخروج عن القضبان، بل يُفضل أن نترك تلك الصورة الاستعارية من الأصل، فماذا يعنى التحرك إلى الأمام؟

يرجع تشبيه "ماركس" إلى زمنٍ كان يعتقد الجميع فيه أن التاريخ يسير إلى الأمام نحو هدف ما. يحضرنا هنا استنتاج الفيلسوف الرائع "فالتر بينيامين"، الذى نصَّ على أنه هناك بالفعل مشكلةٌ ما وأن الثورات ما هي إلا مكابح أمان[2]. استند هذا التصور إلى مفهوم إيجابي لأفكار نظرية التطور والكمال التي كتبها "داروين"، أحد أهم أقران "ماركس" الذي قرأ الفيلسوف الألماني "فالتر بينيامين" أعماله قراءةً جيدة. وبأي حال من الأحوال فالإنسان أكثر ذكاءً، فهو يعرف جيدًا أنه لا يمكن أن يسير كلٌ من تاريخ الطبيعة وتاريخ البشرية معًا في نهج منظمٍ من أسفل لأعلى أو كما يريد أن يطلق عليه الإنسان معيار التطور. والجدير بالذكر أن عملية

1- Karl Marx, (الصراع الطبقي فى فرنسا) Die Klassenkämpfe in Frankreich 1848 – 1850; in: MEW, Bd .7, S . 85.

2- Walter Benjamin, (عن ماهية مصطلح التاريخ) Über den Begriff der Geschichte; in: Ders ., Allegorien kultureller Erfahrung . Ausgewählte Schriften 1920 – 1940; Re clamjun ., Leipzig 1984, S . 168.

الاختيار لها تأثيرٌ واضح. فالطبيعة تجرب وتقدم مزيجًا جديدًا من الكائنات الحية، بعضها يظل على قيد الحياة والبعض لا. فمعيار الاختيار إذًا هو التكيف مع البيئة التي تتغير دائمًا. فهناك الكثير من التجارب التي أُجريت على مدار تاريخ البشرية، ولا سيما أن معيار بقاء السلالات المتطورة على قيد الحياة هو في حد ذاته وفقًا لتاريخ البشرية مواءمةٌ للمتغيرات، ولكن هناك شيئًا ما. فدائمًا ما يود الإنسان أن يحلق بعيدًا حيث يريد، كما يودُّ أن يحظى بمساحةٍ من الكرامة والحرية والمساواة. هذا الشغف نتج، كما ذكرنا، عن حقيقة مفادها أن البشر يعيشون في مجتمعات. ومن هذا المنطلق فكل تطورٍ للمجتمعات والسياسة هو عرضٌ لا بد من اقتناصه. وأفضل مثالٍ على ذلك العرض هو تلك الثورات ممتدة الأثر الأشبه بالعدوى.

ولأن الكرامة والحرية والمساواة بأي حالٍ من الأحوال معاييرُ دائمةٌ وثابتة، فلا بد إذًا أن نراهن بحذرٍ على أن نتائج عملية التغيير التي لا يمكن التنبؤ بها، سواء كانت ثورية أم لا، يمكنها أن تتوافق مع تلك المعايير الراسخة على المدى البعيد بشكلٍ أفضل بكثير من مواءمتها للواقع الحالي.

ربما لا يكون هذا التفاؤل التاريخي قويًا ولكنه تفاؤلٌ ضعيف على أية حال. فهو لا يمكن قياسه بالدخول في جنة الأرض المعمورة ببشرٍ جدد، وإنما عن طريق تحسين ظروف المعيشة.

لو كان هذا التفاؤل ممزوجًا بالأمل لتحققت تلك التعديلات دون قتلٍ وسفك دماء، أي بإصلاحات سلمية أو عن طريق ثوراتٍ سلمية بلا عنف. كلاهما يندرج ضمن التعديلات. ففي رقصة التطابق في الباليهPas de deux يقرر كلا الراقصين خطوات الرقص الأولى ومن ثم يتولى أحدهما قيادة الرقصة إلى أن يصلا إلى لحظة يسيطر بها أحدهما على الآخر. يتحكم الأقوياء في مقاليد الأمور ليقرروا ما إذا كانوا يرغبون في خوض مخاطرة القيام بثورة. وقد أصاب عالم الاقتصاد الذي كان من أوائل الأناركيين "بيير جوزيف برودون" Pierre Joseph Proudhon (1809 – 1865) قلب الحقيقة حين كتب: "عندما تتعرض القوى الثورية للضغوط، يكونون قد حكموا على أنفسهم بأن يعبروا غرفةً كاملة بقفزةٍ واحدة سريعة ولا بد أن يتوخوا الحذر في قياسها عندما يعبرونها، لأنهم يستبدلون على هذا النحو التطور المستمر بتطورٍ متقطع مضطرب مفاجئ"[1].

وبعبارة أخرى: تُعد الثورات أحيانًا شرًا لا بد منه. فالشعوب الأكثر حظًا هى التي لا تشعر بضرورة أن ننتفض.

ويعني تجنب الثورات باتباع سياسة إصلاح ذكية تعم البلاد عدم ضرورة القيام بها أصلًا. فهذه ليست أسوأ سياسة. إلا أنه للأسف تختلف حسابات

1- Pierre-Joseph Proudhon, Idée générale de la Révolution au dix-neuvième siècle; in: Ders ., Œuvres; La Bibliothèque Digitale, Kindle edition (o . Jg .), Pos . 19357 f.

الحكام عندما يكون لديهم قصورٌ في فهم السياسة وإدارة البلاد أو عندما لا يتبقى لهم الكثير من العمر أي في الحكم. فيكون من الذكاء على المدى البعيد الرضوخ لمن يقوم بالتغيير، إلا أن هذا ليس بالضرورة هو الحل على المدى القصير. فهو ليس بالأمر الحميد أن تُولِّد الجرائم التي يقوم بها الحكام أنفسهم إحساسًا لديهم بالانتقام. وربما يكون هذا هو السبب في عناد الديكتاتوريين المتشبثين بالسلطة بدءًا من "نيكولاي تشاوتشيسكو" وحتى "القذافي".

إلا أن العقبات التي وضعها الديكتاتوريون في طريق رغبات التغيير قد تصبح في وقتٍ ما هزيلةً وهشة. تلك هي اللحظة التي يفقد فيها النظام استقراره ويبدأ تاريخ البلاد بالتغيير. فلم يُذكَر في التاريخ أن يعود الحنين إلى فترات الاستقرار التي سادت في أنظمة على سبيل المثال "بن علي" أو "صدام حسين" أو "القذافي" وذلك بسبب الفوضى والحرب الأهلية الناجمة عن الثورات. فقد كانت ممارساتهم الديكتاتورية هي التي صنعت هذا الحراك الذي أنهى حكمهم الديكتاتوري. وللسبب نفسه لا تعد تلك هي سياسة الواقع، بل هى نقيضها، حين تُعامل أنظمة مثل النظام الملكي السعودي أو المغربي على أنها ضمان الاستقرار في المنطقة.

حركات الإصلاح أكثر إنسانيةً من الثورات، إلا أن الطغيان أمرٌ لا إنساني على الإطلاق. وسرعان ما يصبح هشًا بمرور الوقت. وحتى إذا وضعت الأنظمة الظالمة الكثير من المتاريس، سيأتي وقتٌ تتعرض فيه تلك القلاع

التي يسكنونها للاجتياح. وحتى عندما تُخيب الثورة آمال ثُوَّارها، خاصةً عندما تفشل تمامًا، يظل هناك دائمًا أمرٌ ما باقٍ منها.

وفي هذا الصدد، أكدت الناشطة التونسية "ألفة رياحي" في منشور لها على صفحات التواصل الاجتماعي بتاريخ 14 يناير 2016 قائلة:

"لقد مرت خمسة أعوام بالفعل. فأنا ما زلت أتذكر الغضب والحنق الممزوجين بخوف لا مثيل له من أجل البقاء على قيد الحياة؛ خوف يعتري القلب ويزيد نبضاته بقوة حتى أن صدى كل نبضة يُسمع مدويًا في الآذان، أصوات الصراخ المتقطعة، الأعين الممتلئة بالدموع...

وأتذكر الاستقلال، الأمل، القوة، وهذا الإيمان العميق بأن الأوضاع لن تظل كما كانت عليه من قبل...

كان يوم الرابع عشر من يناير 2011 اللحظة الفارقة للتحول والتغيير. علامةً بارزة ونقلة نوعية عمَّا قبلها إلى ما بعدها. نقلة لتغيير الحياة.

ومنذ ذلك الوقت، لم نجد سوى الكلل والإحباط وأحيانًا مرارة شديدة وإحساسًا بالفشل قاسٍ للغاية. وظلت تلك الرغبة العارمة في البقاء على قيد الحياة؛ تلك الرغبة التي طفت على السطح مرة أخرى وأخذت تتصارع على البقاء، ولا أعلم من أين ولا متى أتت. فهي مَن يُذكرني أن التغيير لا يتوقف قط وأن هذا ليس وقته. التغيير عملية أزلية، تطور دائم. وعلى الرغم من كل ذلك فأنا ما زلت أؤمن به. وأتمنى لكم في الرابع عشر من يناير 2016 أن تظلوا مؤمنين بالتطور، وأن تتشبثوا بالصبر، وأن تظلوا مرفوعي الرأس متفائلين حتى النهاية".

14

وما زال هناك حِراك..

عن شدَّة الثورات

فلنفترض جدلًا أن هناك شخصًا ما ولد في عام 1769 في فرنسا، مثل "نابليون"، ولنسمه "فرانسوا". وبلغ عامه العشرين في عام الثورة، أي عام 1789 حين انتفض الكثير من النشطاء السابقين. واجه "نابليون" في هذا العام المجيد بالمناسبة - بوصفه ملازمًا في الجيش - ثورة الجياع في "بورجوني".

قفزة زمنية. تخيل أن صديقنا "فرانسوا" هذا، ذلك الثائر، قد شارك في ثورة 1830 - وهو يبلغ من العمر 61 عامًا - برفقة ولده "جون" البالغ من العمر 30 عامًا. ثم تعاطف "فرانسوا" البالغ من العمر حينئذ 89 عامًا مع ثورة عام 1848 قبيل وفاته وقد شاركه أيضًا ولده البالغ من العمر حينئذ 48 عامًا. ثم انضم "جون" ذو 71 عامًا برفقة أخيه الأصغر "هوجو" ذي 51 عامًا إلى "بلدية باريس". ومن المفترض حينها أن يكون "هوجو" قد عاصر عن بعد ثورة أكتوبر في روسيا. ثم شارك ابنه "بيير" المنتمي إلى الاتجاه الشيوعي، وقد بلغ من العمر 71 عامًا، في المقاومة ضد الألمان وتوفي عام 1950.

وكان من الممكن أيضًا أن يشهد شخصٌ ما الحربين العـالميتين الأولى والثانيـة ويكـون قد شارك أحد أجداده بالفعل في الثورة الفرنسـية ويكـون قـد عـاش في صـغره في عهـد النظام البائد.

إن الجسور المؤدية إلى الماضي قصيرة، تمر عبرها الذكريات وصولًا إلى عصرنـا الحـالي. فلا تنتقل تلك الذكريات في الندوات والمؤسسـات أو في الأدب فحسـب بـل في ذكريـات العائلات، وليس فقط في وعيهم وإدراكهم بل في مشاعرهم. فالرسائل التي تحملها تلـك الذكريات يستقبلها كلٌ على حدة بشكلٍ مختلف. يقول بعضها على سبيل المثال، كانـت أيامًا سيئة، قديمًا. أو لا بد ألا نقبل كل شيء. أو كان هناك أملٌ في عالم أفضل.

دائمًا ما ترسل الثورات رسائل إلى المستقبل، لذا فهي لا تذهب سُـدى عـلى الإطـلاق. وبالرغم من أن الربيع العربي قد فشل تقريبًا في تحقيق أهدافه، فإن هناك جـيلًا كـاملًا قد تأثر به ولن ينسى قط حين توقَّد الأمل في نفوس الملايين مرةً أخرى.

فيفا زاباتا (فليحيا "زاباتا")

تنطلق الثورات من حد المعقول وتسعى إلى أن تتجاوزه. إلا أن ذكريات الثورات دائمًا ما توقظ عند الثوار حد الممكن دون غيره.

هذا هو السبب الذي يجعل التنكر والتخفي في زي الآخرين أمرًا مُحببًا للغاية في ذهن الثوار، حيث ظهر النشطاء أثناء الثورة الفرنسية في زي نواب الشعب الرومانيين أو في زي قتلة القيصر، وظهرت في المكسيك حركة المزارعين المؤيدين للأناركية الشيوعية التي سُميت على اسم الثائر المكسيكي "إيميليانو زاباتا" Emiliano Zapata (1779 - 1919) أو باسم الزباتيين Zapatistas.

ليست الثورة المكسيكية، التي قامت عام 1910، حاضرةً في أذهاننا نحن الأوروبيين، هذا ليس بسبب تعصبنا للمركزية الأوروبية في مرحلة ما بعد الاستعمار بل لأن هدف ثورة المكسيك لم يكن عالميًا وإنما يقتصر فقط على الشئون المكسيكية. إلا أنها تُعد من أكبر الملاحم في القرن الماضي.

أحدثت المكسيك تطوراتٍ اقتصاديةً كبيرة في نهاية القرن التاسع عشر. فقد تم تحديث البنية الأساسية للبلاد في عهد الرئيس "بورفيرو دياز" Porfirio Díaz وتحولت الدولة إلى دولةً مُصدِّرةً للبترول وللمنتجات الزراعية. كانت ميزانية الدولة مستقرةً وكانت المكسيك تتمتع بأفضل شروطٍ للاقتراض في أمريكا اللاتينية. ونشأت طبقةٌ وسطى ساهمت في النهضة الاقتصادية، إلا أن الأوضاع ازدادت سوءًا أثناء النظام الحاكم لـ"بوفيرو دياز" بسبب المحسوبية والزبائنية، لم يقدم ذلك النظام المهترئ من الفساد

أي ضماناتٍ قانونية حكومية لمواطنيه، بل وترك أثرًا سلبيًا على رجال الأعمال من الطبقة المتوسطة (البرجوازية). وتشكلت تدريجيًا معارضةٌ ليبراليةٌ بقيادة أحد كبار ملاك الأراضي المليونيرات، ألا وهو "فرانشيسكو ماديرو" Francisco Madero، الذي ترشح لانتخابات الرئاسة عام 1910 إلا أنه سُجن، بينما تم الإعلان بفوز "دياز" بالانتخابات. وكان هذا هو السبب وراء الدعوة التي وجهها "ماديرو" للشعب بشكلٍ مفاجئ للقيام بثورةٍ مسلحة. وكان من المفترض أن يسفر ذلك عن مفاجأة كبرى.

تكون شعب المكسيك من المزارعين الهنود و"المستيزو" الفلبينيين وكانت الأغلبية من المكسيكيين. وقد استولى الحكم الديكتاتوري بالقوة على أراضي المزارعين المستقلين. فأصبحوا يزرعون الآن السكر والقهوة والصبار في حقولٍ كبيرة، تلك الحقول التي كان يُجمع بها محصول الذرة من قبل. قلت المواد الغذائية وارتفعت أسعارها وكانت الأزمة الاقتصادية أمرًا ضاغطًا، وكذلك كان الحال في شروط العمل. ولاحظ التالي؛ لبى ذلك الشعب الأمي دعوة "ماديروس"، ذلك المعارض فاحش الثراء.

في الجنوب التف الثوار حول زعيم الفلاحين "إيميليانو زاباتا" Emiliano Zapata، وفي الشمال انضم الثوار إلى "بانشو فيلا"Pancho Villa ، الملُقب بـ"روبن هود" المكسيك قائد ثورة اللصوص وقطاع الطرق. ثم لاحقت قوى الانتفاضة الشعبية قوات الجيش مراتٍ عدة حتى قضت عليهم عن بكرة أبيهم وهرب الديكتاتور. وفاز "ماديرو" Madero في

انتخابات الرئاسة التي تعد أكثر الانتخابات نزاهةً شهدتها البلاد قط. وعلى إثر هذا الأمر، اجتمع كلٌ من ملاك الأراضي والشركات وقوات الجيش وأقاموا ثورةً مضادة ضد "ماديرو"، الذي لم يكن له حولٌ ولا قوة، حيث أهمل إصلاح الدولة بدلًا من كسب ثقة العمال. وبالتالي سقط نظامه في مطلع عام 1913 وقتله الجيش. إلا أن الثورة لم تنتهِ بعد، فانتفض الشعب وانتصر على قوات الحكومة في عام 1914.

نشب النزاع والخلاف بين قادة وزعماء الثورة كالعادة دائمًا، وتلت ذلك مرحلةٌ من الصراع الدموي بين القوى السياسية وكثُرت المذابح التي لم ينتصر بها لا "زاباتا" زعيم الثوار الفلاحين، ولا "فيلا"، بل "فينوستيانو كارانزا" Venustiano Carranza، أحد أهم كبار ملاك الأراضي الذي دعمته الولايات المتحدة بشدة، فقد كان متحفظًا وعرف كيف يمنع الإصلاحات الجذرية، وهنا انتهت الثورة.

هل فشلت الثورة؟ لخص المؤرخ البريطاني "آلان نايت"Alan Knight، المتخصص في الثورة المكسيكية، نتائج الثورة كالتالي: "كما هو الحال في الحرب الأهلية الإنجليزية، فقد انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب في العالم بأكمله، وتمت ملاحقة طبقة النبلاء كبار السن وسيطر على المشهد قادةٌ جدد من عوام الشعب، وتفشت أفكارٌ جديدة راديكالية في أجواء غابت عنها الحرية تمامًا. وكما هو الحال في الحرب الأهلية البريطانية فلقد أقصت تلك المرحلة الثورة المضادة ونشأت في أعقاب تلك المرحلة قوى جديدة، إلا أن

الأوضاع لم تعد كسابق عهدها، وكـان مـن المفـترض أن تنتهـي الحركـة الشـعبية وتفقـد تأثيرها - كما كان الحال في إنجلترا - إلا أن هزيمتها في بريطانيا كان لهـا بـالغ الأثـر عـلى المجمتع المكسيكي ونتج عنها تطورٌ جذري، فلم تعـد تلـك الأوضـاع مضـطربةً كالسـابق وخاصةً بعد أن استقرت الأوضاع في العالم أجمع"[1].

ألا يذكرنا ذلك على الأقل بالثورة الفرنسية بشكل عام؟

قُتل كل من "بانشو فيلا" و"إميليانو زاباتـا"، إلا أن الشـعب المكسـيكي مـا زال يُكِـنُّ لـ"فيلا" تقديرًا شديدًا. وتم عرض قصة "زاباتا" في فيلم قام بتمثيله "مارلين براندو" عـام 1952 بعنوان "يحيا زاباتا"، وانتهى الفيلم أيضًا بمقتله وبحوار بين المزارعين الفقراء، جاء كالتالي:

- لن يستطيعوا أبدًا النيل منه.

- لن يتمكنوا أبدًا من إلقاء القبض عليه.

- هل يستطيع أحدهم أن يقتل نهرًا جاريًا أو يواجه رياحًا قادمة؟

- ولكنه ليس نهرًا ولا رياحًا، إنه بشر! ولهذا يمكنهم قتله بالطبع.

- وأين هو الآن؟

- إنه هناك بالأعلى في الجبال. لن نسـتطيع مـن الآن فصـاعدًا إيجـاده، ولكنـه حـتمًا سيعود مرةً أخرى إذا كان هناك مَن يحتاج إليه.

1- Alan Knight, The Mexican Revolution; in: History Today, Bd. 30, Ausg. v. 5. 5. 1980; http://www .historytoday .com/alan-knight/mexican-revolution.

- نعم، سيعود مرةً أخرى!

هو بالأعلى في الجبال، سيعود ثانيةً. تلك أيضًا رسالة الثورات إلى الحكام حين كانت انتفاضة الشعب تتعرض للقمع. لقد كتبت "روزا لوكسمبورج" في إحدى مقالاتها، قبل أن تقتلها جنودٌ مشاة، حيث استشهدت بقول "فرايليجراث" Freiligrath: "نظامكم بُني على الرمال. ستعود الثورة غدًا من جديد وتتجه نحو القمة وستفضح مساوئ حكمكم على الملأ. أنا كنت، وأكون وسأكون"[1].

فالثورات هي تلك اللحظة الأكثر سموًا في التاريخ. ذلك الحيز الفوضوي بين الواقع واليوتوبيا أو المأمول. هي ذلك البعد الذاتي في المبدأ القائل بأن الأوضاع قد تتغير فجأةً ودون مقدمات. ما زالت المؤسسات الاجتماعية تُصر على أن العالم لا بد وأن يتغير، تلك الفكرة التي ترجع إلى "بيير جوزيف بودون" Pierre Joseph Proudhon. الذي قال أيضًا بأن تصعيدات ذلك التناقض تظهر جليةً في رد الفعل المعاكس ومن ثم في قيام الثورة. وحالَ فن الوصول إلى حلٍ وسط دون أن يتفاقم الوضع نتيجة لتلك الأوضاع المعكوسة[2]. وعلى حد قول "إيميل ليتريه" Émile Littré رفيق "كارل ماركس" الفرنسي المنتمي لاتجاه الوضعية (1801 - 1881): "لكي نتجنب تلك الانفجارات، لا بد ألا يظل حزب النظام رجعيًا وألاَّ يظل حزب التطور

1- Rosa Luxemburg, Die Ordnung herrscht in Berlin; in: Dies ., Politische Schriften, Bd . 2; Europäische Verlagsanstalt, Frankfurt/M 1975, S . 209.

2- Proudhon, a. a. O., Pos. 19354 f

ثوريًا"[1]. أصبح الوضع هكذا في كثيرٍ من الدول. يمكننا أن نقول بوضوح لا يوجد حزبٌ ثوري، فالحزب الديمقراطي المسيحي CDU في ألمانيا على سبيل المثال ليس حزبًا ثوريًا وليس له ردود أفعال. وهذا ما أدى إلى ظهور "حزب البديل من أجل ألمانيا" AfD.

تعريف إجرائي لمصطلح الثورة

يمكننا أن نضفي على مصطلح الثورة صِبغةً أخرى. فهي حدثٌ إجرائي، ولهذا أود أن أقول ما يلي: لا تقوم الثورات على حقيقة التغيير الاجتماعي وحدها وإنما على مسار هذا التغيير.

أعرف على سبيل المثال أشخاصًا في الحزب اليساري Die Linke يُنظر لهم على أنهم ثوار، لأنهم يسعون إلى علاقاتٍ ملكية مختلفة. وهذه محاولةٌ بديهية لتحسين صورة الذات، إلا أنهم في الحقيقة يتنكرون في الظهور دائمًا بملابسَ متطرفةٍ الأناقة، وكانوا يتمسكون بشدة أيضًا - أيًّا كانت الظروف - بحق الدولة في احتكار القوة وحقهم في الانتخابات وفي التصويت وفي التمسك بدولة القانون وبالتعددية الفكرية. وهذا أمرٌ متعقلٌ ومرغوبٌ فيه ولكنه أيضًا مثار لومٍ من اليساريين المتطرفين. لا، فإذا اعتبرنا نظام التملك الجديد ثورةً في حد ذاته، فيجب علينا حينئذٍ أن نبحث في هذا الأمر، ألا وهو

1- Émile Littré, Conservation, révolution et positivisme; Librairie philosophique de Ladrange, Paris 1852, S. 27.

إذا ما كـان انتشـار مصـادر التمويـل الإلكترونيـة ونظـام "أوبـر" وموقـع تـأجير السـكن Airbnb ووسيلة التواصل الاجتماعي "فيسبوك" تمثل ثورةً حقيقة وليست فقط بالمعنى المجازي. وبالتالي فإن تعريف مصطلح الثورة أصبح بلا شك واسعًا وشاملًا حتى أنه ربمـا يكون ليس مصطلحًا متماسكًا.

فالثورات كما تم تعريفها في هذا الكتاب أحداثٌ مكلفةٌ ومليئةٌ بالضحايا وبالأحداث الدرامية الكثيرة التي يشارك بها حشدٌ هائل من أبناء الشعب الذين يطمحون إلى إنهـاء الأوضاع المهينـة لكـرامتهم. والنتيجـة دائمًـا هـي طريـق مـن النضـال والكفـاح يسـلكه المجتمع ولكن بقواعد جديـدة متغـيرة جـذريًا وعـن طريـق طبقـةٍ حاكمـة مسـتحدثة. وبـالنظر إلى تعريـف "كـرين برينتـون" Crane Brinton فـالثورة هـي تحريـرٌ فجـائي لعمليات تحديث[1]. وحين تنتصر الثورات، تـتم الإطاحـة بالنظـام القـديم الـذي قامـت ضده وتستمر الأمور وتتواصل ما بين أفعالٍ جديدة وأخرى غير جديدة.

وهذا أمل وتهديد في الوقت ذاته. أو تحذير لرجال السياسة بألا يقللوا مـن شأن الطاقة التي تتخزن لدى الشعوب إذا مـا اسـتمر الظلـم والتخلـف. وكـما قال "برودهون" Proudhon: "دافع الثورات ليس سوء الأوضاع وإنما استمرار سـوء الأوضـاع"[2]. ويتفـاقم الوضـع عنـدما يـرى المـتضررون أن العـالم يتغـير

1- Brinton, a. a. O., S. 239.

2- Proudhon, a. a. O., Pos. 1983.

على حسابهم وأنهم يواجهون مستقبلًا ومصيرًا أسوأ، بينما يمر الآخرون المميزون بعصورٍ وأوقاتٍ مليئة بالسعادة.

تُحدِث العولمة بسرعتها الرقمية بلبلةً شديدة في العمل والحياة والتفكير. إذ فُقِد الأمن والأمان، وهذا ما سبب ضغطًا كبيرًا على هؤلاء الذين ساءت أوضاعهم الاجتماعية، فلم يعد هؤلاء يراقبون المشهد وهم عُزَّل من الأسلحة، بل شاركوا في الأحداث وفي عاصفة المعلومات تلك ليسوا فقط كمستقبلين بل أيضًا كمرسلين. حيث حدد المشاركون في ثورات الربيع العربي وقت قيام تلك الثورات عن طريق وسيلة قوةٍ جديدة ألا وهي أجهزة المحمول الذكية. ما الذي رفعته عشرات الآلاف من الأيدي يوم 14 يناير 2011 في تونس؟

هل رفعت تلك الأيدي حجارة؟ أم أسئلة؟ لا، بل رفع المشاركون أيديهم فحسب. كان المواطنون يلتقطون صورًا لرجال الشرطة. وكان أمرًا لا يُصدق، لا سيما أن الأوضاع حتى ذلك الوقت كانت مضطربةً للغاية.

فالأزمات السياسية لا يمكن التعتيم عليها هذه الأيام خاصةً إذا كان من شأنها أن تؤدي إلى حروبٍ أهلية وتحولاتٍ جذرية في دول. فهناك الآن حوالي 65 مليون شخصٍ يسلكون طرق الهروب، لكنهم مزودون بوسائل التواصل الرقمية في أغلب الأحوال. وهؤلاء يعرفون جيدًا ومعهم مليارات من البشر أين يمكنهم أن يعيشوا في رخاء وأين لا يمكنهم ذلك، كما يدركون ذلك التناقض بين الإمكانية والواقع بشكلٍ أفضل كثيرًا من كل الأجيال الأخرى التي سبقتهم.

وفي عام 1994، أشار "إريك هوبسباوم" Eric Hobsbawm، أحد أهم الشهود على القرن العشرين، إلى ظاهرةٍ ذات وجهين انتشرت في العِقد الأخير، ألا وهي أن أيديولوجيات الثورة الاجتماعية فقدت تأثيرها بشدة وكان آخرها الماركسية، إلا أن الحشود عادت مرةً أخرى إلى المشهد لتلعب أدوارًا رئيسة وليس فقط في أدوار جانبية بوصفهم مؤيدين للانقلاب الجماهيرى أو حركة حرب العصابات[1]. وهو ما بدأ في إيران عام 1979 واستمر بعد ذلك بعشر سنوات بانهيار الاشتراكية، ويدرج "هوبسباوم" الانتفاضة الفلسطينية في هذا السياق.

اليوم، وبعد مرور 20 عامًا على ذلك الرأي، يمكننا أن نؤكد هذا؛ كان "هوبسباوم" مُحقًّا، فقد استمر هذا الاتجاه العام. فذلك التناقض الكبير واضحٌ وضوح الشمس. وأغلب البؤساء ممن عانوا ويلات الحروب يعرفون جيدًا ما الإمكانات المتوافرة في العالم. فكما ورد في مسرحية الصراع الطبقي الشهيرة "الأم شجاعة" Mutter Courage لـ"برتولد بريشت": "مَن الذي يستطيع أن يوقف مَن أدرك وضعه؟". فقد اندثرت المادية التاريخية التي تناولتها المسرحية لكن هذه الفكرة لم تمت بعد. وهذا التناقض الكبير هو ما يدفع الشعب للتحرك. وأوضح أمثلةٍ على ذلك هي ثورات الربيع العربي والثورة الملونة في شرق أوروبا وآسيا.

تتباين ردود الأفعال الفردية لدى كل شخص على هذا التناقض الكبير، وفقًا لوضعه الاجتماعي وحماسه. أحد أهم حلول هذا التناقض يتمثل في

1- Hobsbawm, a. a. O., S. 456 f.

التمرد الذي سُمي بالجهادية بعد ذلك. كنت أعرف شابًا تونسيًا انضم للمجاهدين في سوريا ولقي حتفه هناك. وكان على درايةٍ واسعةٍ ويتقن العديد من اللغات إلا أنه صَعُبَ عليه إيجاد تفسيرٍ لما يحدث في العالم، أي تفسيرٍ للظلم والنفاق وعدم جدوى الحراك السياسي. ولا سيما أن هؤلاء التونسيين، الذين فعلوا الكثير للثورة وكانوا من الطبقة المعدمة من المدينة والقرى، لم يستفيدوا من حرية الرأى التي اكتسبوها، فما زالوا يعيشون دون أية رؤيةٍ واضحةٍ لبلد أفضل وأجمل. وقد تحدثنا كثيرًا عن هذا الأمر ولقد عايشتُ معه كيف أنه فقد عقله تدريجيًا وأصبح يقتنع بأن الخلافة التي ينبغي تأسيسها في سوريا والعراق ستكون الحل لتلك التناقضات عن طريق القتال الدموي. وقد كنت أتمنى أن أقنعه بفكرة أفضل.

وأعرف أيضًا آخرين ممن فروا إلى أوروبا قبل الجهادية في سوريا وقبل حكم الأسد الديكتاتوري. وهم يندرجون بين 65 مليون لاجئٍ. ينبغي التعامل معهم كأشخاصٍ فاعلين أكثر من كونهم مجرد عنصر يتدخل في التاريخ. هم ليسوا مجرد مستوردي مشاكل أو معتمدين على المساعدات بل هم عنصرٌ تاريخي. وسنرى إلى أي مدى سيسهم ذلك في تغيير العالم. فلا يمكن إيقافهم وردعهم، لا بالأسلاك الشائكة ولا بالمساعدات التنموية. وصحيح أن مجابهة أسباب اللجوء هي الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية، إلا أن السياسة مساعيها طويلةٌ والحياة قصيرة.

المسيرة الكبرى من بودابست

بدأت مسيرةٌ من ألفين لثلاثة آلاف لاجئٍ في التحرك يوم 4 سبتمبر عام 2015 في محطة القطار الشرقية بمدينة بودابست تتحرك نحو فيينا. وابتاع كثيرٌ منهم تذاكر قطارات، ولكن لم ينطلق أي قطار نحو شرق أوروبا. ولهذا استقروا في بودابست، وفقد الكثير منهم الأمل، لا سيما أن الإرهاق قد أعياهم، إلا أنهم أجبروا أنفسهم على الاستمرار ومواصلة السير بضعة كيلومترات. وكان من بينهم أطفال وحوامل وعجائز ومرضى وأصحاب إعاقة.

لقد تحدثتُ إلى منظمي هذه المسيرة والمشاركين فيها، تلك التي أطلقوا عليها فيما بعد اسم "مسيرة الأمل" march of hope. وفاجأتني حقيقةٌ مفادها أن ذلك الحدث يحمل ملامح مثل التي نعهدها في ثورة.

لفت نظري كثيرون من قادة الكلمة بين المُخيمين في الطابق السفلي في محطة القطار. وكان هناك شخصٌ من المجر أراد ألا يُذكر اسمه ولهذا أطلقت عليه اسم "زاندور" Szandor، قادته الصدفة وسط الحشود وتأثر بمصائر الآخرين ممن تقطعت بهم السبل، لفت نظره شابٌ آخر وترك أثرًا قويًا في نفسه لذا حرص "زاندور" أن يوفر له مكبرًا ضخمًا للصوت، وكانت تلك وسيلة كي يرسل ذلك الشاب السوري رسالته: "ما زالت لدينا فرصة، فنحن نُشكل قوةً معًا، إذ وصلنا إلى حدود النمسا ومن ثم إلى فيينا فلن يستطيع أحد إيقافنا". وانطلق حديثه هذا من أسفل أحد الأعمدة أي من موضع مرتفع. علَّق

"زاندور" قائلًا: "كان عليَّ حينئذٍ أن أتذكر سريعًا تلك المشاهد من ثورتنا ثورة المجر عام 1848 وثورة 1956".

استطاع ذلك السوري أخيراً أن يحرك العزيمة في نفوس رفاقه في المصير، ومن ثم حزموا خيمهم وصعدوا سريعًا على الدرج متجهين نحو ميدان محطة القطار. حيث قاد أحد الجنود السابقين في الجيش السوري الجموع في طابورٍ للسير. وهكذا أصبح للمسيرة قائدان، قائد معنوي وقائد عسكري. وظلا يتصارعان لفترةٍ وجيزة حول مَن سيتخذ القرارات، إلا أنهما ظلا يتبادلان الأدوار.

ما إن عبر اللاجئون ميدان "إليزابيث الأبيض" المار فوق نهر "الدانوب" حتى تفشى الحماس بينهم. فخلفوا اليأس وراءهم ليشكلوا حولهم بانوراما من أروع ما يكون للعالم ويتراءى أمامهم منظرٌ لحياة سلمية، الإحساس نفسه الذي يغذي نار الثورات. انطلاقةٌ نحو إمكانات جديدة.

بزغ ضوء النهار. لن ينسى هذا الحدث كل مَن عايشه. توجه قائدا المسيرة بكل ذكاءٍ إلى وسائل الإعلام الدولية. فهما يعرفان أنه حينما يرى العالم تلك المسيرات سوف تتم حمايتها من أية محاولة تقوم بها الدولة لإيقافها بالقوة. لذا اقتحم الجميع الطريق السريع MI حتى يمكن رؤيتهم بوضوح. وأحضر كثيرٌ ممن أرادوا تقديم المساعدة من الدول والقرى المحيطة ماءً وطعامًا وأغطيةً وعربات أطفال. وأطلق العديد من الأشخاص دعواتٍ على صفحات "الفيسبوك" للتبرع بأشياءَ ضروريةٍ على سبيل المثال دهان لآلام المفاصل.

وحلت لحظة فارقة بعد ساعتين من السير، فقد أقامت قوات الشرطة حواجز على الطريق السريع لإيقاف تلك المسيرة، ومن ثم جمعا قائدا شتات المسيرة التي كانت قد تفرقت عن بعضها وأعادا تماسكها مرةً أخرى. ثم انطلق الجميع مسرعين مُسلحين بشجاعة اليأس نحو رجال الشرطة. فاستخدمت قوات الشرطة وسائل عنفٍ لإيقاف الحشود المتدافعة، إلا أن القوات بدأت تتراجع إلى الخلف تدريجيًا ثم تنحت جانبًا.

واصل اللاجئون السير في صفوفٍ حتى حلَّ الظلام. وزاد الشك واليأس من النجاة من إرهاقهم وإعيائهم الشديدين. ثم عرفوا أن الحكومة المجرية قد أرسلت حافلاتٍ لكي تنقل اللاجئين إلى الحدود النمساوية. واستقبلهم الألمان والنمساويون بعد ذلك. تبدلت المشاعر من فقدان الأمل والثقة إلى سعادةٍ وارتياح. وحين وصلت الحافلات، أراد أحد الضباط أن يصدر الأوامر قائلًا: "افتحوا كل الأبواب واصعدوا إلى الحافلات"، فقيل له إنه ليس هناك ضرورة لأن يأمرهم لأنه من البديهي أن ينظموا أنفسهم تلقائيًا بشكلٍ أفضل.

كيف كان الوضع إذًا؟ لدينا أشخاصٌ يعانون الحاجة ويرغبون في الحرية (في محيطٍ مليء بالأثرياء والسياح). كانت هناك جموعٌ من البشر يتحدون ويتشاركون الفكرة نفسها والهدف نفسه، ومنظِّمون لتلك الجموع ومثيرو شغب. رأينا أيضًا نزاعاتٍ بين القادة ومشاعرَ متباينةً وكثيرة. وسائل إعلامٍ مختلفة (مكبرات الصوت عالية، مدونات، "تويتر"، "فيسبوك"، محطات عالمية). تارة تظهر سلطة الدولة رخوةً، وتارة أخرى لا تستطيع أن تعطي

المزيد من الأوامر، وتارةً ثالثةً تقوم فيها الحكومة بفعل لم يرد على ذهن أحد، كأن ترسل حافلاتٍ كبيرةً لنقل اللاجئين. وترى أخيرًا في المشهد التأثير السياسي القوي لتلك الأحداث على العواصم البعيدة وسط عواقب واسعة النطاق.

لا بد أن نعترف أنها لم تكن بأي حالٍ من الأحوال ثورةً بالمعنى المتعارف عليه، ألا وهو أن تنخرط جموع الشعب في السياسة وتحاول أن تغيرها على المدى البعيد. فقد تعرفتُ إلى القائد العسكري للمسيرة، الذي لم يكن بالتأكيد من الثوار. لكننا وجدنا فيه بعضًا مما تم التطرق إليه في هذا الكتاب في خضم هذا الحدث.

عالمية ردود الأفعال الجديدة

صادفنا - نحن سكان الدول الغنية مع قدوم اللاجئين - العولمة، التي تركت أثرًا قويًا جذريًا على مجتمعاتنا، بدءًا من سوق العمل مرورًا بشئون الحكم والتقسيم في مختلف الأنحاء وحتى الثقافة. ولكي نتعامل مع تلك الأوضاع، لا بد أن نبذل مجهودًا شاقًا للتكيف. كانت مجازفةً، وظهرت أمام تلك المجازفة ردود أفعالٍ عالمية حديثةٍ في العديد من دول الغرب خاصةً العواصم الأربعة الكبرى لدول تحالف الـ"فيشجراد المقدس" Heiligen Allianz von Visegrád ألا وهم بودابست وبراتيسلافا ووارسو وبراج، بل وباتت تسيطر على المشهد السياسي إلى حدٍّ كبير. وكانت هناك بالتأكيد ثورةٌ مضادة، لكن دون ثورة حقيقية. وكان هدفها ردع العالم الأول في مقابل

سيطرة العالم الثالث. فهل من المفترض أن يظل الفقراء يموتون جوعًا ويلاقون حتفهم غرقى وقتلى؟

غزا ذلك الاتحاد المقدس الجديد - الذي يتحدث مثل الاتحاد القديم عن زوال الغرب المسيحي - جموع الجماهير وكوّن قاعدةً كبيرة بها منذ بضع سنوات.

أيد عددٌ كبير من المواطنين خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي في الاستفتاء الذي أجرته بريطانيا في يونيو من عام 2016. حيث نجح القوميون في استقطاب فئات الشعب التي لم تستفد من مزايا العولمة بل كانوا يخشونها. وقامت طبقة العمال Restarbeiterklasse بالأخص في إحدى المقاطعات بانتقامٍ اجتماعي من صفوة المجمتع في لندن العاصمة، وكانوا على دراية شديدة أنهم على هذا النحو يضرون الاقتصاد بشكل كبير. وأطلق الصحفيون على هذا الانتقام لفظ ثورةٍ لكي يضعوا روعة هذا الحدث نصب أعين القراء.

إلا أن هذا الحدث لن يظل غير مألوفٍ أو معتادٍ خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين فقدوا الشعور بالأمان والمحرومين من الامتيازات المختلفة، فقد اصطدموا بمرور الوقت بذلك التناقض الشديد بين الممكن والواقع. فلم يتم تقسيم تلك الثروة، التي بدأت تتزايد في العقد أو العقدين السابقين في تلك البلاد، بشكلٍ منصف، ولم يجنِ الشعب سوى عدم الأمان وضغط التأقلم والمرونة بل وسوء الحظ أيضًا. وكان هؤلاء ممن تسوء أوضاعهم المادية يتعجبون حين يرون كيف أن كبار المديرين ورجال الأعمال لا يعانون خساراتٍ مادية عندما يخطئون في تقدير ثرواتهم ولا حتى عندما يخرقون

القواعد. وهذا ما رسخ ذلك الشعور عند الشعب أن هناك طبقةً من المنتفعين من العولمة، هؤلاء الذين يحتمون بسلطة الدولة، أي ذلك الشعور بأنهم يعيشون في مستوى معيشي لفئات بعينها.

أما هؤلاء الذين يعيشون في الأسفل، الطبقة الدنيا، فكانوا يقطنون مناطق غير صناعية مثل شمال فرنسا وشمال هولندا أو ما يُطلق عليه "نطاق الصدأ" في أمريكا. كان هذا النطاق يشتمل على أماكن مهجورةٍ باتت أكثر بؤسًا من الأيام الخوالي، إلا أنها كانت قد شهدت من قبل أيامًا أفضل. إذ تجد في مكان المطعم الآن صالة لعب، كما باتت دور السينما مكانًا خاويًا إلا من الفئران والحمام.

كما تُظهر الإعلانات شبابًا متحذلقين من الطبقة العليا يجلسون بحواسبهم المحمولة في المقاهي، ويطلقون على ذلك عملًا ويكسبون قوت يومهم منه. يبدو هؤلاء الناس بمظهرٍ جيد وأصحاء وتغمرهم السعادة. هذا هو حال هؤلاء الناس بأعلى. وتعد الحكومة مَن هم بالأسفل بعوالم مفتوحة وبمستقبل واعد وذلك عندما يكملون تعليمهم ويصبحون "لائقين" فكريًا. ولا تظهر بيوتهم كما هي (بحالتها الرثة) سوى في التليفزيون وفي التقارير الاجتماعية (الريبورتاجات) أو في برامج الجريمة، أما ما يُظهره الإعلام فهو أنهم يقطنون بيوتًا كبيرة وراقية تدخلها الشمس من كل مكان، وكما قال "بيرتولد بريشت" Bertolt Brecht في أوبرا القروش الثلاثة: "لأن هناك

مَن هم في الظلام وهناك مَن هم في النور، ونحن نرى مَن هم في النـور أمـا مَـن هـم في الظلام فلا نراهم".

في الواقع لا يبدو الوضع على هذا النحو، فهؤلاء الذين يعيشون في الظـلام إمـا لـيس لديهم لا ربع ولا حتى نصف وظيفة أو لديهم وظيفـة ولكـن مخجلـة ومرهقـة، حيـث يسيرون كل يوم ساعتين على الأقدام حتى يصلوا إلى وسط المدينـة، ولـكي يحصـلوا عـلى تلك الوظيفة - رغم سوئها - يظل مكتب العمل يعطيهم أوامـر هنـا وهنـاك، ولا يـؤول الأمر في النهاية سوى إلى مرتباتٍ متدنية ومبالغ بخيسة أو لا يأخذون أموالًا مطلقًا. فهم في الحقيقة غير قادرين على الحصول على قوت يومهم بشكل كامل؛ فيجـد الأب نفسـه مجبرًا على وضع تلك المبالغ البخيسـة في دورٍ بائسـة لادخارهـا والحفـاظ عليهـا، حيـث يضحي بكل مدخراته. وكما يبدو في الحقيقة أيضًا فلا يُتاح لهم نظام تعليم جيـد، ومَـن يود أن يحظى بالتدريب والتأهيل في مجال النجارة على سبيل المثال لا بد أن يكون قـد حصـل بالفعـل عـلى شـهادة عاليـة في هـذا التخصـص. وهـم في الحقيقـة يقطنـون في مخيمات، حيث يمثـل السـكن في حـد ذاتـه ضـغطًا كبـيرًا يسـتنفد طـاقتهم، فيصـبحون ساكنين وخاملين فيسخر منهم مَن هم في الضوء.

أصبح يتملكهم الخوف على القدر الضئيل من العالم المتوافر لهم، خوفٌ من المجهول، مما هو غريب، ومن هؤلاء الغربـاء الـذين ظهـروا لينافسـوهم عـلى وظائفهم وخدماتهم الاجتماعية. إنهـم لا يصـدقون كلمـةً واحـدة تصـدر عـن سكان وسط المدينة المثقفـين ميسـوري الحـال والمجيـدين للغـات عـدة. فهـم

يضمرون لهم الحسد على هذه الصفات، بل ويحتقرونهم في الوقت نفسه. ومن هنا نشأ الحقد الطبقي ونمت الرغبة في الانتقام. ويتمثل السبيل الوحيد لتفريغ تلك الطاقة السلبية في رد الفعل السياسي الجديد. ذلك الذي قاد خطابًا مجتمعيًا انتقائيًا حول التحرر الشعبي. فترددت عبارات مثل: **"استعيدوا السيطرة"** في بريطانيا العظمى، و**"نحن الشعب"** في شرق ألمانيا. وهو ما كان موجهًا ضد هؤلاء بالأعلى، ضد الصفوة، وضد إعلامهم وثقافتهم وحرياتهم الفردية وانفتاحهم على العالم وضد تسامحهم وسعادة التجربة لديهم وضد تفاؤلهم التاريخي وضد مقولتهم "نحن قادرون على فعل ذلك".

يندرج ضمن هذا الخطاب عرض وسيلة سلطة الديمقراطية المباشرة القائمة على قرار الشعب. وليس المقصود هنا المبادرات الشعبية التي تتشكل من أسفل إلى أعلى والتي طرحت مؤخرًا قضيةً مهمةً أمام المواطنين الذين لهم حق الانتخاب، ألا وهي أن تلك الانتخابات والاستفتاءات ما هي إلا استكمالٌ مهم للخطوات الديمقراطية من أجل صنع القرار. بل المقصود بالسلطة الشعبية هنا الاستفتاءات الشعبية بشكلها الكلاسيكي كالتي تم تأسيسها في عهد القيصر "لويس بونابارت"Louis Bonaparte ، والتي حاول الحكام من خلالها أن يستقطبوا الطبقات الدنيا من الشعب لتحقيق مصالحهم الشخصية، وينضم إلى هؤلاء على سبيل المثال رئيس الوزراء المجري الشعبوي اليميني المتطرف "فيكتور أوربان" Viktor Orbán، ورئيسة الجبهة الوطنية في فرنسا "ماري لوبان" Marine Le Pen.

إن هؤلاء، الذين يشعرون بارتباط وجودهم بالصفوة الممثلة لثقافة عولمة العواصم الكبرى وباحتقار تلك الصفوة لهم، يعتبرون مثل هذه الاستفتاءات بمثابة الفرصة الجيدة كي يُظهروا قوتهم لهؤلاء الأثرياء الجذابين الأذكياء المتحضرين، وفي المقابل يمكن إلغاء النتائج. وهذا ما ينطبق للأسف فأكثر وأكثر على الانتخابات النظامية.

من خلال هذه الممارسات، يخلق ذلك المواطن الغاضب الساخط على الأوضاع لنفسه متنفسًا وبدايةً للتمرد والرفض، إلا أنه ليس ثائرًا بالتأكيد، وهو ما يجعله يتسم بالخطورة، حيث يصبح هو جندي المُشاة المناسب لرد الفعل السياسي الجديد. وهو لا يظهر في أي تجمهرٍ هنا وهناك أمام منازل اللاجئين أو في شبكة التواصل الاجتماعي فحسب، بل في أية عائلةٍ ووسط زملاء العمل أو في النادي الرياضي. إذ بات نمطًا جوهريًا يمثل أي حدثٍ سياسي مهم في الدول الغنية، كما أصبح الجدل المثار حول كيف وأين سنصادف مثل ذلك النمط الثائر من المواطنين الذي يزعزع أي تشكيلٍ سياسي راسخ؟

"الانتفاضة القادمة".. حقًا؟ وأين؟

تنشأ في ظل هذا الموقف من التوتر المتصاعد حركةٌ مضادةٌ مذعورة من زحف الاختراق السياسي لعالمية ردود الفعل الجديدة تلك. فلكل دولةٍ خصوصيتها، وقد دفع على سبيل المثال وصول الحشود الهائلة من اللاجئين إلى ألمانيا، بالإضافة إلى الهجمات الإرهابية على منازل اللاجئين، إلى اعتراك جيلٍ جديدٍ للسياسة، لا سيما التوجه اليساري. وكان لنتائج استفتاء الخروج من الاتحاد الأوروبي في بريطانيا العظمى تأثير مشابه، والأثر نفسه خلفته أيضًا انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة التي فاز بها "دونالد ترامب"، وفي فرنسا عدم قدرة الحكومة الاجتماعية على مجابهة التهديد اليميني من خلال سياسة موثوق بها.

تتكون أشكال تكتلاتٍ جديدةٍ كالتي ظهرت في باريس باسم "المرابطون ليلًا" nuit debout في عام 2016، وكانت حركةً لأقليةٍ اجتماعيةٍ من شباب الطبقة الوسطى المتمدنين، أتباع العولمة الذين ذُهلوا حين أدركوا انحصار فرص ترقيهم اجتماعيًا وضآلتها. وكانت حركة المرابطين ليلًا بدورها أيضًا واحدةً من ظواهر الجيل الجديدة، إلا أنها تنتهي ولكن ليس دون أن تغذي المرحلة بحدثٍ سياسي كبير. وظهر عنصرٌ سياسي جديد لن يختفي من جانبه بسرعة مع ظهور أتباع رئيس الوزراء اليوناني "أليكس تسيبراس" Alex Tsipras، وأتباع السياسي الإسباني "بابلو إنجليسياس" pablo Inglesias وأتباع المرشح الرئاسي الأمريكي "برني ساندر" Bernie Sander، في ظل

غياب قوة الشباب. هذا العنصر ليس ثوريًا على الإطلاق، حتى ولو كانت الثورة أحد مصطلحاته. فقد مضى المفهوم التقليدي للثورة الاشتراكية، ولكن مَن الذي يستطيع أن ينكر أن هناك أفكارًا وعاداتٍ ومؤسساتٍ جديدة قد ظهرت في تلك المرحلة؟

ويظل هذا الجديد الذي يتشكل منفتحًا تجاه اليسار ومنفتحًا كذلك تجاه هؤلاء الذين يسيروا على حافة المنعطفات ويحلمون بالثورة لكنهم لا يستطيعون وصفها. مثل "اللجنة الخفية"، تلك الجماعة الفرنسية التي أطلقت بيان "الانتفاضة القادمة" متضمنًا كلماتٍ قائمة على برنامج حيث جاء فيه ما يلي: "الحاضر لا مفر منه كما نرى. وهذه ليست أقل سماته وعلاماته"[1]. وتتضح جليًا من الصياغة الجيدة لتلك الظاهرة نتيجتان لا يمكن إغفالهما، ألا وهما أن الحاضر لم يعد يمثل شيئًا والمستقبل هو كل شيء. ولكن مَن الذي من شأنه أن يستقبل الأمر كذلك في الدول الغنية؟ فالمهمشون والمحتقرون أقليةٌ، بل وأكثر من ذلك؛ فإذا ما انتفضوا لن يتبعهم أحدٌ على الإطلاق. والآخرون جميعًا لديهم أشياء يمكن أن يفقدوها أكثر من سلاسلهم، هذه صياغةٌ من الميثاق الشيوعي. ومن حيث المبدأ يمكن إصلاح الأنظمة السياسية الاجتماعية التابعة للدول الثرية.

من حيث المبدأ.

1- Comité invisible, L'insurrection qui vient; La Fabrique, Paris 2007, S. 7.

وماذا إن لم تكن قابلةً للإصلاح؟ من الصعب أن نجد إجابةً لهـذا السـؤال، حيـث إن تشكيل مجموعةٍ ثوريةٍ جديدة قادرةٍ على كتابة التاريخ وصنع قصـةٍ خالـدةٍ أمـرٌ لـيس متوقعًا على الأمد القريب، ما دام يمكننـا أن نتوقـع الأسـوأ، ألا وهـو عدوانيـةٌ متفشـيةٌ ومسيطرةٌ على عددٍ هائلٍ من البشر. تلك العدوانية التي تدمر المحيط المتحضر في علاقة المواطنين مع بعضهم بعضًـا، وتلـتهم المؤسسـات الاجتماعيـة وتسـتنزف ثقـة الأشـخاص وتخفض من سقف الآمال بإقامة دولة قانونٍ ديمقراطية.

يعيش جزءٌ كبير من سكان العالم في مناطق الإصلاح فيها مُستبعدٌ، بل ويبدو حاضرها بلا أملٍ ولا ملامح لغالبيتهم. فيرتبط دائمًا وجود شعوبها بالشقاء في ظـل ظـروفٍ مهينـةٍ وغير آدمية تحت مظلة الحكـم الـديكتاتوري. فهـم يعايشـون ذلـك التنـاقض الكبـير في أفظع صوره. ويعرفون ذلك التناقض على أفضل وجه، ويدركون أيضًا أين تشتعل الأمـور في العالم، وهو ما يبعث على الفكر. فلـن يظلـوا بـأي حـالٍ مـن الأحـوال يقبلـون ذلـك التناقض طوال الوقت؛ لا في آسيا ولا في أمريكا اللاتينية ولا في أفريقيا ولا في العالم العربي خاصة، فتظل فكرة الثورة في تلك البلدان قائمةً وحاضرةً دائمًا عـلى النقـيض مـن الـدول الغنية.

الويل للحكام المستبدين واللصوص عندما يعاندون ويتشبثون بمزايا حكمهم بالقوة.

وويلٌ لنا إذا ما تركنا العالم يرانا وكأننا نتحالف مع هؤلاء الحكام المستبدين ضد الشعوب.

وكما أكدت وزيرة الخارجية الفرنسية "ميشيل أليوت ماري" Michèle Alliot Marie في الجمعية الوطنية الفرنسية قبل ثلاثة أيامٍ من قيام الثورة التونسية: "إن قدرة قواتنا الأمنية، التي يعترف بها العالم أجمع، تسمح بتنظيم مثل هذه المواقف".

تلك العبارة التي تناقلتها في لمح البصر الهواتف الذكية لملايين التونسيين.

كلمة الختام

في مجلس وزراء الدُمى

عالمٌ غريبٌ يبعث على الضحك يطؤه مَن يتوجه إلى متنزه "ميمنتو" الذي يبعد عن وسط مدينة بودابست مسافة نصف ساعةٍ بالحافلة ويقع في منطقةٍ دون ملامح. هنا نجد تماثيلَ ومنحوتاتٍ تعود إلى الحقبة الاشتراكية في المجر متراصةً في مكان ضيق وتكاد تكون متلاصقةً ببعضها، إلا أنها على خلاف الماضي، دون قاعدة تمثال. "كارل ماركس" و"فريدريك إنجلز"، و"فلاديمير إليتش لينين"، و"جورجي ديميتروف"، و"بيلا كون"، وأيًا كانت أسماؤهم جميعًا، كلهم بحجم طبيعي ويكادون أن يكونوا حقيقيين وملموسين. ينضم إليهم البحارة السوفيت "الصقلوبيين" وغيرهم من المكافحين الذين يجتاحون مكانًا بلا هدف.

يتمثل الشيء الأغرب على وجه الخصوص في فردتي حذاء ضخمتين برقبة، وهما نسخة طبق الأصل مما تبقى من النصب التذكاري لـ"ستالين" في بودابست بعد أن أسقطه المواطنون الثائرون عام 1956.

فكرتُ للحظةٍ في متنزه "ميمنتو" أنه أشبه بحديقة الديناصورات الجوراسية Jurassic Park. ماذا لو عاد هؤلاء الأشخاص إلى الحياة ثانيةً؟

حسنًا، لا شيء. فقد ولت أزمانهم. والموتى المتجسدون في أحياء لن يكون بمقدورهم شقُّ طريقهم. وأصبحت البلشفية ما بعد أي شيء، فهي الماضي التام بشدَّةٍ من حيث الزمن. والتماثيل الغرض منها أن يتندر عليها الزائرون، مثلما يتندرون في الغالب على السيارة "الترابانت" المعروضة عند مدخل المتنزه، أو كابينة التليفون التي يستطيع الزائرون الاتصال منها بـ"ستالين" وآخرين من كبار رجال الاشتراكية التاريخيين، ليستمعوا إلى أصواتهم عبر شريطٍ مُسجل. وهو ما يتبعه شراء أغراض التعبد الشيوعية من متجرٍ للهدايا التذكارية.

وعلى جزيرة "كينمن" التابعة لتايوان، والكائنة أمام الأراضي اليابسة الصينية مباشرةً والتي تظل تُشكل منطقةً متنازعٌ عليها منذ القدم، زرت ذات يوم بار "ماو تسي تونج" الذي أبهرني؛ فالديكور كان يتكون من ملصقاتٍ وتماثيلَ للثورة الثقافية، أما الموسيقى فكانت من نوع "البوب" الإلكتروني. تجاذبتُ أطراف الحديث هناك مع زوجين من إسكتلندا من بين آخرين كُثر. وعندما تبينت أنهما بدورهما كانا منضمين في شبابهما إلى منظمةٍ شبابيةٍ من اليسار المتطرف، أخذنا نتذكر أغنياتٍ ثورية ونرددها معًا وغلبت علينا المشاعر الجياشة. لم يعد هناك وجود للبار الآن.

بينما هم يتاجرون في أماكن أخرى مثل بوابة "براندنبورج" بدُمى أيقونات الشيوعية وبصور "لينين" الصغيرة والتماثيل النصفية لـ"ستالين" وما شابه؛ يتمثل في كوبا ذلك النهج في الهدايا التذكارية التي تحمل صور "تشي"، وفي

الصين كذلك تماثيل "ماو" وطفايات سجائر "لين بياو"، فضلًا عن التماثيل الصغيرة المحببة والمصنوعة من الخزف للسيدات من الحرس الأحمر.

تستحضر الثورات دائمًا الفولكلور الخاص بها. فقد ارتدى الجمهوريون المتطرفون أثناء إرهاب الثورة الفرنسية شارةً على شكل المقصلة كما يتناول مؤيدو "مارا" الباقون حتى اليوم لحم رأس العجل وهم يبتسمون ابتسامةً عريضةً وذلك يوم 21 يناير من كل عام، فهذا هو يوم وفاة "لويس الرابع عشر" تحت نصل المقصلة.

وأنا لم أتحرر من مثل هذه الدعاية الرخيصة للأبد. ألم أرتدِ قلادة منقوشٌ عليها صورةٌ لمحارب الرمح اليوناني شعار الجيش الوطني لجمهورية الكونغو Umkhonto we رمح الأمة؟ ألم أدس إصبع يدي اليسرى في ذلك الخاتم الذي من المفترض أنه مصنوعٌ من بقايا طائرةٍ أمريكية أسقطتها الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة باسم "فيتكونج"؟ ولم أشغل تفكيري مطلقًا بمصير الطيار بل فكرت في ضحاياه فقط.

قد يكون ذلك كله أمرًا لا غضاضة فيه. ولكنني اشتريت ذات مرةٍ داخل متجرٍ للعب الأطفال في موسكو إبان حقبة السوفيت كتابًا مطويًا يمجد الجيش الأحمر، متضمنًا الزحف داخل أفغانستان. وقد اعتبرت ذلك مضحكًا وليس مريعًا. كما رأيت في شقق الشيوعيين القدامى نماذج مصغرةً لدباباتٍ سوفيتية وبنادق "كلاشينكوف" تزين أرفف الكتب. وبغض النظر عن مثل هذا الانتفاع التذكاري القتالي، كانت هناك أيضًا جدارياتٌ وتماثيلُ نصفيةٌ

وأقداح بيرة وفناجين شاي مُصورٌ عليها "لينين" وغيرها مـن المنتجـات المبتذلـة. ليصبح الثوري أحد مجرد ديكور لا أهمية له.

تُعد تلك بالمناسبة ظاهرةً لا تقتصر على الاشتراكية المتأخرة فقط. وقـد ذكـر الأنـاركي الألماني "رودولف روكر" Rudolf Rocker (1873 – 1958) في مذكراتـه علاقتـه برفيقـه الفكري "ألكسندر كوهين" Alexander Cohen.

وكان الرجل قد واتته فكرةٌ غريبة. حيث نظَّـم في أتيليـه أحـد الرسـامين المشـهورين الكائن في الحي اللاتينـي معرضًـا لكافـة الأغـراض المصـنوعة في ألمانيـا والتـي امتـدحتها الصحف الاشتراكية بغرض دعم تقديس الزعماء الحمر. كانت تلك مجموعةً ثرية، أشـبه بغرفة إكسسوارات التمثيل الاشتراكية، أثار حجم ما بها دهشتي ووضع أمام عيني أشياءَ لم أكن قد رأيتها من قبل. حيث رأيت دبابيس زينةٍ وأزرار قمصان عليها صور "بيبل" أو "ليبكنيخت" أو "زينجر"، بالإضافة إلى شبشب وعصا تمشية وفناجين قهوة وأقـداح بـيرة وقـدورٍ خشـبية وعُلـب أدوات خياطـة وصـناديقَ حُـلي وعمـلاتٍ تذكاريـة ومزهريـاتٍ وحِلْياتِ أحزمة وحِلْياتٍ صغيرة ومظلاتٍ واقية من المطر وقواعـدَ غليـون ومباسـمَ سـيجارٍ وفرش تنظيـف الملابـس ومطـاوٍ للجيـب وعلـبِ نشـوق وأغطيـة مصابيح وأكـوابِ زهـر ودبابيسَ زينة وصناديق موسـيقى ومناديـلَ ودفـاترَ ملاحظـاتٍ وعلـبِ ثقـابٍ وحافظـاتٍ سيجار ولوحاتٍ مكتوبةٌ عليها حِكم وأمثال إلى جانب كمٍ هائل من الأغراض الأخرى. كانت كلها مُزينـةً بصـور "مـاركس" و"لاسـال" وغـيرهما مـن مشـاهير "رجـال الشـعب". وكانـت

طريقة العرض بلا استثناء مجرد ابتذالٍ في أبشع أنواعه. وكان أكثر هذه الأغـراض سِـحرًا زجاجة الخمر المحفورة عليها صورة "ماركس" وهو عاقدٌ يديه ومكتوبةٌ تحتها الكلـمات التالية: "يا عمال العالم.. اتحدوا"[1].

عندما كنا - نحن الراديكاليين اليساريين - ما زلنا قادرين على أن نضحك على أنفسـنا في المرحلة المناهضة للسلطوية، كنا نمـزح باسـتخدام مثـل هـذه النوعيـة مـن الأغـراض المقدسة حسب التقليد اليساري. إذ كان ذلك في النهاية هو وقت بورتريهات "ماو" على غرار صناعة "أندي وارهول" لصوره (الزعيم الكبير جالسٌ مثل موناليزا الشرق، كـما كـان النقاد الثقافيون يتندرون)، وهكذا أصبحت الثورة بمثابة الثقافة الشـعبية، بنـبرةٍ يغلـب عليها السخرية). إلا أن الجدية سرعان ما تعود لتفرض نفسها فيصبح ارتداء سترةٍ عليهـا صورة "لينين" مدعاةً للفخر.

حتى يومنا هذا، ما زال لهذا المزيج من الشعارات و"البوب" والرعب المتأصل في سلع الثورة الرخيصة عشاقه. فقد رأيت في مكتب أحد محرري جريدة "فرانكفورتر ألجماينه" تمثالًا نصفيًا مكتنزًا لـ"لينين"، بينما سجل الآخـر أسـطوانةً تحـوي أغـاني كفـاحٍ شـيوعية، بالطبع ليس على سبيل الجد، فنحن جميعًا نتسم بروح السخرية، ولكـن لـن ينكـر مَـن يسـمع هـذه الأغـاني أن روحهـا تملكـت المغنـي المنـاهض للشـيوعية، "يوهـان چـورچ ريسمولر".

1- Rudolf Rocker, Aus den Memoiren eines deutschen Anarchisten; Suhrkamp,- Frankfurt/M- 1974, S. 99

ولن يتعامل أي شخصٍ في كامل قـواه العقليـة هكـذا مـع السـلع النازيـة الرخيصـة. فلماذا إذًا مع سلع الشيوعية الرخيصة؟

ولأنه رغم كل شيء، رغم الجرائم الجماعية التي ارتكبها الثوار الشيوعيون، ورغم كل شيء آل إليه تأسيس دولهم، فإن حـركتهم نشـأت ذات يـوم بوصـفها كفاحًـا مـن أجـل كرامة الإنسان. وللأسباب نفسها تُذكرنا اليوم في فرنسـا لوحـاتُ صـورٍ وديكـوراتُ زينـة الصالونات ودعاماتُ كتبٍ بالثورة الكبرى التي قامت عـام 1789، رغـم أن هـذه الثـورة انتهى بها المطاف إلى إرهابٍ أولًا ثـم إمبراطوريـة إمبرياليـة. إذ كانـت الثـورة الفرنسـية مثابة الانطلاقة العاصفة لعمليةٍ انتهى بها المآل إلى الديمقراطيات الأوروبية.

المومياء الثورية

إلا أنني شهدت في موسكو أكثر السلع الثورية المبتذلة إدهاشًـا عـلى مـر العصـور، لا سيما في ضريح "لينين"؛ المومياء الثورية.

بعد وفاة "لينين" عام 1924، لم يكتفِ المكتب السياسي للاشتراكيين السوفيت بالتشاور حول مستقبل ثورة العالم، بل أيضًا حول ما سيحل بجثمان "فلاديمير إيليـتش". وتسـاءلوا ما إذا كان يتعين عليهم دفنه أو الإبقاء على جثمانه كما هو. لم يرغب أيٌّ من المشـاركين في أن يتحول الجثمان إلى ذخيرةٍ مقدسـةٍ للتـبرك. لا، فقـد كـانوا جميعًـا مـاديين وفكـروا ببساطةٍ في كيفية الانتفاع من جسـد "لينـين" الميـت، تمامًـا مـثلما كـان "جيرمـي بينثـام"

Jeremy- Bentham (1748 – 1832)، الـبرجماتي الأصـلي والسـلف الأكـبر لليبراليـة الجديدة الذي سخر منه "ماركس"، قد نظـر إلى الأمـر بعـين الاعتبـار في عملـه الجميـل "أيقونة السيارة.. إمكانات استغلالٍ أخرى للأموات من أجل رخـاء الأحيـاء"[1]. فاتفقـت قيادات الحزب في النهاية على مبدأ كان "بينثام" قد اقترحـه بالفعـل؛ تحويـل الجثـة إلى تمثالٍ أشبه بالجسد الحي يجب أن يبدو على الشكل نفسه دائمًا حتى وإن تطلب الأمر العبث بهذه الجثة. وتم التوصل إلى التحنيط كوسيلة.

في العقود التالية، ظلت "لجنة مفوضية الصحة الشعبية المعنية بفحص جـثمان لينـين" تهتم بهذا الشأن، حيث تعلق الأمر على سبيل المثال بالحالة المأسوية التي وصل لها أنف "لينين" أو أصابع قدمه، فلنعبر عن الأمر كالتالي: كان لديهم دائمًا مـا يفعلونـه وينشـغلون به، وهو ما استمر حتى اليوم. ولم يهتم المعمـل المُكلـف بعمليـة التخليـد بالحفـاظ عـلى ملامح وجه هذا الرجل الثوري فحسب، بـل أيضًـا بشـكل قدميـه وشـعر صـدره أو حتـى بمرونة مفاصل ركبتيه على سبيل المثال[2]. إنها مهمةٌ أبدية. وقد تبادل الخـبراء في العقـود التاليـة الأجـزاء مـرارًا وجـددوا حلـول الحفـظ والطـلاء الخـارجي. وحتـى نهايـة الاتحـاد

1- Jeremy Bentham, »Auto-Ikone. Weitere Verwendungsmöglichkeiten- von Toten zu Wohle der Lebenden«; Die Blaue Eule, Essen 1995.

2- Alexei Yurchak, Bodies of Lenin-.. The Hidden Science of Communist Sovereignty;- in: Representations, Nr.. 129 (Winter- 2015), S. 116 ff..

السوفيتي، ظل المكتب السياسي للحزب يحرس إعادة تركيب جسد "لينين" المستدام. ويحرس بذلك اللينينية بأكملها.

دامت مومياء "لينين" لما بعد اللينينية، والاشتراكية أيضًا. نعم، بل هناك ما هو أكثر من ذلك، فعندما تضاءلت مخصصات الدولة، فتحت مجموعة العلماء التي تشكلت الآن استنادًا إلى قانونية القطاع الخاص لنفسها سوقًا جديدًا ومنحت منذ ذلك الوقت "هو تشي منه" أيضًا وجودًا مستدامًا وخالدًا. إذ يحفظ رأس المال خصومه، بل ويمكنه أيضًا استخلاص المكاسب من ذلك. إلا أنه أحيانًا ما يحاول بعض الناس اجتياح الضريح بغرض إيقاظ "لينين" على حد قولهم. فيتم التعامل معهم على أنهم مُختلون.

تُرى ما الذي لم يؤدِ إليه التفكير في جثمان "لينين" المحفوظ...؟!

... يعد هذا سؤالًا ربما يتطلب أن أكتب عنه كتابًا آخر: هل انتصرت الرأسمالية بشكلٍ نهائي؟ هل يتعين علينا الانضمام إلى الإقرار الحزين للمؤرخ "فرانسوا فوريه" François Furet الذي كان اشتراكيًا في شبابه ثم أصبح فيما بعد شخصًا يهاجم أوهام الثورتين الفرنسية والروسية حين قال: "ها نحن ملعونون لأننا نعيش في ذلك العالم الذي نوجد فيه"؟[1].

1- François Furet, Le passé d'une illusion, Robert Laffont, Calmann-Lévy, Paris- 1995, S. 572.

تصور لكتاب آخر

الرأسمالية هي الصفة التي تُطلق على المجتمعات التي تعمل أغلبية الأفراد بها من أجل رأس المال. إذ ينعكس هذا النوع من العمل والسلطة على طريقة الحياة بأكملها بما في ذلك السياسة. فأفق المجتمع طوبوي ولا يمكن إدراكه، بل إننا لا نعرف بعد ما إذا كان موجودًا.

يجب البحث دائمًا عن حلولٍ أفضل بالطبع، ولكن ما دامت تلك لم يتم التوصل إليها بعد، تكمن السياسة الأكثر ودًا تجاه البشر في جعل الحياة في ظل الرأسمالية مُحتملةً قدر المستطاع، للجميع.

هل هذا قليل؟ إنه برنامج كفاح.

وأحيانًا يمكن أن يتحقق ذلك فقط عندما ينتفض الشعب.

عن الكتاب

لماذا تُعد تلك لحظة خاصة وتتسم بالسمو حين ينتفض الشعب، سواء كان ذلك في ميدان التحرير بالقاهرة أو في الميدان بمدينة كييف؟ لماذا نتحمس لأجل الثورات حتى وإن كُنّا نعلم أنها لن تحقق أهدافها الفعلية وربما يتم إخمادها أو تتعرض للخيانة وفي الأغلب على يد الثوار أنفسهم؟ يصور المؤلف "فون راندوف" في عمله المكتوب بأسلوب آخاذ وشخصي للغاية تجاربه ومعايشاته للثورات. ويتتبع السؤال عمّا إذا كانت الثورات لا تزال تُمثل نموذجًا للمستقبل. وجاءت إجاباته غايةً في الشدة ومفاجئةً في الوقت نفسه.

انتصرت ثورة أكتوبر الروسية قبل مائة عام. واعتقد جيل بأكمله من الشباب قبل خمسين عامًا بأن وقت الثورات قد عاد ثانيةً. ولكن ما الذي تبقى من كل ذلك؟ ليس سوى الاستسلام. وما الذي تعنيه على الإطلاق **الثورة؟**

لقد تلقى المؤلف درسًا مرئيًا عام 2011 حين كان شاهد عيان على الثورة التونسية. وتقول نظريته بأن الثورات تأتي بشكل غير متوقع. ورغم ذلك، يمكن التعرف خلالها إلى أنماط ونماذج بعينها.

يتجول الكتاب بين القارة الأمريكية وشرق أوروبا وغربها وكذلك في أفريقيا وآسيا. كما يستعرض العصور والقرون بدءًا من العبيد الثائرين في العصور القديمة مرورًا بثوار عام 1789 والحركة الشيوعية وصولًا إلى متمردي العصر الحاضر. وهو في استعراضه هذا يبحث عن حقائق وأفكار من شأنها أن تلقي الضوء على أكثر ظواهر التاريخ ثراءً بالوجوه المختلفة وأكثرها غير اعتيادية.

عن المؤلف

ولد الكاتب والصحفي الحائز على عديد من الجوائز، "جيرو فون راندوف" عام 1953 ثم أصبح عام 1992 محررًا علميًا بجريدة "دي تسايت" الأسبوعية ومقرها مدينة "هامبورج". وقد ساهم في الفترة من 2001 حتى 2003 في تأسيس جريدة "فرانكفورتر ألجماينه" ليوم الأحد حيث كان مديرًا للقطاع العلمي ليعود بعدها إلى جريدة "دي تسايت" محررًا سياسيًا. عمل رئيسًا لتحرير "تسايت أونلاين" من 2005 حتى 2008، ومن 2008 حتى 2013 مراسلًا لجريدة "دي تسايت" في باريس، وهو يعمل منذ ذلك الوقت محررًا لقطاع السياسة بجريدة "دي تسايت".

الفهرس

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

العنوان	المؤلف	البلد
1. اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
2. كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3. أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4. جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5. نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
6. مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
7. علاقات دولية	إلبيت إليكا	ألبانيا
8. قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
9. لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
10. سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
11. حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
12. أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
13. الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
14. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
15. الحياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	إنجلترا
16. الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
17. تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
18. جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
19. شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
20. الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
21. حذارِ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
22. سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
23. امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
24. بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
25. كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
26. مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
27. نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
28. الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
29. ماذا فعلت غدًا	برونو فييرا	البرتغال
30. أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا

31. فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
32. التعساء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
33. صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
34. مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
35. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
36. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
37. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
38. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
39. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
40. توباز	هاكان جنيد	تركيا
41. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
42. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
43. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
44. الطلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
45. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
46. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
47. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
48. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
49. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
50. مينتا	سوملاز كاموران	تركيا
51. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
52. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
53. المزيد	هاكان جنيد	تركيا
54. الرجل الذي باع العالم	ألبير چانيجوز	تركيا
55. المدينة ذات العباءة القرمزية	أصيلي إردوغان	تركيا
56. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
57. معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
58. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
59. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
60. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
61. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
62. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
63. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك

64. احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
65. الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
66. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
67. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
68. المنتحر	أولجا سلافينكوفا	روسيا
69. رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
70. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
71. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
72. يوغوسلافيا.. أرض أبي	جوراي فوينوفيتش	سلوفينيا
73. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
74. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
75. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
76. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
77. بنات الصين	يي مِاي	الصين
78. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
79. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
80. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
81. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
82. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
83. العجوز والكلب	يان ليانكي	الصين
84. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
85. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
86. جريمة في باريس	صوفي إناف	فرنسا
87. أخي الكبير	ماهير جوفين	فرنسا
88. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
89. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
90. اعترافات مؤجلة	ميجيلا بودوين	فنزويلا
91. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
92. أين أنتِ؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
93. فتاة كازابلانكا	إن كولي جان بوفان	الكونغو
94. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
95. القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
96. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا

97. القزم وقصص أخرى	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
98. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
99. الجريمة المكسيكية	إكتور آجيلار كامين	المكسيك
100. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
101. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
102. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
103. حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
104. ف.و.م.و	ألموت تينا شميت	النمسا
105. حزن غير محتمل	بيتر هاندكه	النمسا
106. ثقل العالم	بيتر هاندكه	النمسا
107. في ليلة مظلمة تركت منزلي الصامت	بيتر هاندكه	النمسا
108. أختي قاتلة متسلسلة	أوينكان برايزوايت	نيجيريا
109. دكّان الساري	روبا باجوا	الهند
110. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
111. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
112. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
113. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
114. أجمل فتاة في جنوة	إليا ليونارد	هولندا
115. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
116. بذلة فضاء برتقالية اللون	لويد ميركام	ويلز
117. المدينة الخاوية	جاري ريموند	ويلز
118. لماذا قتلت صديقتي العزيزة	أماندا ميكيالبولو	اليونان

صدر من كتب عامَّة:

119. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
120. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
121. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
122. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
123. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
124. لماذا تنتفض الشعوب؟	جيرو فون راندوف	ألمانيا
125. مستقبل النسوية	مجموعة مؤلفين	إنجلترا
126. إسكتشات مصرية	جيريمايا لينش	إنجلترا
127. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
128. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
129. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
130. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
131. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
132. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
133. الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
134. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
135. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
136. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
137. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
138. البصمة الكربونية	دويين باهتشجي	تركيا
139. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
140. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
141. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
142. الجري	ثور جوتاس	النرويج
143. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
144. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا
145. النسوية للرجال	يانس فان تريخت	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

146. بيلبورت: قصة مدينة	جيفري لويس	أمريكا
147. لا صديق سوى الجبال	بهروز بوجاني	إيران
148. شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
149. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
150. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
151. روميو وجولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
152. عودة مطولة إلى المنزل	بيتر هاندكه	النمسا

المؤلف الحاصل على النوبل في الآداب 2019

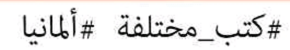
بيتر هاندكه

1 - حزن غير محتمل

2- ثِقل العالم

3- في ليلة مظلمة تركت منزلي الصامت

4- عودة مطولة إلى الوطن





#أفكار_للحوار

لماذا تُعد تلك لحظة خاصة وتتسم بالسمو حين ينتفض الشعب؟ لماذا نتحمس لأجل الثورات حتى وإن كُنَّا نعلم أنها لن تحقق أهدافها الفعلية وربما يتم إخمادها أو تتعرض للخيانة وفي الأغلب على يد الثوار أنفسهم؟ يصور المؤلف "فون راندوف" في عمله المكتوب بأسلوب آخاذ وشخصي للغاية تجاربه ومعايشاته للثورات. ويتتبع السؤال عمَّا إذا كانت الثورات لا تزال تُمثل نموذجًا للمستقبل. وجاءت إجاباته غايةً في الشدة ومفاجئةً في الوقت نفسه.

يتجول الكتاب بين القارة الأمريكية وشرق أوروبا وغربها وكذلك في أفريقيا وآسيا. وقد تلقى المؤلف درسًا مرئيًا عام 2011 حين كان شاهد عيان على الثورة التونسية. كما يستعرض العصور والقرون بدءًا من العبيد الثائرين في العصور القديمة مرورًا بثوار عام 1789 والحركة الشيوعية وصولًا إلى متمردي العصر الحاضر. وهو في استعراضه هذا يبحث عن حقائق وأفكار من شأنها أن تلقي الضوء على أكثر ظواهر التاريخ ثراءً بالوجوه المختلفة وأكثرها غير اعتيادية.

جيرو فون راندوف

© privat

صحفي ومؤلف ألماني حائز على العديد من الجوائز. ولد عام 1953، وعمل محررًا في عام 1992 لصحيفة "دي تسايت" الأسبوعية. ومن عام 2001 إلى عام 2003، عمل كرئيس للقسم العلمي في جريدة "فرانكفورتر ألجيماينه" ثم عاد إلى "دي تسايت" كمحرر سياسي. ومن عام 2005 إلى عام 2008، كان رئيس تحرير "تسايت أونلاين"، ومراسل "دي تسايت" في باريس من 2008 إلى 2013، ومنذ ذلك الحين عمل كمحرر لـ"دي تسايت" في القسم السياسي.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



تصميم الغلاف: عصام أمين